كرسي الملك عبدالله بن عبدالعزيز للقرآن الكريم
King Abdullah bin AbdulAziz Chair For The Holy Quran

الموسوعة العالمية للهدايات القرآنية
كرسي الهدايات القرآنية

عمادة البحث العلمي
DSR.UQU
جامعة أم القرى

الهدايات القرآنية

دراسة تأصيلية

المجلد الثاني

إعداد
الفريق البحثي

أ.د. طه عابدين طه حمد
د. ياسين بن حافظ قاري
د. فخر الدين الزبير علي

النبأ العظيم
نشر هدى القرآن

الهدايات القرآنية

دراسة تأصيلية

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الرابع

المنهج الأمثل في التعامل مع الهدايات القرآنية

ويشتمل على المباحث التالية:

* هدي السلف في التعامل مع الهدايات القرآنية
* طرق العلماء في الوصول للهدايات القرآنية
* أصول وقواعد وضوابط في التعامل مع الهدايات القرآنية

المبحث الأول

هدي السلف في التعامل مع الهدايات القرآنية

إعداد

د . فخر الدين الزبير

هدي السلف في التعامل مع الهدايات القرآنية

تمهيد:

إن كل علم نظري، يفتقر إلى أسوة عملية يُقتدى بها، وتطبيقات واقعية يُهتدى بها، والهدايات القرآنية حتى تؤتي أكلها، ويشتد عودها، لابد لها - بعد الجانب التأصيلي- من واقع تنزيلي، ولاشك أن أفضل التطبيقات، وأجل القدوات ما كان في القرون المفضلة، وهي قرون السلف، الذين أمر الله باتباعهم، فقال سبحانه: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[التوبة: ١٠٠]؛ ولذلك سيكون الحديث في هذا المبحث حول هدي السلف في التعامل مع الهدايات علمًا وعملًا، وأبدأ هذا المبحث بتمهيد حول مفهومي: الهدي والسلف .

أولًا: معنى الهدي:

الهدي: يطلق على القصد، والوجهة، والطريقة، يقال: فلان هدية أمره، أي: جهة أمره، وضل هديته: أي وجهه، ويقال: فلان يذهب على هديته أي على قصده، ويقال: هديت أي قصدت .

وفلان يهدي هدي فلان: يفعل مثل فعله، ويسير سيرته، وفي الحديث: " واهتدوا بهدي عمار "(١)، أي: سيروا بسيرته، وتهيأوا بهيئته، وما أحسن هديه، أي: سمته وسكونه، وفلان حسن الهدي، والهدية، أي: الطريقة والسيرة، والجمع هدي، مثل: تمرة وتمر، وفي حديث جابر بن عبد الله: " وإن أحسن الهدي هدي محمد "(٢)، أي أحسن الطريق، والنحو، والهيئة، وفي الحديث: " الهدي الصالح والسمت الصالح جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة "(٣).

قال ابن الأثير رحمه الله: الهدي السيرة والهيئة والطريقة، ومعنى الحديث أن هذه الحال من شمائل الأنبياء من جملة خصالهم وأنها جزء معلوم من أجزاء أفعالهم، وليس المعنى أن النبوة تتجزأ، ولا أن من جمع هذه الخلال كان فيه جزء من النبوة، فإن النبوة غير مكتسبة، ولا مجتلبة بالأسباب، وإنما هي كرامة من الله تعالى، ويجوز أن يكون أراد بالنبوة ما جاءت به النبوة ودعت إليه، وتخصيص هذا العدد، مما يستأثر النبي ﷺ بمعرفته(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب المناقب، باب مناقب عمار بن ياسر رضي الله عنه، برقم: (٦٦٨)، والحاكم في المستدرك: (٣/ ٧٩)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٣/ ٢٣٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند، (٢٢/ ٢٣٧)، والحاكم في المستدرك: (١/ ١٨٤)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه أحمد في المسند، (٤/ ٤٣٢)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الوقار، برقم: (٤٦٠٧)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١/ ٢٩٤).

(٤) ينظر: لسان العرب (١٥/ ٣٥٦)، والنهاية لابن الأثير: (٥/ ٢٥٣).

ثانيًا: معنى السلف:

السلف لغة: كل من تقدمك، قال ابن منظور رحمه الله: " سلف يسلف سلفًا، مثال: طلب يطلب طلبًا، أي: مضى، والقوم السلاف: المتقدمون، وسلف الرجل: آباؤه المتقدمون، والجمع أسلاف وسلاف، وقال ابن بري: سلاف، ليس بجمع لسلف، وإنما هو جمع سالف للمتقدم، وجمع سالف أيضا سلف، ومثله خالف وخلف .. والسلف أيضًا: من تقدمك من آبائك، وذوي قرابتك، الذين هم فوقك، في السن والفضل، واحدهم سالف ؛ ومنه قول طفيل الغنوي يرثي قومه:

مضوا سلفا قصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تقلب

أراد: أنهم تقدمونا، وقصد سبيلنا عليهم، أي: نموت كما ماتوا، فنكون سلفا لمن بعدنا، كما كانوا سلفًا لنا "[١] .

والسلف في الاصطلاح: أصحاب القرون الثلاثة الفاضلة من الصحابة والتابعين وأتباعهم، دون من رمي ببدعة، أو شهر بلقب غير مرضي، كجهمي، أو رافضي[٢] .

ودليل ذلك حديث عمران بن الحصين ﷺ أنّ النبيَّ ﷺ قال: " إنَّ خَيْرَكُمْ

(١) المرجع السابق: (٩ / ١٥٩) .

(٢) لوامع الأنوار؛ للسفاريني: (١ / ٢٠) .

قَرْنِـي، ثُمَّ الَّذين يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُمْ "(١) .

والنّسبةُ إلى السَّلَف سلفيٌّ، ويقصد بها أحد أمرين:

١ ـ إما أنّه من القرون الثلاثــة .

٢ ـ وإما أنّــه متبــع لهـم في طريقتهم في الدين .

كما قال ﷺ: " لا يزال ناس من أمتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمر الله، وهم ظاهرون "(٢)، فالاستمراريّة تستلزم متابعة السابقين .

معالم هدي السلف مع الهدايات:

إن الإقبال على كل شيء، علمًا وعملًا، إنما يقوم على قاعدة التعظيم له، وقوة التعلق به، وهذا الأصل هو الذي حققه السلف الكرام، مع هدايات القرآن العظيم، فقد كان إقبالهم على القرآن الكريم تدبرًا لآياته، وتأثرًا بعظاته، وعملًا بأحكامه، واجتنابًا لمنهياته، قائمًا على غاية التعظيم للمنزِّل والمنزَل، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[الإسراء: ١٠٧ – ١٠٩]، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، برقم: (٢٦٥١)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، برقم: (٢٥٣٥) .

(٢) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب، برقم: (٣٦٤٠)، ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب قوله صلى الله عليه وسلّم: لا تزال طائفة ...، برقم: (١٩٢١) .

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر: ٢٣].

قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: " كان أصحاب محمد إذا سمعوا القرآن، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، كما نعتهم الله "(١).

قال ابن كثير رحمه الله: " هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ﴾: لما يرجون، ويُؤمِّلون من رحمته ولطفه "(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه قال: " لا يضر الرجل أن لا يسأل عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن، فإنه يحب الله ورسوله ﷺ "(٣)، وقال: " إن هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن "(٤).

وقال خباب بن الأرت ﷺ لرجل: " تقرب إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه "(٥).

---

(١) رواه سعيد بن منصور في التفسير من سننه (٢/ ٣٣٠)، برقم: (٩٥)، وصححه محققه .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٩٤) .

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:٢١) .

(٤) رواه الدارمي في سننه (٤/ ٢٠٩٣)، برقم: (٣٣٦٥)، وقال محققه: إسناده صحيح .

(٥) رواه الدارمي في الرد على الجهمية (١/ ١٧٣٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .

ويتجلّى هذا التعظيم في جميع جوانب تعاملاتهم مع القرآن الكريم، وسيظهر ذلك في ثنايا ما سيأتي من الفقرات .

أولًا: كثرة تلاوة القرآن الكريم والاهتمام بحفظه وإدامة النظر فيه:

كثرة التلاوة، والعكوف على القرآن الكريم، من أهم ما يميز السلف الكرام؛ فإن بداية العلم، والتدبر، والفهم، والاستنباط، تبدأ بالترتيل، وإدامة النظر، والحفظ والتكرير، مع ما فيه من الأجر الكبير، وقد كان هذا الأمر ظاهرًا من بداية العهد الأول، فقد قال صلى الله عليه وسلّم: " إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن، حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم، من أصواتهم بالقرآن وبالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار "[(١)] .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " أديموا النظر في المصحف "[(٢)] .

وقال أيضًا: " إن هذه القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره "[(٣)] .

وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: " إني لأستحي ألا أنظر كل يوم في عهد ربي مرة "[(٤)] .

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، برقم: (٤٢٣٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضل الأشعريين رضي الله عنهم، برقم: (٢٤٩٩) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٤٠)، برقم: (٨٥٥٨)، ورجال إسناده كلهم ثقات .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٦) برقم: (٣٠٠١١)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: (٢/ ١٧٧): لا بأس به .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٤) .

وقال الحسن البصري رحمه الله: " قال أمير المؤمنين، عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو أن قلوبنا طهرت ما شبعت من كلام ربنا، وإني لأكره أن يأتي علي يوم لا أنظر في المصحف، وما مات عثمان رضي الله عنه حتى خرق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه "(١) .

ونجد ذلك في صلواتهم كذلك ، فطول القيام وكثرة تلاوة القرآن كانت سمة بارزة في حياتهم؛ لمعرفتهم فضل ذلك، حيث سئل النبي ﷺ، أي الصلاة أفضل؟ فقال: " طول القنوت "(٢) أي: طول القيام، لما يتضمنه القيام من قراءة للقرآن، وهو هديه ﷺ .

فعن حذيفة رضي الله عنه قال: " صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة فقرأها، ثم النساء، ثم آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلًا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مر بتعوّذ تعوّذ "(٣).

عن هشام بن عروة، عن أبيه: " أن أبا بكر الصديق صلى الصبح، فقرأ فيها بسورة البقرة في الركعتين كلتيهما "(٤) .

---

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٧٩)، برقم: (٧٧٥)، وفيه انقطاع ، فالحسن لم يسمع من عثمان .

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أفضل الصلاة طول القنوت، برقم: (٧٥٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، برقم: (٧٧٢) .

(٤) رواه مالك في الموطأ، كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، برقم: (٢٧٠)، وإسناده منقطع، قاله الحافظ ابن حجر في إتحاف المهرة (٨/ ٢٣٨) .

وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: " صليت خلف عمر الصبح، فقرأ فيها بالبقرة، فلما انصرفوا استشرفوا الشمس، فقالوا: طلعت الشمس، فقال: لو طلعت لم تجدنا غافلين "[(١)].

وعنه رضي الله عنه أنه قال : " أمر عمر بن الخطاب ﷺ أبي بن كعب وتميما الداري أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة، قال: وقد كان القارئ يقرأ بالمئين، حتى كنا نعتمد على العصي؛ من طول القيام، وما كنا ننصرف إلا في فروع الفجر "[(٢)].

وعنه رضي الله عنه: " أن عثمان ﷺ، قرأ بالسبع الطوال في ركعة "[(٣)].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: " إن هذا القرآن مأدبة الله، فخذوا منه ما استطعتم، فإني لا أعلم شيئا أصفر من خير، من بيت ليس فيه من كتاب الله شيء، وإن القلب الذي ليس فيه من كتاب الله شيء خرب، كخراب البيت الذي لا ساكن له "[(٤)].

---

(١) رواه الطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ١٨٠) برقم: (١٠٧٨)، وقريب منه عند عبد الرزاق في المصنف (٢/ ١١٤)، برقم: (٢٧١٧).

(٢) موطأ مالك، كتاب الصلاة في رمضان، باب ما جاء في قيام رمضان (١/ ١١٥)، برقم: (٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ١٤٣).

(٣) رواه عبد الرزاق في المصنف (٢/ ١٤٨)، برقم: (٢٨٤٥).

(٤) أخرجه الدارمي في سننه (٤/ ٢٠٨٣) برقم: (٣٣٥٠)، قال محققه: رجاله ثقات غير أن أبا سنان سعيد بن سنان متأخر السماع من أبي إسحاق وهو موقوف على ابن مسعود.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: " إن البيت ليتسع على أهله، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويكثر خيره أن يقرأ فيه القرآن، وإن البيت ليضيق على أهله، وتهجره الملائكة، وتحضره الشياطين، ويقل خيره أن لا يقرأ فيه القرآن "(١) .

بل كانوا يلزمون أنفسهم بذلك، ويحملونها عليه؛ لذلك يقول أبو العالية: " كنا نعد من أعظم الذنب أن يتعلم الرجل القرآن ثم ينام لا يقرأ منه شيئًا "(٢) .

وقد كانت لهم - رحمهم الله - ختمات مرتبة، يحافظون عليها، ويتنافسون فيها، فهذا عبدالله بن عمرو يستأذن النبي ﷺ في أن يكثر من الختمات .

فعن عبد اللهَّ بن عَمْرٍو بقَال: قَال رَسُولُ اللهَّ ﷺ: " اقرإِ الْقُرْآن فِي شَهر " قلت: إِنِّي أَجدُ قُوَّةً .. حَتَّى قَال: " فَاقْرَأْهُ في سَبعٍ ولا تَزِد عَلَى ذلك "(٣) .

وفيه: أن رَسُول اللهَّ ﷺقال: " لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ "(٤) .

وهو الذي عمل به الصحابة العظماء رضي الله عنهم، ومن تبعهم من الأئمة الأجلاء - رحمهم الله - ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: " اقرؤوا القرآن في

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٤/ ٢٠٨٥)، برقم: (٣٣٥٢)، قال محققه: إسناده صحيح، وهو موقوف على أبي هريرة، وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٧٩) .

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٣٠٣) .

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن، برقم: (٥٠٥٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، برقم: (١١٥٩) .

(٤) رواه أبو داود، أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، باب تحزيب القرآن، برقم: (١٣٩٤)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في كم يستحب بختم القرآن، برقم: (١٣٤٧)، وصححه الألباني في صحيح السنن .

سبع، ولا تقرؤوه في أقل من ثلاث "[١] .

وثبت عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث[٢] .

قال ابن كثير رحمه الله: " وقد كره غير واحد من السلف قراءة القرآن في أقل من ثلاث ، كما هو مذهب أبي عبيد ، وإسحاق بن راهويه ، وغيرهما من الخلف أيضًا "[٣] .

لكن روي عن جِلة منهم أنه ختم في ليلة، بل وفي ركعة، وعن بعضهم أنه ختم أكثر من ختمة في اليوم والليلة .

قال النووي رحمه الله: "وأما الذين ختموا القرآن في ركعة: فلا يُحصون؛ لكثرتهم، فمنهم: عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير"[٤] .

لكن ذلك يحمل على عدم المداومة؛ تنزيهًا لهم عن مخالفة نهي النبي ﷺ، قال ابن رجب رحمه الله: " وكان قتادة يختم في كل سبع دائمًا، وفي رمضان في كل ثلاث، وفي العشر الأواخر كل ليلة، وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرؤها في غير الصلاة، وعن أبي حنيفة نحوه .. وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن

---

(١) رواه سعيد بن منصور في التفسير من سننه (٢/ ٤٤٢)، برقم: (١٤٦) وصحح محققه إسناده، وكذا الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٩/ ٧٨) .

(٢) رواه أبو عبَيد في « فضائل القرآن » (ص:٨٩) وصححه ابن كثير في « فضائل القرآن » (ص:٢٥٤) .

(٣) فضائل القرآن (ص:٢٥٤) .

(٤) الأذكار للنووي (ص:١٠٢) .

في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات المفضلة، كشهر رمضان، خصوصًا الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر، أو في الأماكن المفضلة، كمكة لمن دخلها من غير أهلها، فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن؛ اغتنامًا للزمان والمكان، وهو قول أحمد وإسحاق، وغيرهما من الأئمة، وعليه يدل عمل غيرهم كما سبق ذكره "(١) .

ثانيًا: الاهتمام بتعلم أحكامه ومعانيه:

لم يكن حال السلف مع القرآن الكريم مجرد القراءة فحسب، بل كان اهتمامهم بتعلم معانيه يفوق مجرد التلاوة؛ حتى لا يكون حظهم من القرآن الكريم ما أنكره الله تعالى على الكتابيين، حيث قال عنهم: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[البقرة: ٧٨] .

قال السعدي رحمه الله: " أي: من أهل الكتاب ﴿ أُمِّيُّونَ ﴾أي: عوام، ليسوا من أهل العلم، ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾أي: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين، الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم "(٢) .

وفي قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾[البقرة: ٢٦٩]، قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير الحكمة: " المعرفة

---

(١) لطائف المعارف (ص:١٧١) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٦)، وينظر المعاني الأخرى للآية في: تفسير ابن جرير (٢/ ٢٦١)، وزاد المسير (١/ ٨١) .

بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله "[١] .

قال القرطبي رحمه الله: " وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده، وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارًا "[٢] .

ولذلك نقل إلينا ذلكم التراث الثري من تفاسير السلف السابقين لآيات الكتاب المبين، ومما يدل على حرصهم على فهم القرآن الكريم، وتعلم أحكامه، ما يلي:

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: " من أراد العلم فليتبوأ من القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين "[٣]، وفي رواية: " فليثور القرآن ": أي: لينقر عنه، ويفكر في معانيه، وتفسيره، وقراءته[٤] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: " لقد عشنا برهة من دهرنا، وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد صلى الله عليه

---

(١) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (ص :٦)، وابن جرير في تفسيره (٥/ ٨)، وحسنه محققه .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢١) .

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص: ٢٨٩)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٤٧) برقم:(١٨٠٨)، وصححه محقق التفسير من سنن سعيد بن منصور (١/ ٩)، وذكر بعض طرقه .

(٤) النهاية لابن الأثير (١/ ١٣٨) .

وسلّم، فيتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده فيها، كما تعلمون أنتم القرآن، ثم قال: لقد رأيت رجالا، يؤتى أحدهم القرآن، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يدري ما أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، ينثره نثر الدقل "(١).

وقال مجاهد رحمه الله: " عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقفه عند كل آية أسأله فيما نزلت، وكيف كانت "، وفي رواية: "عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة"(٢).

وقال الحسن البصري رحمه الله: " ما أنزل الله آية، إلا وهو يحب أن يعلم ما أراد بها "(٣).

وقال عمرو بن مرة رضي الله عنه: " ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني؛ لأني سمعت الله يقول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣]"(٤).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٥)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وذكر محقق التفسير من سنن سعيد بن منصور (١/ ٢٠٩) بعض طرقه، وصححه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٠٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٠٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٨٠): الرواية الأولى من طريق أبان بن صالح عنه، والرواية الثانية: عن الفضل بن ميمون عنه، وانظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٠).

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص:٩٧)، بإسناد حسن.

(٤) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص:٩٧)، وابن أبي حاتم في التفسير (١١/ ٤٤٠)، بإسناد صحيح.

فلذلك كان السلف - رحمهم الله - من الصحابة ومن بعدهم، يمكث أحدهم في تعلم السورة من القرآن الكريم، السنين الطويلة.

فعن ابن عمر بقال: " تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورًا " [١] .

وعن مالك رحمه الله؛ أنه بلغه أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها [٢] .

ولا يدل هذا التأخر على ضعف الحفظ، أو الانشغال عنه، وإنما يدل على الاهتمام بالعلم والفهم؛ لذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: " كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن " [٣] .

وهو المنهج العام الذي حكاه عن عامتهم أبو عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه حيث قال: " كان الذين يقرئوننا القرآن من صحابة رسول الله ﷺ: عثمان، وأبي بن كعب، وغيرهما، يقولون: كنا على عهد النبي ﷺ لا نتجاوز العشر آيات، حتى نعرف ما فيها من العلم والعمل، فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا " [٤] .

---

(١) أخرجه البيهقي في شُعب الإيمان (٣ / ٣٤٦)، تهذيب سير أعلام النبلاء (١ / ٣٥) وفيه أبو بلال الأشعري قال عنه البيهقي في الشعب (٢/ ٤٧٤): " وقد روى أبو بلال الأشعري وليس بالقوي " .

(٢) رواه مالك في الموطأ، كتاب القرآن، باب ما جاء في القرآن، برقم: (١١) .

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (١/ ٨٠)، بإسناد صحيح كما ذكره المحقق في المقدمة .

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤١٠)، وابن جرير في التفسير (١/ ٨٠)، وله طرق يحسن بها .

وبسبب هذه العناية بالعلم والفهم كان تعظيمهم للحفاظ القراء كبيرًا، قال أنس ﷺ: " كان الرجل إذا قرأ: البقرة، وآل عمران، جد فينا – يعني عظم "(١)؛ لأنه لا يقرؤها إلا بتعلمها .

ولذلك كانت لهم تلك الاستنباطات الدقيقة من القرآن الكريم، على جميع أحكام الشرع الحنيف، فمن ذلك أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: " أتي عثمان بامرأة ولدت في ستة أشهر، فأمر برجمها، فقال ابن عباس: أدنوني منه فلما أدنوه منه، قال: إنها إن تخاصمك بكتاب الله، تخصمك، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾[البقرة: ٢٣٣]، ويقول الله في آية أخرى: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾[الأحقاف: ١٥]، فقد حملته ستة أشهر، فهي ترضعه لكم حولين كاملين، قال: فدعا بها عثمان فخلى سبيلها "(٢) .

ثالثًا: العمل بهدايات القرآن الكريم ظاهرًا وباطنًا:

العمل هو الثمرة الحقيقية لنزول القرآن الكريم، والغاية الأصلية لتفصيله وبيانه، وهو السؤال الأساس الذي سيسأل عنه تجاه القرآن، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[الزخرف:٤٤]، وقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الحجر: ٩٢ – ٩٣]، وقد جاءت الآية بعد بيان موقف المشركين من القرآن الكريم .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٩/ ٢٤٧)، وصححه محققو المسند .

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٥/ ٣٤)، وابن أبي حاتم في التفسير (٢/ ٤٢٨) .

لذلك قال ابن جرير رحمه الله: " ﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾ يا محمد، لنسألنّ هؤلاء الذين جعلوا القرآن في الدنيا، عِضين في الآخرة، عما كانوا يعملون في الدنيا، فيما أمرناهم به، وفيما بعثناك به إليهم، من آي كتابي الذي أنزلته إليهم، وفيما دعوناهم إليه، من الإقرار به، ومن توحيدي، والبراءة من الأنداد والأوثان "(١).

والعمل بالقرآن الكريم يعين على فهمه، والانتفاع به، والاهتداء بهديه، وقد أثنى الله تعالى على العاملين بالقرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[البقرة: ١٢١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: " والذي نفسي بيده! إن حق تلاوته، أن يحلّ حلاله، ويحرّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوّل منه شيئا على غير تأويله "(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: " ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾، يتبعونه حق اتباعه "(٣).

وقال مجاهد رحمه الله: " يعملون به حق عمله "(٤).

ومما يدل على عنايتهم بالعمل ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: " بعث رسول الله ﷺ بعثًا، فأتى على رجل من أحدثهم سنًا، فقال: ما معك يا فلان ؟، قال: معي كذا

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٤٩).

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢/ ٥٦٧).

(٣) جامع البيان (٢/ ٥٦٦).

(٤) المرجع السابق.

وكذا، وسورة البقرة: قال: أمعك سورة البقرة، فقال: نعم، قال: " فاذهب فأنت أميرهم "، فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها "[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: " كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة، لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخـــر هذه الأمة يقرؤون القرآن، منهم الصبي، والأعمى، ولا يرزقون العمل به "[٢].

وقال الحسن البصري رحمه الله: " إنّ هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان، لا علم لهم بتأويله، وما تدبُّر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا، وقد -والله!- أسقطه كله، ما يُرى القرآن له في خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَسٍ !والله! ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء، ولا الحكماء، ولا الوَرَعة، متى كانت القراء مثل هذا؟ لا كثَّر الله في الناس أمثالهم "[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، برقم: (٢٨٧٦)، وقال: هذا حديث حسن، وضعفه الألباني في السنن.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٤٠).

(٣) الزهد لابن المبارك (ص: ٢٧٦)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٣٦).

قال الآجري رحمه الله: " المؤمن العاقل إذا تلا القرآن، استعرض القرآن، فكان كالمرآة، يرى بها ما حَسُن من فعله، وما قَبُح فيه، فما حذّره مولاه حذِره، وما خوّفه به من عقابه خافه، وما رغّب فيه مولاه رغب فيه ورجاه؛ فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة، فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهدًا، وشفيعًا، وأنيسًا، وحرزًا، ومن كان هذا وصفه، نفع نفسه، ونفع أهله، وعاد على والديه، وعلى ولده، كل خير في الدنيا والآخرة "(١) .

ولذلك كانت محاسبتهم على العمل أكثر من غيره فعن أبي صالح الحنفي رحمه الله قال: " رأيت علي بن أبي طالب ﷺ أخذ المصحف، فوضعه على رأسه، حتى لأرى ورقه يتقعقع، ثم قال: اللهم إنهم منعوني أن أقوم في الأمة بما فيه، فأعطني ثواب ما فيه "(٢) .

وعن أبي الدرداء ﷺ قال: " إنّ أخوف ما أخاف، إذا وقفت على الحساب أن يقال: قد علمت؛ فما عملت فيما علمت؟ "(٣) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله، قال: " والله ما منكم من أحد إلا سيخلو به ربه، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول ابن آدم: ماذا غرّك يا ابن آدم؟

(١) أخلاق أهل القرآن (ص: ١٠٩) .

(٢) أخرجه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٣/ ٧٧) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١١٢)، وهو حسن لغيره، كما في الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (١/ ٨٧) .

ماذا أجبت المرسلين يا ابن آدم؟ ماذا عملت فيما علمت "[١] .

وقال في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾[آل عمران: ١٠٣]: " حبل الله: القرآن "[٢] .

وقال صلى الله عليه وسلّم: " إن القرآن شافع ومشفع، وماحل مصدق، فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار "[٣] .

وقال أبو موسى الأشعري ﷺ: " إن هذا القرآن كائن لكم ذكرًا، أو كائن لكم أجرًا، أو كائن عليكم وزرًا، فاتبعوا القرآن، ولا يتبعنكم القرآن، فإنه من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة، ومن يتبعه القرآن يزخ[٤] في قفاه، حتى يقذفه في نار جهنم "[٥] .

وقال مجاهد بن جبر رحمه الله: " القرآن يشفع لصاحبه يوم القيامة، يقول: يا رب جعلتني في جوفه، فأسهرت ليله، ومنعته كثيرا من شهوته، ولكل عامل عمالة، فيقول: ابسط يدك، أو قال: يمينك، فيملأها من رضوانه ، فلا يسخط

---

(١) السنة لعبدالله بن الإمام أحمد (١/ ٢٥٨) برقم: (٤٧٤)، بإسناد صحيح كما في الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (١/ ٨٩) .

(٢) رواه سعيد بن منصور في سننه، برقم: (٤٩٣)، وصححه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٧٢)، برقم: (٦٠١٠) .

(٤) قال في لسان العرب (٣/ ٢٠): " زخخ: زَخَّه يَزُخُّه زَخًّا: دَفَعَهُ فِي وَهْدة، وزَخَّ فِي قَفَاهُ يَزُخُّ زَخًّا: دَفَعَ، وَقَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: كُلُّ دَفْع زَخٌّ "، ثم أورد الأثر أعلاه .

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص:٨١)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٤)، بإسناد حسن في الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (١/ ١٥٦) .

عليه بعدها، ثم يقال: اقرأْه، وارقهْ، فيرفع له بكل آية درجة، وبكل آية حسنة "[١].

رابعًا: تدبر القرآن الكريم، والتفكر في هداياته:

تدبر القرآن الكريم، والتفكر في آياته، هو السبيل إلى استخراج هداياته، ومن ثم الاهتداء بها، والاستضاءة بضيائها، والاستظلال بدياحها، كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[ص: ٢٩].

قال الآجري رحمه الله: " القليل من الدرس للقرآن، مع الفكر فيه وتدبره، أحب إلي من قراءة الكثير من القرآن، بغير تدبر، ولا تفكر فيه، وظاهر القرآن يدل على ذلك، والسنة، وقول أئمة من المسلمين "[٢].

ونتيجة لذلك التدبر؛ يحصل التأثر القلبي، الذي ينعكس على الجوارح خضوعا وانقيادًا، وهو هدي العهد الأول .

يقول الحسن البصري رحمه الله في شأن القرآن الكريم، وكيف تعامل السابقون معه: " إنّ من كان قبلكم رآه رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار "[٣].

---

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه (١/ ١١٣)، برقم: (٢٢)، وصححه محققه، وانظر: الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (١/ ١٥٦) .

(٢) أخلاق أهل القرآن (ص: ١٠٩) .

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٤٩٨)، التبيان في آداب حملة القرآن (ص:٤٥).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: " لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة "(١).

قالت عائشة رضي الله عنها في القصة المشهورة في إمامة أبي بكر رضي الله عنه: " إنّ أبا بكر رجلٌ رقيقٌ "، وفي رواية: " أَسِيفٌ "، وفي روايةٍ: " كان أبو بكر رجلا بكّاءً؛ لا يملكُ عينيه إذا قرأ القرآن "، وفي رواية: " غلب عليه البكاء "(٢).

وعن أبي صالح رحمه الله قال: " قدم ناس من أهل اليمن على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فجعلوا يقرؤون ويبكون، فقال أبو بكر الصديق: هكذا كنا "(٣).

وعن عبد الله بن شداد رحمه الله، قال: " سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف في صلاة الصبح، وهو يقرأ: ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف:٨٦] "(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٦)، برقم: (٨٧٣٣)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٦٠)، برقم: (٢٠٤١)، والآجري في أخلاق أهل القرآن (ص: ٤)، وضعف سنده محقق التفسير من سنن سعيد بن منصور (٢/ ٤٤٦)، إلا أنه ذكر صحة الأثر بالنظر إلى مجموع طرقه، وانظر كذلك: المنيحة بسلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلّم وأصحابه إلى المدينة، برقم: (٣٩٠٥)، وانظر: فتح الباري للحافظ ابن حجر (٧/ ٦٣٧).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ٤٧).

(٤) ورواه سعيد بن منصور في التفسير من سننه (٥/ ٤٠٥)، برقم: (١١٣٨) وصححه محققه، وعلقه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب إذا بكى الإمام في الصلاة.

وفي المصنف: " أنَّ عائشةَ رضي الله عنها قرأت وهي تصلي، قول الله تعالى: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾[الطور: ٢٧]، فبكت، وقالت: اللَّهُمَّ مُنَّ عليَّ وَقِنِي عَذابَ السَّمُومِ، إنَّكَ أنتَ البَرُّ الرَّحِيمُ "(١).

وقال مسروق رحمه الله: " قال لي رجل من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الداري، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح، أو كاد أن يصبح، يقرأ آية من كتاب الله، يركع بها، ويسجد، ويبكي: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[الجاثية: ٢١]"(٢).

وقال نافع رحمه الله: " كان ابن عمر إذا قرأ هذه الآية: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[الحديد: ١٦]: يبكي حتى يغلبه البكاء "(٣).

وعن أبي حمزة رحمه الله، قال: " قلت لابن عباس رضي الله عنهما: إني سريع القراءة، وإني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة، فأدبرها،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٥).

(٢) معالم التنزيل (٧/ ٢٤٤).

(٣) ابن حجر في الإصابة في معرفة الصحابة، وهذا الأثر أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٠٥) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو أسامة، عن عثمان بن واقد، عن نافع..ورجاله ثقات، كما قال محققو سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١٤).

وأرتلها، أحب إلي من أن أقرأ القرآن أجمع هذرمة[(١)]"[(٢)] .

وعن إبراهيم رحمه الله، قال: " قرأ علقمة على عبد الله، فكأنه عجل، فقال عبد الله: فداك أبي وأمي رتل، فإنه زين القرآن، قال: وكان علقمة حسن الصوت بالقرآن "[(٣)] .

ويقول وهيب بن الورد رحمه الله: " نظرنا في هذه الأحاديث، فلم نجد شيئًا أرق للقلوب، ولا أشد استجلابًا للحزن، من قراءة القرآن، وتفهمه، وتدبره"[(٤)] .

وعن بكر العابد رحمه الله قال : " سمعت فضيل بن عياض رحمه الله يقول في قول الله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾[الزمر: ٤٧]، قال: أتوا بأعمال ظنوها حسنات، فإذا هي سيئات، قال: فرأيت يحيى بن معين بكى "[(٥)] .

قال السيوطي رحمه الله: " وتسن القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم، به تنشرح الصدور، وتستنير القلوب .. وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان قصر عنه فيما مضى، اعتذر

---

(١) هذرمة: هُوَ السُّرْعَةُ فِي الْقِرَاءَةِ، لسان العرب (١٢/ ٦٠٦) .

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:٧٤) .

(٣) المرجع السابق .

(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ٥١٦) .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٥/ ٣٥٢) .

واستغفر، وإذا مر بآية رحمة، استبشر وسأل، أو عذاب، أشفق وتعوذ، أو تنزيه، نزه وعظم، أو دعاء، تضرع وطلب "[1].

ولكثرة تدبرهم نُقلت عنهم كثيرٌ من الاستنباطات لجملة من الهدايات.

فمن ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما: " إنّ الله فضل محمدا ﷺ على الأنبياء، وعلى أهل السماء، فقالوا: يا ابن عباس بم فضله على أهل السماء؟ قال: إن الله قال لأهل السماء: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء: ٢٩]، وقال الله لمحمد ﷺ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ f الفتح: ١-٢]، قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: قال الله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾[إبراهيم: ٤] الآية، وقال الله ﷻ لمحمد ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾[سبأ: ٢٨]، فأرسله إلى الجن والإنس"[2].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٠٦).

(٢) أخرجه الدَّارمِيّ (١/ ٣٨)، برقم: (٤٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨١) برقم: (٣٣٣٥)، وصححهُ، ووَافَقَهُ الذَّهبِيّ، وصحّح إسنَاده محقق سنَن الدّارمِي.

وعن أم المؤمنين عائشة بأنها قالت: " إذا أعجبك حسن عمل امرئ فقل: ﴿ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥)، ولا يستخفنك أحد"[(١)].

أي: لا تغتر بعمل أحد، فتظن به الخير، إلا إن رأيته واقفا عند حدود الشريعة.

خامسًا: تعليم القرآن الكريم ومدارسة هداياته:

لا شك أن التعليم والمدارسة، سبب في زيادة العلم، والفهم، والتقوى، كما قال تعالى: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ٦٣]، فبيّن سبحانه أن العمل بالكتاب، وذكر ما فيه، سبب للتقوى؛ ولذلك وردت الفضائل الكثيرة للتعليم والمدارسة.

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده"[(٢)].

فالسكينة، والرحمة، وحضور الملائكة، والذكر في الملأ الأعلى، كل هذه الفضائل، مقابل التلاوة، المقرونة بالمدارسة، والتعلم، والمذاكرة.

---

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك.. ﴾، وأوصله الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٥/ ٣٦٥)، وانظر: الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (١/ ١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الذكر ..، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، برقم: (٢٦٩٩).

وجماع الفضائل في قول النبي ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"[(١)].

وهو الذي كان عليه صدر هذه الأمة، ففي قصة القراء الذين كانوا يحيون ليالي المدينة بالمدارسة أعظم عبرة، قال أنس ﷺ: " إنهم كانوا يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل "[(٢)]، وفي رواية ثابت: " ويشترون به الطعام لأهل الصفة، ويتدارسون القرآن بالليل، ويتعلمون "[(٣)].

وعن أنس ﷺ قال: " بعثني الأشعري إلى عمر، فقال لي عمر: كيف تركت الأشعري؟ فقلت له: تركته يعلم الناس القرآن، فقال: أما إنه كيس، ولا تسمعها إياه "[(٤)].

وعن أبي عطية الهمداني رحمه الله قال: " كتب عمر بن الخطاب ﷺ: تعلموا سورة براءة، وعلموا نساءكم سورة النور "[(٥)].

وعن أبي الطفيل ﷺ قال: " رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ قام على المنبر، فقال: سلوني قبل أن لا تسألوني ولن تسألوا بعدي مثلي، قال: فقام ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴾؟ قال: الرياح، قال: فما ﴿ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴾؟ قال: السحاب، قال: فما ﴿ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴾؟ قال: السفن،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، برقم: (٥٠٢٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ..، برقم: (٤٠٩٠).

(٣) ينظر: اختلاف ألفاظ الروايات في فتح الباري: (٧/ ٤٤٧).

(٤) رواه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٤٥)، وقال محققو سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٩٠): " رجاله ثقات ".

(٥) رواه سعيد بن منصور في التفسير من سننه (٥/ ٢٣٢)، برقم: (١٠٠٣)، وصححه محققه.

قال: فما ﴿ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴾ ؟ قال: الملائكة، قال: فمن ﴿ ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرًا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾[إبراهيم: ٢٨]؟ قال: منافقو قريش "(١).

سادسًا: التأكيد على معرفة أحوال النزول:

تعتبر معرفة أسباب النزول، ومواطنه، وأحواله، من أهم العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم، والتي أكد عليها السلف، فهو من الأسباب المعينة على فهم الآيات، وتدبر ما فيها من عظات، واستنباط ما تتضمنها من هدايات، وهو ما تميز به الصحابة عن غيرهم، حيث شهدوا ذلك، وأدركوه، وفهموه، ثم نقلوه لمن بعدهم .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله، إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله، إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل، لركبت إليه "(٢).

ولذلك علم السلف أهمية هذا الباب، وأن أكثر الضلال في فهم القرآن، إنما يكون بسبب الجهل بنزوله .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٦) برقم: (٣٧٣٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص .

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، برقم: (٥٠٠٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبدالله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما، برقم: (٢٤٦٣) .

فعن إبراهيم التيمي رحمه الله قال: " خلا عمر ذات يوم، فجعل يحدث نفسه، كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد؟ فأرسل إلى ابن عباس فقال: " كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد؛ وقبلتها واحدة؟ " فقال ابن عباس: "يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام، يقرءون القرآن، ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا "، قال: فزبره عمر، وانتهره، فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال، فعرفه، فأرسل إليه، فقال: " أعد علي ما قلت "، فأعاده عليه، فعرف عمر قوله، وأعجبه "[1] .

وعن محمد بن سيرين رحمه الله قال: " سألت عبيدة السلماني، عن آية من كتاب الله تعالى، فقال: عليك بتقوى الله عزّ وجلّ، والسداد، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن "[2] .

وعن يوسف بن ماهك رحمه الله قال : " إني عند عائشة أم المؤمنين، إذ جاءها عراقي، فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك، وما يضرك ؟! قال: يا أم المؤمنين أريني مصحفك، قالت: لم ؟ قال: لعلي أؤلف القرآن عليه؛ فإنه يقرأ غير مؤلف . قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ١٠٢)، وسعيد بن منصور في التفسير من سننه (١/ ١٧٦)، وقال محققه: الحديث صحيح لغيره .

(٢) رواه ابن جرير من طريقين عنه: (١/ ٨٦)، وسعيد بن منصور في التفسير من سننه (١/ ١٨٥) برقم: (٤٤)، وقال محققه: سنده صحيح على شرط الشيخين .

ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام: نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة، والنساء، إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي السور "[١] .

سابعًا: استحضار هدايات القرآن الكريم في مختلف المواقف:

إن من يتعلق قلبه بالقرآن الكريم، ويعيش معه، ويعكف عليه لا شك سيستحضره في كل لحظة، وسيقف معه في كل خطوة، وهو ما كان عليه السلف الصالح، حيث لم يغب عن خلجاتهم داعي القرآن الكريم، بل كان شاهدهم في جميع أفعالهم وأقوالهم، ومصاحبهم في تقلب أحوالهم .

فهذا أبو بكر رضي الله عنه، وفي أصعب المواقف التي مرت على الأمة، في يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلّم، يستحضر آيات كريمة، ولوعة الفراق تعصر قلبه، قالت عائشة رضي الله عنها: " فحمد الله أبو بكر، وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدا ﷺ، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، وقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٤]، قال: فنشج الناس يبكون .. ثم لقد بصر أبو بكر الناس الهدى، وعرفهم الحق الذي عليهم

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، برقم: (٤٩٩٣) .

وخرجوا به، يتلون: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ إلى: ﴿ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾"[١].

وهذا عمر ﷺ - في أصعب حدث وقع له، يوم طعن - يستحضر آية عظيمة، فعن عمرو بن ميمون، قال: " كنت أدع الصف الأول هيبة لعمر، وكنت في الصف الثاني يوم أصيب، فجاء، فقال: الصلاة عباد الله، استووا، قال: فصلى بنا، فطعنه أبو لؤلؤة طعنتين، أو ثلاثًا، قال: وعلى عمر ثوب أصفر، قال: فجمعه على صدره، ثم أهوى، وهو يقول: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨]"[٢].

فسبحان الله! أيّ إيمان بالله وبقدره، تحلى به الفاروق ؟! أيّ حياة عاشها مع القرآن الكريم، حتى تجري هذه الآية على لسانه في تلك اللحظة العصيبة ؟! أيّ صبر يحول المعاناة إلى مناجاة ؟! أيّ يقين يخرج من بين فرث ودم العذاب لذة الاحتساب ، في ذات رب الأرباب ؟!

وقد كان هذا دأبه على الدوم، فكان يقول: " ويل لديان أهل الأرض من ديان أهل السماء يوم يلقونه، إلا من أم العدل، وقضى بالحق، ولم يقض لهوى، ولا قرابة، ولا لرغبة، ولا لرهبة، وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه "[٣].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلّم: لو كنت متخذًا أحدًا خليلًا برقم: (٣٦٦٨) و (٣٦٧٠) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٨٢٢٣)، و ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٩٤) من طريق آخر.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٣٤١٦) .

وعن نعيم عن نبيط عن سالم بن عبيد ﷺ - وكان من أهل الصفة - قال: " أخذ عمر بيد أبي بكر فقال: من له هذه الثلاث؟ ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾من صاحبه؟ ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾من هما؟ ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾"(١).

وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: " اغتسلت أنا وآخر، فرآنا عمر ابن الخطاب، وأحدنا ينظر إلى صاحبه، قال: إني لأخشى أن يكونا من الخلف الذي قال الله ﷻ:﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[مريم: ٥٩]"(٢).

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه: " أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يصلي من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله للصلاة، يقول لهم: الصلاة، الصلاة، ثم يتلو هذه الآية: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾[طه: ١٣٢]"(٣).

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى ، كتاب وفاة النبي ﷺ، باب كيف صلي على النبي ﷺ ، برقم : (٧٠٨١) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٨٣) : «رواه الطبراني ورجاله ثقات ».

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٤٠١) .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ، كتاب الصلاة ، باب ما جاء في صلاة الليل ، برقم : (٥) ، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٣٩٠) برقم : (١٢٤٠).

ثامنًا: اجتناب التكلف والمراء والجدال:

من أهم ما يميز السلف الكرام، بعدهم عن تكلف ما لم يؤمروا به تجاه القرآن الكريم، تأويلًا، أو عملًا، وتركهم للمراء والجدال في القرآن الكريم، والآثار في هذا الباب أكثر من أن تحصى .

قال أبو العالية رحمه الله: " آيتان ما أشدهما على من يجادل في القرآن: قوله تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[غافر: ٤]، وقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾[البقرة: ١٧٦]"[١] .

وعن أبي هريرةﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " المراء في القرآن كفر "[٢] .

وقد حكى عبيد الله بن عمر مذهبهم رحمه الله، القائم على الورع، والتحري في هذا الباب، فقال: " لقد أدركت فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير "[٣] .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: " عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله، عليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدري متى يقبض، أو متى يفتقر إلى ما عنده، وستجدون أقوامًا، يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله، وقد نبذوه

---

(١) معالم التنزيل (٤/ ١٠٤) .

(٢) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب النهي عن الجدال في القرآن، برقم: (٤٦٠٣)، والنسائي في « الكبرى »، كتاب فضائل القرآن، باب المراء في القرآن، برقم: (٨٠٩٣) وصححه الألباني .

(٣) أخرجه ابن جرير (١/ ٧٩)، بإسناد صحيح .

وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، والتنطع، والتعمق، وعليكم بالعتيق "[١].

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير رحمه الله قال: " بينما ابن عباس مع عمر رضي الله عنهم وهو آخذ بيده، فقال عمر: أرى القرآن قد ظهر في الناس، فقلت: ما أحب ذاك يا أمير المؤمنين، قال: فاجتذب يده من يدي، وقال: لم قلت؟ لأنهم متى يقرؤوا يتقروا، ومتى ما يتقروا اختلفوا، ومتى ما يختلفوا يضرب بعضهم رقاب بعض، فقال: فجلس عني وتركني، فظللت عنه يوم لا يعلمه إلا الله، ثم أتاني رسوله الظهر، فقال: أجب أمير المؤمنين، فأتيته، فقال: كيف قلت؟ فأعدت مقالتي، قال عمر رضي الله عنه: إن كنت لأكتمها الناس"[٢]، وفي رواية: " فقلت: يا أمير المؤمنين متى ما تسارعوا هذه المسارعة يحيفوا، ومتى ما يحيفوا يختصموا، ومتى ما يختصموا يختلفوا، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا، فقال عمر: لله أبوك، لقد كنت أكاتمها الناس حتى جئت بها"[٣].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " إن أخوف ما أخاف عليكم ثلاثة: جدال المنافق بالقرآن، لا يخطئ واوًا ولا ألفًا، يجادل الناس أنه أجدل منهم؛ ليضلهم عن الهدى، وزلة عالم، وأئمة المضلين، ثلاث بهن يهدم الزمن"[٤].

(١) رواه الدارمي في سننه (١/ ٢٥١)، برقم: (١٤٥)، وضعفه المحقق.

(٢) الحاكم في المستدرك (٦٣٠٢).

(٣) رواه معمر في جامعه، برقم: (٢٠٣٦٨)، ورواها أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٥٢)، وقال محقق سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٩): " رجاله ثقات ".

(٤) رواه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٥٢٧) برقم: (٦٤١).

وعن مسعر رحمه الله قال: " أخرج إلي معن بن عبد الرحمن كتابًا، فحلف لي بالله إنه خط أبيه، فإذا فيه قال عبد الله: والذى لا إله إلا هو، ما رأيت أحدًا كان أشد على المتنطعين من رسول الله ﷺ، وما رأيت أحدًا كان أشد عليهم من أبى بكر، وإني لأرى عمر كان أشد خوفا عليهم أو لهم"(١) .

ولذلك كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: " أيُّ أرض تُقِلُّني، وأيُّ سماء تظلّني، إذا قلت في القرآن برأيي - أو: بما لا أعلم "(٢) .

وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه أنه قال: " أتي إلى عمر بن الخطاب، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنا لقينا رجلًا يسأل عن تأويل القرآن، فقال: اللهم أمكني منه، قال: فبينا عمر ذات يوم جالس يغدي الناس إذ جاءه وعليه ثياب وعمامة، فغداه، ثم إذا فرغ قال: يا أمير المؤمنين، ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴾[الذاريات: ١-٢]، قال عمر: أنت هو؟ فمال إليه، وحسر عن ذراعيه، فلم يزل يجلده، حتى سقطت عمامته، ثم قال: واحملوه، حتى تقدموه بلاده، ثم ليقم خطيبا ثم ليقل: إن صبيغًا ابتغى العلم فأخطأ، فلم يزل وضيعا في قومه حتى هلك، وكان سيد قومه "(٣) .

---

(١) سنن الدارمي (١/ ٢٤٩)، وصححه المحقق .

(٢) أخرجه ابن جرير (١/ ٧٨)، ومالك من طريق آخر (١/ ١٦٦)، وله طرق يحسن بمجموعها .

(٣) رواه أحمد في فضائل الصحابة (٧١٧) .

وعن أنس بن مالك ﷺ، أن عمر بن الخطاب ﷺ، قرأ على المنبر: "﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾[عبس: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه، فقال: لعمرك إن هذا لهو التكلف يا عمر"(١) .

قال ابن تيمية رحمه الله: " وهذا كله محمول على أنهما بإنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتًا من الأرض ظاهر لا يجهل "(٢) .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: " يا أيها الناس من علم شيئا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم، أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلّم: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[ص: ٨٦] "(٣) .

وقال معاذ بن جبل ﷺ: " يفتح القرآن على الناس، حتى تقرأه المرأة، والصبي، والرجل، فيقول الرجل: قد قرأت القرآن فلم أتبع، والله لأقومن به فيهم لعلي أتبع، فيقوم به فيهم فلا يتبع، فيقول: قد قرأت القرآن، فلم أتبع، وقد قمت به فيهم فلم أتبع، لأحتظرن في بيتي مسجدًا لعلي أتبع، فيحتظر في بيته مسجدًا فلا يتبع، فيقول: قد قرأت القرآن، فلم أتبع، وقمت به فيهم فلم أتبع،

---

(١) رواه سعيد بن منصور في التفسير من سننه، برقم: (٤٣)، وصححه محققه، والحاكم في المستدرك، برقم: (٣٨٩٧)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧٢) .

(٣) رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الروم، برقم: (٤٧٧٤)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب الدخان، برقم: (٢٧٩٨) .

وقد احتظرت في بيتي مسجدًا فلم أتبع، والله لآتينهم بحديث لا يجدونه في كتاب الله، ولم يسمعوه عن رسول الله لعلي أتبع، قال معاذ: فإياكم وما جاء به، فإن ما جاء به ضلالة "[١].

وقال مسلم بن يسار رحمه الله: " إياكم والمراء، فإنها ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته "[٢].

وعن عمر بن عبد العزيز -:- قال : " من جعل دينه غرضا للخصومات، أكثر التنقل "[٣].

فكل هذه الآثار ، تدل على بعد السلف عن التكلف، والأخذ من القرآن الكريم بما وعته قلوبهم، وهكذا ينبغي التعامل مع الهدايات عند استنباطها، بعيدا عن الإغراب، والتعسف، والإغراق .

تاسعًا: البعد عن الاختلاف في القرآن الكريم:

آيات القرآن الكريم متآلفة، وليست متخالفة، ومتفقة، وليست مفترقة، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢] .

قال ابن كثير رحمه الله: " لو كان مفتعلًا مختلقًا، كما يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ أي: اضطرابًا،

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٢٨٤)، وصححه المحقق .

(٢) المرجع السابق (١/ ٣٨٩)، وصححه المحقق .

(٣) المرجع السابق (١/ ٣٤٢)، وصححه المحقق .

وتضادًا كثيرًا، أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله، كما قال تعالى مخبرًا عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران: ٧]، أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم، فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ، ردوا المحكم إلى المتشابه، فغووا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين، وذم الزائغين "[(١)] .

وقد فهم السلف الكرام هذا المعنى، فاجتنبوا كل ما يؤدي إلى الاختلاف في القرآن الكريم، وحذروا منه، وجففوا كل ينبوع يصب فيه؛ ممتثلين بذلك وصية النبي الكريم - عليه أفضل الصلاة والتسليم -، حيث قال: "اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا "[(٢)]، فتحققوا بهذا الهدي بهداياته، وانتفعوا بعظاته، واستقامت قلوبهم على تعظيمه، وانشرحت صدورهم للعمل به وتعليمه .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: " خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، والناس يتكلمون في القدر، قال: وكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: " ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٦٤-٣٦٥) .

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، برقم: (٥٠٦٠)، ومسلم، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، برقم: (٢٦٦٧) .

من كان قبلكم " قال: " فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده، بما غبطت نفسي بذلك المجلس، أني لم أشهده "(١) .

وقد كانت خطوتهم الأولى في سبيل ذلك هي جمع المصاحف خوفًا من الاختلاف في ألفاظه .

فعن أنس رضي الله عنه : " أن حذيفة بن اليمان ﷺ قدم على عثمان ﷺ وكان يغازي أهل الشأم في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة .

فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب، اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف .

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت، في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا .

حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن، في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

---

(١) رواه أحمد في المسند، برقم: (٦٦٦٨)، وقال محققوه: إسناده صحيح .

قال ابن شهاب: وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت، سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب، حين نسخنا المصحف، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها، فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فألحقناها في سورتها في المصحف "[١].

ثم حذروا من الاختلاف في القراءات، فاهتموا بتعلمها وتعليمها حتى لا يقع تنازع بسببها، قال ابن مسعود رضي الله عنه: " إني قد سمعت إلى القَرَأةِ، فوجدتُهم متقاربين، فاقرأوا كما عُلِّمتم، وإياكم والتنطع، فإنما هو كقول أحدكم: هلم وتعال "[٢].

ولما أراد ابن مسعود ﷺ، أن يأتي المدينة، جمع أصحابه، فقال: " والله إني لأرجو أن يكون قد أصبح اليوم فيكم من أفضل ما أصبح في أجناد المسلمين، من الدين، والفقه، والعلم بالقرآن، إن هذا القرآن أنزل على حروف، والله إن كان الرجلان ليختصمان أشد ما اختصما في شيء قط، فإذا قال القارئ: هذا أقرأني، قال: أحسنت، وإذا قال الآخر، قال: كلاكما محسن، فأقرأنا: إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، واعتبروا ذاك بقول أحدكم لصاحبه: كذب وفجر، وبقوله إذا صدقه: صدقت وبررت، إن هذا القرآن، لا يختلف ولا يستشن، ولا يتفه لكثرة الرد،

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، برقم: (٤٠٤٩).

(٢) رواه الطبري في التفسير (١/ ٤٩)، وصححه أرناؤوط وغيره في مسند أحمد (٣٤/ ١٤٧).

فمن قرأه على حرف، فلا يدعه رغبة عنه، ومن قرأه على شيء من تلك الحروف، التي علم رسول الله ﷺ، فلا يدعه رغبة عنه، فإنه من يجحد بآية منه، يجحد به كله، فإنما هو كقول أحدكم لصاحبه: اعجل، وحيهلا، والله لو أعلم رجلا أعلم بما أنزل الله على محمد ﷺ مني لطلبته، حتى أزداد علمه إلى علمي، إنه سيكون قوم يميتون الصلاة، فصلوا الصلاة لوقتها، واجعلوا صلاتكم معهم تطوعًا، وإنّ رسول الله ﷺ كان يعارض بالقرآن في كل رمضان، وإني عرضت في العام الذي قبض فيه مرتين، فأنبأني أني محسن، وقد قرأت من فيّ رسول الله ﷺ سبعين سورة "(١) .

ثم حذروا من الاختلاف في معناه، كما سبق، حين منعوا من التكلف والجدال والمراء، فكلها من أسباب الاختلاف والفرقة .

قال ابن مسعود ﷺ: " إن هذا الصراط محتضر، يحتضره الشياطين، ينادون: يا عبد الله، هلم هذا الصراط؛ ليصدوا عن سبيل الله، فاعتصموا بحبل الله، فإن حبل الله هو كتاب الله "(٢) .

وعن عاصم الأحول رحمه الله قال: " قال لنا أبو العالية: تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الصراط يمينًا وشمالًا، وعليكم بسنة نبيكم ﷺ، والذي كانوا عليه، من قبل أن يقتلوا صاحبهم، ويفعلوا الذي فعلوا، فإنا قد قرأنا القرآن، من قبل أن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (٣٨٤٥)، وله طرق يصح بها، ذكرها محققو المسند .

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٧/ ٧٢)، وصححه أحمد شاكر .

يقتلوا صاحبهم، ومن قبل أن يفعلوا الذي فعلوا، بخمس عشرة سنة، وإياكم وهذه الأهواء، التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء، فأخبرت به الحسن - يعني: البصري- فقال: صدق ونصح، وحدثت به حفصة بنت سيرين فقالت لي: بأهلي أنت هل حدثت بهذا محمدا؟ قلت : لا، قالت: فحدثه إياه "[1] .

---

(١) رواه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص: ٣٩)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٥٦)، والآجري في الشريعة (ص: ١٣)، وابن بطة في الإبانة الكبرى بلفظ أخصر (١/ ٢٩٩، ٣٣٨)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢١٨) .

المبحث الثاني

طرق العلماء في الوصول إلى الهدايات القرآنية

إعداد

د . فخر الدين الزبير

طرق العلماء في الوصول إلى الهدايات القرآنية

تمهيد:

يعد هذا المبحث من المباحث المهمة في موضوع الهدايات؛ فالنظر في منهج العلماء وطرائقهم في كل علم يكسب قوة في الجانب العملي، ويصقل الملكة للوصول إلى نتائج تطبيقية عميقة، كما يجمع للناظر رؤى متنوعة، ومدارس متعددة في طريقة النظر التدبري .

والمقصود بهذا المبحث هو النظر في الطرق والخطوات التي يسلكها العلماء للوصول إلى استخراج الهدايات من الآيات .

ولا يعني أن لكل عالم طريقا منها ، وإنما المقصود أن العلماء استخدموا هذه الطرق: إما مجتمعة، أو متفرقة؛ بحسب ما يقتضيه المقام، وهي متنوعة، ظهرت من خلال التأمل في الطريقة التي يستخرج بها العلماء تلك الهدايات القرآنية، ويمكن إجمالها فيما يلي[1]:

أولًا: الاعتماد على دلالات الألفاظ .

ثانيًا: الالتفات إلى تنوع الأساليب .

ثالثًا: النظر في اختلاف القراءات .

---

(١) والترتيب غير مقصود في هذه الطرق ، فكل آية لها أولويات للنظر فيها، والله أعلم .

رابعًا: التأمل في مجموع أدلة الكتاب والسنة .

خامسًا: الصدور من أصول الشريعة .

سادسًا: استحضار حكم التشريع وأسراره .

سابعًا: الاستفادة من أوجه الإعراب .

ثامنًا: فهم الآيات من خلال أحوال النزول .

تاسعًا: النظر في المناسبات .

عاشرًا: التأمل في مواضع اقتران أسماء الله الحسنى .

الحادي عشر: استنباط مقاصد القرآن الكريم .

الثاني عشر: النظر في السياق .

الثالث عشر: الاستفادة من آثار الصحابة والتابعين .

الرابع عشر: التدبر في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم للآيات في الصلوات وبعض الأحوال .

الخامس عشر: النظر في دلائل الرسم .

السادس عشر: ربط الآيات بالواقع .

السابع عشر: تأمل الآيات من خلال مكتشفات العلوم الكونية .

وبيان هذه الطرق بأمثلتها التطبيقية - مع طي الجمل والكلمات - كما يلي:

أولًا: الاعتماد على دلالات الألفاظ:

المقصود بدلالات الألفاظ ما ترشد إليه الألفاظ من المعاني، أو فهم المعاني من الألفاظ .

والكلام حول دلالات الألفاظ وأقسامها، عند علماء التفسير، والأصول، واللغة، مما يطول، لكنها في الجملة يمكن إرجاعها إلى قسمين:

القسم الأول: دلالة المنطوق، وقد تكون نصًّا أو ظاهرًا أو مؤولًا، مطابقةً أو تضمنًا .

القسم الثاني: ودلالة المفهوم، وتنتظم معها دلالة الاقتضاء، والإشارة، والإيماء، والتنبيه، واللزوم .

على اختلاف في هذه الاصطلاحات والتقاسيم، باختلاف مذاهب العلماء[1] .

وهذه الدلالات هي أول ما ينظر فيه مستنبط الهدايات، فيجب عند تدبر القرآن الكريم، والاهتداء بعظاته وأحكامه، إعطاءُ الألفاظ حقَّها من الدلالة، وتوفيتها ما لَهَا من المعاني، سواء في ذلك الأسماء، أو الأفعال، أو حروف المعاني بأنواعها، ولا شك أنه باب من أوسع أبواب فهم القرآن، وهو سيصدر في ذلك من الضوابط، والأصول الجامعة ، التي تضبط له فهمه .

قال ابن القيم رحمه الله: " الواجب فيما علق عليه الشارع الأحكام، من الألفاظ، والمعاني، أن لا يتجاوز بألفاظها ومعانيها، ولا يقصر بها، ويعطي اللفظ

---

(١) ينظر دلالات الألفاظ في مباحث الأصوليين للبا حسين (١/ ١٧) .

حقه، والمعنى حقه؛ وقد مدح الله - تعالى - أهل الاستنباط في كتابه، وأخبر أنهم أهل العلم "(١).

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذه الدلالات قد تجتمع أنواع منها في آية واحدة.

قال الزمخشري رحمه الله: " وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين، وفيها أوفر نصيب للمؤمنين؛ تدبرًا لها، واعتبارًا بموردها "(٢).

وقال ابن عاشور رحمه الله معلقًا: " يعني أنها في شأن الكافرين من دلالة العبارة، وفي شأن المؤمنين من دلالة الإشارة "(٣).

وجملة من الألفاظ القرآنية لقوة بلاغتها، وعمق دلالتها، تحتاج إلى سبر لأغوارها، وغوص لاستخراج لآلئها، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة دلالات الألفاظ على وفق قواعد اللغة والقواعد المتعلقة بأصول التفسير.

قال السعدي رحمه الله: " والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني، فإذا فهمتها فهمًا جيدًا، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها، وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها، وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه، حتى تصير لك

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٧٢).

(٢) الكشاف (٣/ ٣٠٢).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٧).

ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة، فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف على الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق، ذلك كله حق ولابد "(١) .

ومن أمثلة ذلك قول الطاهر بن عاشور رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾[الأنعام: ١٥٨]: " وفي مفهوم الصفتين دلالة على أن النفس التي آمنت قبل مجيء الحساب، وكسبت في إيمانها خيرًا، ينفعها إيمانها وعملها، فاشتملت الآية بمنطوقها ومفهومها على وعيد ووعد مجملين، تبينهما دلائل الكتاب والسنة "(٢) .

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ ﴾[الأنعام: ١٣٦] .

قال ابن عاشور رحمه الله: "والإتيان بالموصول ﴿ مِمَّا ﴾ لأجل دلالة صلته على تسفيه آرائهم، إذ ملّكوا الله بعض ملكه؛ لأن ما ذرأه هو ملكه، وهو حقيق به بلا جعل منهم "(٣) .

وكذلك في استخدام لفظ النجدين في قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[البلد: ١٠].

---

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن (٣٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٩١) .

(٣) المرجع السابق (٨/ ٩٥) .

يقول الرازي رحمه الله: " النجد: الطريق في ارتفاع، فكأنه لما وضحت الدلائل جعلت كالطريق المرتفعة العالية، بسبب أنها واضحة للعقول، كوضوح الطريق العالي للأبصار "(١) .

ويضيف القاسمي رحمه الله هداية أخرى فيقول: " وإنما سماهما نجدين؛ ليشير إلى أن في كل منهما وعورة وصعوبة مسلك، فليس الشر بأهون من الخير كما يظن "(٢) .

ولا يجوز القول في القرآن الكريم بما لا دلالة فيه من اللفظ، بوضع اللغة، أو عرفها أو لازمها، كما يقع من تأويلات باطنية لمعاني الآيات، من نحو قول التستري في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦]، قال: " باطنها: الرسول، يؤمن به من أثبت الله في قلبه التوحيد من الناس "(٣)، ولا شك أنه معنى لا دلالة له من الآية البتة؛ فالبيت هو الكعبة وليس الرسول .

ولذلك قال الشاطبي رحمه الله: " وهذا التفسير يحتاج إلى بيان؛ فإن هذا المعنى لا تعرفه العرب، ولا فيه من جهتها وضع مجازي مناسب، ولا يلائمه مساق بحال "(٤) .

---

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٧) .

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٤٧٧) .

(٣) تفسير التستري (ص: ٥٠) .

(٤) الموافقات (٤/ ٢٤٧) .

ومن جنس ذلك قول المراغي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾[الفيل: ٣]: " وقد يكون هذا الطير من جنس البعوض، أو الذباب، الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، أو تكون هذه الحجارة من الطين اليابس المسموم، الذي تحمله الرياح، فيعلق بأرجل هذا الطير، فإذا اتصل بجسم دخل في مسامّه، فأثار فيه قروحًا، تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه .

ولا شك أن الذباب يحمل كثيرًا من جراثيم الأمراض، فوقوع ذبابة واحدة، ملوّثة بالمكروب على الإنسان، كافية في إصابته بالمرض الذي يحمله، ثم هو ينقل هذا المرض إلى الجمّ الغفير من الناس، فإذا أراد الله أن يهلك جيشًا، كثير العدد، ببعوضة واحدة، لم يكن ذلك بعيدًا عن مجرى الإلف والعادة، وهذا أقوى في الدلالة على قدرة الله، وعظيم سلطانه، من أن يكون هلاكهم بكبار الطيور، وغرائب الأمور "(١) .

فهذا كله يجب اجتنابه عند استنباط الهدايات؛ فقد يصل بعضه إلى أن يكون تحريفًا للكلم عن مواضعه .

ثانيًا: الالتفات إلى تنوع الأساليب:

سبق معنا أن أساليب القرآن كثيرة متنوعة، وقد تحقق المفسرون بتمام تصورها وتدبرها؛ للوصول للهدايات، فكل أسلوب له دلالته وفائدته، فإذا ذكر الله تعالى أسلوب التوكيد أو الالتفات أو المقابلة أو الاستفهام أو التقديم والتأخير

---

(١) تفسير المراغي (٣٠/ ٢٤٣)، وانظر رد الدكتور الرومي عليه في منهج المدرسة العقلية في التفسير (٢/ ٧٢٦) .

أو القصص أو التمثيل، أو غيرها مما سبق تفصيله: كان لغرض بلاغي، يتضمن هداية من الهدايات، وأمثلة ذلك لا تحصى، فمن أسلوب التقديم والتأخير ما سبق في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[فاطر: ٢٨].

قال الزمخشري رحمه الله: " فإن قلت: هل يختلف المعنى إذا قدّم المفعول في هذا الكلام أو أخر؟ قلت: لا بدّ من ذلك، فإنك إذا قدمت اسم الله، وأخرت العلماء، كان المعنى: إنّ الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم، وإذا عملت على العكس، انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ ﴾، وهما معنيان مختلفان "(١).

ومنها: الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ ﴾[آل عمران: ١٠١]: فهو استفهام مستعمل في الاستبعاد؛ استبعادًا لكفرهم، ونفيًا له؛ لذلك استفاد منه الطاهر بن عاشور هداية دقيقة فقال: " وفي الآية دلالة على عظم قدر الصحابة، وأن لهم وازعين عن مواقعة الضلال: سماع القرآن، ومشاهدة أنوار الرسولﷺ؛ فإن وجوده عصمة من ضلالهم "(٢).

وفي قوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[سبأ: ٢٤].

---

(١) الكشاف (٣/ ٦١١).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٩).

يقول الزمخشري رحمه الله: " وفي درجه بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ: دلالة غير خفية، على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية أنضل[1]، بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم وفل شوكته"[2] .

لذلك لحظ العلماء هذه الأساليب، واعتبروها من أنفع الطرق؛ لاستنباط هدايات القرآن الكريم، كما سبق مفصلا في مبحث أساليب القرآن في عرض الهدايات .

ثالثًا: النظر في اختلاف القراءات:

اتفق العلماء على أن الخلاف في القراءات إنما هو خلاف تنوع، وليس خلاف تضاد وتناقض، وفي تقرير ذلك يقول الداني رحمه الله: " وجملة ما نعتقده من هذا الباب وغيره، من إنزال القرآن، وكتابته، وجمعه، وتأليفه، وقراءته، ووجوهه، ونذهب إليه ونختاره؛ فإن القرآن منزل على سبعة أحرف، كلها شافٍ، كافٍ، وحق، وصواب، وأن الله تعالى قد خير القراء في جميعها، وصوبهم إذا قرؤوا بشيء منها، وأن هذه الأحرف السبعة المختلف معانيها تارة، وألفاظها تارة، مع اتفاق المعنى: ليس فيها تضاد، ولا تناف للمعنى، ولا إحالة، ولا فساد "[3] .

---

(١) في الصحاح «ناضله»: راماه، يقال: ناضلت فلانًا فنضلته إذا غلبته . اهـ، فالأنضل الأشد رميًا، حاشية الكشاف (٣/ ٥٨١) .

(٢) الكشاف (٣/ ٥٨١) .

(٣) الأحرف السبعة للقرآن (ص: ٦٠) .

ولذلك فإن تأثير القراءات على الهدايات، سيكون تأثير إثراء وتعدد، فكل قراءة قد تحمل هداية أخرى لا تناقض غيرها، وإنما تضاف إليها .

لذلك قال الثعالبي رحمه الله: " إن تنوّع القراءات، يقوم مقام تعدّد الآيات وذلك ضرب من ضروب البلاغة، يبتديء من جمال هذا الإيجاز، وينتهي إلى كمال الإعجاز، أضف إلى ذلك، ما في تنوّع القراءات من البراهين الساطعة، والأدلة القاطعة، على أن القرآن الكريم كلام الله، وعلى صدق من جاء به وهو رسول الله ﷺ، فإن هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقروء وتضادّ، ولا إلى تهافت وتخاذل، بل القرآن كله على تنوّع قراءاته، يصدّق بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض، على نمط واحد في علو الأسلوب والتعبير، وهدف واحد من سموّ الهداية والتعليم، وذلك- من غير شك- يفيد تعدّد الإعجاز بتعدّد القراءات والحروف .

ومعنى هذا: أنّ القرآن يعجز إذا قرىء بهذه القراءة، ويعجز أيضًا إذا قرىء بهذه القراءة الثانية، ويعجز أيضًا إذا قرىء بهذه القراءة الثالثة، وهلمّ جرّا، ومن هنا تتعدّد المعجزات بتعدّد تلك الوجوه والحروف"[(١)] .

ومثاله، قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾[إبراهيم:٤٦].

ففي كلمة: ﴿ لِتَزُولَ ﴾ قراءتان:

الأولى: بكسر اللام الأولى وفتح الثانية فيها ﴿ لِتَزُولَ ﴾، وهي قراءة الجمهور .

---

(١) الجواهر الحسان (١/ ١٠٧) .

والثانية: بفتح اللام الأولى ورفع الأخرى ﴿لَتَزُولُ﴾، وهي قراءة الكسائي[(١)].

فأما وجه القراءة الأولى، فعلى كون "إن" نافية، أي: ما كان مكرهم، وإن تعاظم وتفاقم، ليزول منه أمر محمد ﷺ، ودين الإسلام.

وفى القراءة الثانية (إنْ) مخففة من الثقيلة، أي: وإن مكرهم كامل الشدة، تقتلع بسببه الجبال الراسيات من مواضعها، ففي الأولى تكون الجبال مجازًا عن الدين الحق، وفى الثانية تكون حقيقة[(٢)].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾[البقرة:٢١٩]، فقرأ حمزة والكسائي: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَثِيرٌ﴾ بالثاء، وقرأ الباقون: ﴿ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾بالباء[(٣)].

فمعنى قراءة: ﴿ إِثْمٌ كَثِيرٌ﴾: من الكثرة، وذلك لأن شرب الخمر يحدث معه آثام كثيرة، من لغط، وتخليط، وسب، وأيمان، وعداوة، وخيانة، وتفريط في الفرائض، وفي غير ذلك، فوصف بالكثرة.

يقول أبو حيان رحمه الله: " ووصف الإثم بالكثرة، إما باعتبار الآثمين، فكأنه قيل: فيه للناس آثام، أي: لكل واحد من متعاطيها إثم، أو باعتبار ما يترتب على شربها، من توالي العقاب، وتضعيفه، فناسب أن ينعت بالكثرة، أو باعتبار ما يترتب على شربها، مما يصدر من شاربها، من الأفعال والأقوال المحرمة، أو

---

(١) المبسوط في القراءات العشر (٢٥٧).

(٢) مناهل العرفان: (١/ ١٨٦)، بتصرف.

(٣) التيسير في القراءات السبع (ص:٨٠).

باعتبار من زوالها من لدن كانت، إلى أن بيعت وشريت، فقد لعن رسول الله ﷺ الخمر، ولعن معها عشرة: بائعها، ومبتاعها، والمشتراة له، وعاصرها، ومعتصرها، والمعصورة له، وساقيها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة له، وآكل ثمنها، فناسب وصف الإثم بالكثرة بهذا الاعتبار "[1] .

أما معنى قراءة: ﴿ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾: فهو من الكبر والعظم، أي: فيها إثم عظيم؛ لأنَّ شرب الخمر والميسر من الكبائر .

وفي هذا يقول الزجاج: " فأما الإثم الكبير الذي في الخمر فبين، لأنها توقع العداوة والبغضاء، وتحول بين المرء وعقله الذي يميز به، ويعرف ما يجب لخالقه "[2] .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: ٤٠]: قراءة الجمهور برفع: ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ ﴾ وهي تدل على أن كلمة الله تعالى ثابتة في علوها، لم يعتريها شيء من الدنو .

بينما على قراءة النصب على أنه مفعول به، فيكون المعنى أن الله جعل كلمته هي العليا، أي: قدر ذلك وقضاه[3] .

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٤٠٥) .

(٢) معاني القرآن (١/ ٢٩٢) .

(٣) ينظر: الكشاف (٢/ ٢٦٠) ، مفاتيح الغيب (١٦/ ٧١)، روح المعاني (٥/ ٩٩) .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾[التكوير:٢٤]، قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ بالضاد، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ورويس، ﴿بِظَنِينٍ﴾ بالظاء .

فالقراءة بالضاد ﴿ بِضَنِينٍ ﴾: فمن الضنة وهي البخل، أي معناها: ما هو على الغيب ببخيل، أما القراءة بالظاء ﴿بِظَنِينٍ﴾: فمن الظنة، وهي الاتهام، أي: ما هو على الغيب بمتهم[(١)] .

قال الزجاج رحمه الله: " فمن قرأ ﴿بِظَنِينٍ﴾ فمعناه: ما هو على الغيب بمتهم، وهو الثقة فيما أداه عن الله جل وعز، يقال: ظننت زيدًا، في معنى اتهمت زيدًا، ومن قرأ ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ فمعناه: ما هو على الغيب ببخيل، أي: هو يؤدي عن الله ويُعَلِّمُ كتاب الله "[(٢)] .

رابعًا: التأمل في مجموع أدلة الكتاب والسنة:

تحقيق الفهم السديد في جميع مسائل علوم الشريعة، يكون بجمع ما فيها من النصوص، والتأليف بينها وتحليلها، واستنباط الهدايات القرآنية لا يخرج عن هذا الأصل؛ فلذلك نجد أن العلماء حين يستنبطون هذه الهدايات من الآيات، يستحضرون ما يعضدها، ويدل عليها، من نصوص أخرى، من القرآن والسنة، وأمثلة ذلك كثيرة:

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦١-١٦٣) .

(٢) معاني القرآن (٥/ ٢٩٣) .

فمن الاستدلال بآيات القرآن: قول الله تعالى عن إبراهيم: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام: ٧٦ – ٧٨]، فمن هدايات هذه الآيات: استخدام المناظرة في تقرير التوحيد، كما ذكر ذلك جمع من المفسرين، كالنحاس، وابن عطية، والرازي،وابن كثير- رحمهم الله -(١) .

ولا يمكن أن يكون قوله: ﴿ هَٰذَا رَبِّى ﴾ من باب النظر، والاسترشاد وطلب التوحيد؛ لأن النصوص الأخرى تقرر أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يومًا على الشرك، أو الشك في التوحيد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[النحل: ١٢٠]، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام: ١٦١]، فمجموع هذه النصوص يدل على تلك الهداية(٢) .

قال ابن الجوزي رحمه الله حول هذه المعاني : " فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه على ظاهره، روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قال هذا ربي، فعبده حتى غاب، وعبد القمر حتى غاب، وعبد الشمس حتى غابت، واحتج

---

(١) ينظر: معاني القرآن (٢/ ٤٥٠)، المحرر الوجيز (٦/ ٩١)، مفاتيح الغيب: (١٣/ ٥٠)، تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٨٦) .

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٥٤) .

أرباب هذا القول بقوله تعالى: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾، وهذا يدل على نوع تحير، قالوا: وإنما قال هذا في حال طفولته على ما سبق إلى وهمه، قبل أن يثبت عنده دليل، وهذا القول لا يرتضى، والمتأهِلّون للنبوة محفوظون من مثل هذا على كل حال .

والثاني: أنه قال ذلك استدراجًا للحجة؛ ليعيب آلهتهم، ويريهم بغضها عند أفولها ..

والثالث: أنه قال مستفهمًا، تقديره: أهذا ربي؟ "[(١)] .

أقول: ويمكن أن يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنعام: ٨٣]، فهي مشعرة بأن إبراهيم عليه السلام قال ذلك، مبرهنًا لقوله، محتجًّا له، وليس شاكًّا مترددًا في إثبات ربوبية ربه تعالى .

ومثله ما جاء في معنى العهد الذي أمر بالوفاء به في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[البقرة: ٤٠] .

قال ابن كثير رحمه الله: " وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق، وعهده إلى جميعهم في توحيده: ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم، في أمره ونهيه، ما احتج به لرسله، من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم، أن يأتي بمثلها، الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضهم ذلك: تركهم الإقرار بما ثبتت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل

---

(١) زاد المسير (٣/ ٤٨)، باختصار يسير .

والكتب، مع علمهم أن ما أتوا به حق، وروي أيضًا عن مقاتل بن حيان نحو هذا، وهو حسن، وإليه مال الزمخشري رحمه الله فإنه قال: فإن قلت: فما المراد بعهد الله؟ قلت: ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد، كأنه أمر وصاهم به، ووثقه عليهم، وهو معنى قوله: ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢][1]، فاستفاد هذه الهداية من مجموع آيات الميثاق .

ومن الاستدلال بالسنة: في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾[المؤمنون: ٦٠] .

قال الرازي رحمه الله في هداية هذه الآية حيث جاءت بعد ذكر صفات المؤمنين: " دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة، يأتي بالطاعات، مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين "[2] .

وهذه الهداية مستفادة من حديث عائشة بأنها قالت للنبي ﷺ: " أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم "[3]، فالهداية التي استنبطها الرازي مبنية على هذا الحديث .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢١٠) .

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٣) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون (٥/ ٣٢٧)، برقم: (٣١٧٥)، وأحمد في مسنده (٤٢/ ١٥٦)، برقم: (٢٥٢٦٣)، و(٤٢/ ٤٦٥)، رقم: (٢٥٧٠٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٧)، برقم: (٣٤٨٦)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٠٤)، برقم: (١٦٢).

وهذه الطريقة لاشك هي أحد أوجه التفسير، واستنباط الهدايات له تعلق بالتفسير بإطلاقه العام، كما سبق في التأصيل لمفهوم الهدايات .

خامسًا: الصدور من أصول الشريعة:

لا يغيب عن نظر العلماء وهم يستنبطون الهدايات من القرآن الكريم، ضرورة انتظامها في أصول الشريعة وقواعدها، وعدم مخالفة شيء منها، ففي قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[النساء:٧٩]،ذكر العلماء أنّ فيها تعليما للأدب مع الله سبحانه، وهو أصل عام يجب ملاحظته في كل كلام عن الله تعالى، ووجه ذلك في الآية : أنه تعالى أضاف الحسنة إليه سبحانه ، والسيئة إلى خلقه ؛ لتعليم الأدب في عدم نسبة الشر إلى الله تعالى، مع أن الكل منه سبحانه كما في الآية السابقة ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[النساء: ٧٨]، وهذا له شواهد كثيرة .

قال الشاطبي رحمه الله: " الأدب في ترك التنصيص على نسبة الشر إلى الله تعالى، وإن كان هو الخالق لكل شيء، كما قال بعد قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ .. إلى قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾[آل عمران: ٢٦]، ولم يقل: (بيدك الخير والشر)، وإن كان قد ذكر القسمين معًا؛ لأن نزع الملك والإذلال بالنسبة إلى من لحق ذلك به شر ظاهر، نعم قال في أثره: ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ

﴿شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦]؛ تنبيهًا في الجملة على أن الجميع خلقه، حتى جاء في الحديث عن النبي ﷺ: " والخير في يديك والشر ليس إليك "[(١)][(٢)].

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، قال القرطبي رحمه الله: "وأضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب؛ لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند إلى نفسه المرض، إذ هو معنى نقص ومصيبة، فلا يضاف إليه سبحانه من الألفاظ إلا ما يستحسن منها، دون ما يستقبح "[(٣)].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠]، قال السعدي رحمه الله: " وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تأدبًا مع الله "[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، برقم: (٣٣٤٨)، وكتاب الرقاق، باب قوله تعالى: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾، برقم: (٦٥٣٠)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم: (٧٧١)، عن علي رضي الله عنه .

(٢) الموافقات (٢/ ١٦٦) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٣٩) .

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٨٩٠) .

ومن ذلك في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾[المطففين: ١٥]، استخرج العلماء من هذه الآية هداية عظيمة، وهي تنعم المؤمنين برؤية ربهم، كما هو أصل عند أئمة السنة .

قال البغوي رحمه الله: " وقال أكثر المفسرين: عن رؤيته، قال الحسن: لو علم الزاهدون العابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد؛ لزهقت أنفسهم في الدنيا، قال الحسين بن الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده، حجبهم في الآخرة عن رؤيته، وسئل مالك عن هذه الآية فقال: لما حجب أعداءه، فلم يروه، تجلى لأوليائه حتى رأوه، وقال الشافعي: دلالة على أن أولياء الله يرون الله عيانًا "(١) .

ومن أمثلة الاعتماد على الأصول العامة، قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[ق: ٤٥]، وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾[النازعات: ٤٥]، ونحوها من الآيات، التي تخص الذكرى بأقوام، قامت فيهم أوصاف معينة .

يقول الشنقيطي رحمه الله: " فخص الإنذار بمن ذكر في الآيات؛ لأنهم هم المنتفعون به، مع أنه ﷺ في الحقيقة منذر لجميع الناس "(٢) .

وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الذاريات: ٥٥]، فاستفاد في تقرير هذه الهداية، من المعلوم في أصول الإسلام، أن النذارة عامة لجميع الثقلين .

---

(١) معالم التنزيل (٥/ ٢٢٥) .

(٢) أضواء البيان (٥/ ٥٣٦) .

سادسًا: استحضار حكم التشريع وأسراره:

حكم التشريع وأسراره، تعني: الغايات التي لأجلها شرعت الأحكام، وهي من أكثر ما يهدي المستنبط للوصول إلى الهداية؛ فكلما استحضرها عند تدبره للآيات، تجلت له أنواع من الهدايات، وهذه الطريقة استُخدمت كثيرًا عند المفسرين، وبالأخص المتأخرون منهم، فمن شواهد ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة:٣٢] .

قال ابن عاشور رحمه الله: " حثّ جميع الأمة على تعقب قاتل النفس وأخذه أينما ثقف، والامتناع من إيوائه، أو الستر عليه، كل مخاطب على حسب مقدرته، وبقدر بسطة يده في الأرض، من ولاة الأمور إلى عامة الناس"(١) .

وهذه الهداية الدقيقة لها تعلق بحكمة الشريعة في قتل القاتل، وهي المأخوذة من قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٧٩]، وقال في آخرها: " ولك أن تجعل المقصد من التشبيه توجيه حكم القصاص وحقيته، وأنه منظور فيه لحق المقتول، بحيث لو تمكن لما رضي إلا بجزاء قاتله بمثل جرمه، فلا يتعجب أحد من حكم القصاص، قائلًا: كيف نصلح العالم بمثل ما فسد به؟ وكيف نداوي الداء بداء آخر، فبين لهم أن قاتل النفس عند ولي المقتول، كأنما قتل الناس جميعًا "(٢) .

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ١٧٨) .

(٢) المرجع السابق .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله- في قصة يوسف وما حصل فيها من رد كيد إخوة يوسف -: " تنبيه على أن من كاد كيدًا محرمًا، فإن الله يكيده، وهذه سنة الله في مرتكب الحيل المحرمة "(١) .

فذكر هذه الهداية التي تنتظم مع مقاصد الشرع، وهي تحريم الحيل وسد ذرائع الفساد، والمعاملة بنقيض القصد، وأن الجزاء من جنس العمل .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله: " ووجه النهي عن سب أصنامهم هو: أن السب لا تترتب عليه مصلحة دينية؛ لأنّ المقصود من الدعوة هو الاستدلال على إبطال الشرك، وإظهار استحالة أن تكون الأصنام شركاء لله تعالى، فذلك هو الذي يتميز به الحق عن الباطل، وينهض به المحق، ولا يستطيعه المبطل، فأما السب فإنه مقدور للمحق وللمبطل؛ فيظهر بمظهر التساوي بينهما، وربما استطاع المبطل بوقاحته وفحشه، ما لا يستطيعه المحق، فيلوح للناس أنه تغلب على المحق، على أن سب آلهتهم لما كان يحمي غيظهم ويزيد تصلبهم، قد عاد منافيا لمراد الله من الدعوة "(٢) .

فاستنبط هذه الهداية الغالية من مقاصد الشريعة في الدعوة إلى الحق .

---

(١) الفتاوى الكبرى (٦/ ١٣٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٤٣٠) .

سابعًا: الاستفادة من أوجه الإعراب:

الإعراب هو ركن المعنى، وعلاقته بالقرآن الكريم وثيقة؛ فإن بداية ظهور هذا العلم كان لحفظ اللسان العربي من اللحن، ومن ثم حفظ القرآن الكريم الذي نزل به؛ فلا غرو أن يكون له أثره البالغ في التفسير، وهو كذلك تربة خصبة لتنوع الهدايات .

وفي ذلك يقول الزمخشري رحمه الله: " وإن آثار الإعراب عديدة الحصى، ومن لم يتق الله في تنزيله، فاجترأ على تعاطي تأويله، وهو غير معرب: فقد ركب عمياء، وخبط عشواء، وقال ما هو تقول وافتراء وهراء، وكلام الله منه براء "(١) .

وأمثلة ذلك كثيرة لا تحصى: ففي قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨]؛ من هداياتها: أنّ المشركين لا يرقبون في المؤمنين عهدًا، حال كونهم يرضونكم بأفواههم، وتأبى قلوبهم، هذا على القول بأن جملة: "يرضونكم حالية "(٢) .

وهناك وجه إعرابي آخر لا يساند هذه الهداية، وهو أن جملة يرضونكم مستأنفة(٣) .

---

(١) المفصل في صنعة الإعراب (١/ ٤) .

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب (١٠/ ٢٩)، أنوار التنزيل (١/ ٣٩٨) .

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ٣٨٦) .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[يونس: ٣٧]: في إعراب:﴿ يُفْتَرَىٰ ﴾ وجهان:

الأول: مصدر مؤول وهو خبر كان؛ أي: وما كان القرآن افتراء، والمصدر هنا بمعنى المفعول؛ أي: مفترى .

الثاني: على تقدير لام الجحود، أي: ما كان ليفترى[١] .

وعلى الوجه الأول يكون المعنى: لا يصح أن يكون هذا القرآن الكريم مفترى، فهو خبر قاطع بنفي الافتراء .

وعلى الثاني يكون المعنى: لا يمكن أن يفترى هذا القرآن، ولا يستطيع أحد أن يفتريه، وفيه معنى التحدي[٢] .

وفي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٩]: قال الألوسي رحمه الله: " ﴿ جَمِيعًا ﴾ حال مؤكدة من كلمة (مَا)، ولا دلالة لها كما ذكره البعض، على الاجتماع الزماني، وهذا بخلاف معًا، وجعله حالًا من ضمير ﴿ لَكُم ﴾ يضعفه السياق؛ لأنه لتعداد النعم دون المنعم عليه، مع أن مقام

(١) وهناك وجوه أخرى، ينظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري (٢/ ٦٧٥) .

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٦٤٥)، مفاتيح الغيب (١٧/ ١٠٠)، البحر المحيط (٥/ ١٥٨) .

الامتنان يناسبه المبالغة في كثرة النعم، ولاعتبار المبالغة لم يجعلوه حالًا من الأرض أيضًا "[١] .

وفي قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٢]، فكلمة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾: إما أن تكون مبتدأ، أو خبرا لمبتدأ محذوف، وعلى الوجهين تتنوع الدلالات .

فعلى أنه مبتدأ يكون المعنى: ذلك التثبت،كما قال الزمخشري رحمه الله: " أي: ذلك التثبت والتشمر؛ لظهور البراءة؛ ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ العزيز، أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بظهر الغيب في حرمته "[٢] .

وعلى أنه خبر: يقول النحاس رحمه الله: " ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ في موضع رفع، أي: الأمر ذلك، ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي: لم أذكره وهو غائب بسوء، وكذا الخيانة، وقد قيل: هذا من كلام يوسف عليه السلام "[٣] .

ثامنًا: فهم الآيات من خلال أحوال النزول:

نعني بأحوال النزول: ما هو أعم من السبب الخاص، فهو يشمل أسباب النزول، وزمان النزول، ومكانه، والواقع الذي نزلت فيه الآيات، كحالة الخوف أو الأمن، والقوة أو الضعف، والحالة الاجتماعية، ومنه المجتمع المكي والمدني،

---

(١) روح المعاني (١/ ٢١٧) .

(٢) الكشاف (٢/ ٤٧٩) .

(٣) إعراب القرآن (٢/ ٢٠٥) .

وما لكل واحد منهما من خصائص، فهذه الأحوال تُلهم المتدبر بعضا من المعاني، التي قد لا يدل عليها ظاهر اللفظ .

قال الزركشي رحمه الله في فوائد أسباب النزول: " ومنها: الوقوف على المعنى، قال الشيخ أبو الفتح القشيري: بيان سبب النزول، طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز، وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا "[1] .

ودون ذلك قد يقع الاضطراب والاختلاف، فقد روى أبو عبيد عن إبراهيم التيمي رحمه الله قال أنه: " خلا عمر ذات يوم؛ فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة؟ فأرسل إلى ابن عباس؛ فقال: كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين! إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيما نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن، ولا يدرون فيما نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا، قال: فزجره عمر وانتهره؛ فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال، فعرفه فأرسل إليه؛ فقال: أعد علي ما قلت، فأعاده عليه؛ فعرف عمر قوله، وأعجبه "[2] .

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٢) .

(٢) أخرجه أبو عبيد في « فضائل القرآن » (ص:٤٥-٤٦)، وسعيد بن منصور في « سننه » (١/ ١٧٦) برقم: (٤٢)، عن هشيم عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي به، والتيمي لم يدرك زمن عمر؛ فإسناده منقطع، لكن له طريق عن علي بن بذيمة الجزري عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس به نحوه، وإسناده صحيح، أخرجه عبد الرزاق في « جامع معمر » (١١/ ٢١٧-٢١٨) برقم: (٢٠٣٦٨) .

قال الشاطبي رحمه الله:"وما قاله صحيح في الاعتبار، ويتبيّن بما هو أقرب، فقد روى ابن وهب عن بكير؛ أنه سأل نافعًا: كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية؟ قال: " يراهم شرار خلق الله، إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار، فجعلوها على المؤمنين "(١) .

فهذا معنى الرأي الذي نبه ابن عباس عليه، وهو الناشئ عن الجهل بالمعنى الذي نزل فيه القرآن "(٢) .

ومن شواهد الهدايات المتعلقة بأسباب النزول في قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ ﴾[البقرة: ٢٢٣] .

يقول صاحب المنار رحمه الله: " فهذه أوامر، تدل على أن هنا شيئا يرغب فيه، وشيئا يرغب عنه، ويحذر منه، أما ما يرغب فيه، فهو ما يقدم للنفس، وهو ما ينفعها في المستقبل، ولا أنفع للإنسان في مستقبله من الولد الصالح، فهو ينفعه في دنياه، كما هو ظاهر، وفي دينه، من حيث إن الوالد سبب وجوده وصلاحه، وقد ورد في الحديث: إن الولد الصالح من عمل المرء الذي ينفعه دعاؤه بعد موته، ولا يكون الولد صالحا إلا إذا أحسن والداه تربيته، فالأمر بالتقديم للنفس، يتضمن الأمر باختيار المرأة الودود الولود، التي تعين الرجل على تربية

---

(١) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، (١٢/ ٢٨٢)، تعليقًا بصيغة الجزم، وذكر الحافظ وصله، وصححه في تغليق التعليق (٥/ ٢٥٩).

(٢) الموافقات (٤/ ١٣٩) .

ولده بحسن خلقها وعملها، كما يختار الزراعة في الأرض الصالحة، التي يرجى نماء النبات فيها، وإيتاؤه الغلة الجيدة، ويتضمن الأمر بحسن تربية الولد وتهذيبه، وأما ما يحذر منه، ويتقى الله فيه، فهو إخراج النساء عن كونهن حرثًا، بإضاعة مادة النسل في المحيض، أو بوضعها في غير موضع الحرث، وكذلك اختيار المرأة الفاسدة التربية، وإهمال تربية الولد؛ فإن الأمر بالتقوى ورد بعد النهي عن إتيان النساء في المحيض، والأمر بإتيانهن من حيث أمر الله تعالى، وهو موضع الحرث، والأمر بالتقديم لأنفسنا، فوجب تفسير التقوى بتجنب مخالفة هذا الهدي الإلهي "[1] .

ويظهر في هذه الهداية الاستئناس بسبب النزول، وهو أن اليهود قالوا: إن العرب يأتون النساء من قِبَل أعجازهن، فإذا فعلوا ذلك، جاء الولد أحول، فأكذب الله أحدوثتهم، فأنزل الآية[2] .

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[البقرة: ٢٥٦] .

يقول ابن كثير رحمه الله: " لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بين واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٢٨٨) .

(٢) جامع البيان (٤/ ٤٠٢)، برقم: (٤٣٢٢) .

مكرهًا مقسورًا، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عامًّا "(١) .

وقد استفاد هذه الهداية من سبب النزول، وهو قول ابن عباس: " كانت المرأة تكون مقلاة، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[البقرة:٢٥٦] "(٢) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٨٢) .

(٢) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الأسير يكره على الإسلام، برقم: (٢٦٨٢)، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، سورة البقرة، قوله تعالى: ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ برقم: (١١٠٤٩)، وصححه الألباني في صحيح السنن .

تاسعًا: النظر في المناسبات:

علم المناسبات من حيث كونه علمًا مستقلًّا يعدّ من العلوم المهمة، ويعرّف بأنّه علم يعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن الكريم[1]، ويبحث في (نظام القرآن) .

ولم يكن هذا العلم يتجاوز مجرد الإشارات واللفتات، بين ثنايا كتب التفسير، " ولم يظهر علمًا مستقلًّا، إلا مع الإمام الجليل أبي بكر النيسابوري رحمه الله (ت٣٢٤هـ)، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، فإنه أول من أظهر علم المناسبة، إذ كان يهتم به في درسه، ويقول إذا قرئت عليه آية: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؛ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه؟ .. وكان يزري على علماء بغداد، لعدم علمهم بتلك المعاني "[2] .

فنجد أن السورة الطويلة المنجمة في نزولها، تنسجم مقاصدها، مع تنوع أساليبها وموضوعاتها، فلا تناكر في أوضاعها، بل يظهر للمتدبر تمام التآلف بين الأجناس المتنوعة، فلم يكن الانتقال بين الأغراض المختلفة في السورة الواحدة أمرًا اعتباطيًا بلا علاقة بينها، فهذا لو وقع من البشر لم يكن لائقًا، فكيف بكلام أحكم الحاكمين، بل تتعانق جميع الأغراض، والأساليب، والموضوعات؛ لتصل إلى الغاية القصوى، والمقصد العام الذي تدور حوله السورة .

---

(١) ينظر: نظم الدرر (١/ ٦) .

(٢) مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، لعادل بن محمد أبو العلاء (ص:٢١) .

وهذا العلم يعتبر خزانة للهدايات، حيث يهتدي به المفسر في استخراجها .

قال الزركشي رحمه الله: " وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي، وقال في تفسيره: " أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط "، وقال بعض الأئمة: من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض؛ لئلا يكون منقطعًا "[1] .

فلذلك نجد أن جل المناسبات، عبارة عن هدايات، فعلى سبيل المثال: عند الكلام عن المناسبة بين سورة الفاتحة والبقرة، يذكر المفسرون: أن الله تعالى أرشد عباده في سورة الفاتحة إلى أن يسألوه الهداية، بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، فبين لهم سبحانه طريقها، وأرشدهم إلى أعظم أسبابها، فقال: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ١ – ٢]، فهذا القرآن الكريم هو طريق الهداية الكبرى، وهذه إحدى الهدايات المستنبطة من هذه الآية، وقد استخرجت من خلال النظر في المناسبات .

قال أبو جعفر الغرناطي رحمه الله: " لما قال العبد بتوفيق ربه: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦]،قيل له: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾[البقرة: ٢] هو مطلوبك، وفيه أربك، وهو الصراط المستقيم، ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ القائلين: اهدنا الصراط المستقيم، والخائفين من حال الفريقين: المغضوب عليهم والضالين، فاتخذوا وقاية من العذاب خوف ربهم وتقواه، بامتثال أمره ونهيه، ثم أشير من

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٦) .

الأعمال إلى ما يستحق سائرها، من قبيلي البدنيات والماليات؛ بيانًا للصراط المستقيم "[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴾[الطارق : ١١- ١٢]، بين البقاعي مناسبة ذكر هذه الآيات بما قبلها، من خلق الإنسان، وتقرير البعث، فقال: " فجمع بالقسم العالم العلوي الذي هو كالرجل، والسفلي الذي هو كالمرأة، فكما أن الرجل يسقيها من مائه، فتصدع عن الولد، فكذلك السماء، تسقي الأرض، فتتصدع عن النبات، وكما أنها تتصدع عن النبات بعد فنائه، وصيرورته رفاتًا، فيعود كما كان، فكذلك تتصدع عن الناس بعد فنائهم، فيعودون كما كانوا بإذن ربها، من غير فرق أصلًا "[(٢)]، وهو بتدبره من أروع الهدايات في باب المناسبات .

وكذلك بين الزركشي رحمه الله الهدايات في مناسبات الآيات بختامها في الجملة، فقال: " وعادة القرآن العظيم، إذا ذكر أحكامًا، ذكر بعدها وعدًا ووعيدًا؛ ليكون ذلك باعثًا على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه؛ ليعلم عظم الآمر والناهي "[(٣)] .

ومنها: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ

(١) البرهان في تناسب سور القرآن (١٩٠) .

(٢) نظم الدرر (٢١/ ٣٨٣) .

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٠) .

﴿فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧ – ٩٨]، حيث ختم سبحانه الأولى بالعلم، والثانية بالفقه .

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله في مناسبة ختم الآيتين: " وعدل عن ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إلى ﴿يَفْقَهُونَ﴾؛ لأن دلالة إنشائهم على هذه الأطوار، من الاستقرار والاستيداع، وما فيهما من الحكمة، دلالة دقيقة، تحتاج إلى تدبر، فإن المخاطبين كانوا معرضين عنها، فعبر عن علمها بأنه فقه، بخلاف دلالة النجوم على حكمة الاهتداء بها، فهي دلالة متكررة، وتعريضًا بأن المشركين لا يعلمون ولا يفقهون، فإن العلم هو المعرفة الموافقة للحقيقة، والفقه هو: إدراك الأشياء الدقيقة، فحصل تفصيل الآيات للمؤمنين، وانتفى الانتفاع به للمشركين، ولذلك قال بعد هذا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾"(١) .

عاشرًا: التأمل في مواضع اقتران أسماء الله الحسنى:

تتناول وجوه اقتران الأسماء الحسنى في علم المناسبات، وإنما أفرد هنا لأهميته، فأسماء الله تعالى حسنى، أي: بالغة في الكمال؛ لتضمنها لصفات الجلال .

قال ابن القيم رحمه الله: " أسماء الرب تبارك وتعالى، دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء، وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى؛ إذ

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٩٧، ٣٩٨) .

لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها، لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح وكمال "[١].

وتزداد قوة دلالاتها ومعانيها كلما اجتمعت، وهو سر اجتماعها في أكثر الآيات، مناسبا لسياقها .

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله أيضًا: " فلهُ بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر "[٢].

ومن ذلك ما يلي:

اقتران اسم (الغفور) بـ(الرحيم): وهي من أكثر الأسماء التي وردت مقترنة في القرآن الكريم، فقد وردت اثنتين وسبعين مرة، والسر في ذلك: أن المغفرة تقتضي ستر الذنب والتجاوز عنه، والرحمة تقتضي مزيد الإحسان والإكرام بدخول الجنان .

وله وجه آخر، ذكره البيضاوي رحمه الله بقوله: " فتعرضوا لرحمته بالطاعة، ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية "[٣].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٨) .

(٢) المرجع السابق (١/ ٥٨) .

(٣) أنوار التنزيل (٣/ ١٢٦) .

وكذلك اقتران اسم (الودود) بـ(الرحيم)، و(الغفور)، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾[هود: ٩٠]، وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾[البروج: ١٤].

قال ابن القيم رحمه الله: " وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور؛ فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه، ويحبه مع ذلك؛ فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه، ولو كان منه ما كان "[١].

ومنه اقتران اسم (العزيز) بـ(الحكيم): فكل منهما دال على الكمال الخاص الذى يقتضيه، وهو كمال العزة في العزيز، وكمال الحكمة في الحكيم، وحينما يجتمعان يقتضي ذلك كمالًا آخر، فعزته بحكمة تنزه عن الظلم، وحكمته بعزة تنزه عن الضعف، كما في قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[المائدة: ١١٨].

قال السعدي رحمه الله: " أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾: حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة "[٢].

وكذلك في قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[إبراهيم: ٤].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٩٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٤٩).

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: " ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ تذييل؛ لأن العزيز قوي لا ينفلت شيء من قدرته، ولا يخرج عما خلق له، والحكيم يضع الأشياء مواضعها، فموضع الإرسال والتبيين، أتى على أكمل وجه من الإرشاد، وموقع الإضلال والهدى، هو التكوين الجاري على أنسب حال بأحوال المرسل إليهم، فالتبيين من مقتضى أمر التشريع، والإضلال من مقتضى أمر التكوين "[1].

ومن ذلك اقتران اسم (السميع) بـ(العليم): فقد كثر اقتران هذين الاسمين في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الأعراف: ٢٠٠]، فهو يسمع ما هو مسموع من استعاذتكم، ويعلم ما ليس بمسموع من نزغاته[2].

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٨٨).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ١٩١).

الحادي عشر: استنباط مقاصد القرآن الكريم:

علم مقاصد القرآن الكريم وسوره، من العلوم الاستنباطية الحديثة، والمقصود به معرفة مغزى السورة، الذي ترجع إليه معاني السورة، ومضمونها[1]، وبعضهم يبحثه تحت ما يسمى بـ(الوحدة الموضوعية)[2]، وله ارتباط وثيق بالمناسبات .

وعلم مقاصد السور لم يكن معروفا بهذا الاسم عند المتقدمين، وإنما كانوا يذكرون ما تدور حوله السورة، كما قال الزجاج رحمه الله عند حديثه عن سورة الأنعام: " وأن أكثرها احتجاج على مشركي العرب، على من كذب بالبعث والنشور "[3]، ففيه إشارة إلى مقصد السورة .

ومثل ذلك قرر الرازي رحمه الله فقال عن السورة نفسها: " مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين "[4] .

ثم ظهر بعد ذلك استخدام كلمة (المقصود)، كما يقول الغرناطي المتوفى سنة (٧٠٨هـ) عن سورة القمر مثلًا: " سورة القمر بأسرها، مقصودها: تذكير كفار العرب من قريش بغيرهم، بما نزل بمن تقدمهم من مكذبي الأمم "[5] .

---

(١) ينظر: علم مقاصد السور د. محمد الربيعة (ص: ٧) .

(٢) ينظر: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم؛ للدكتور محمد محمود حجازي .

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٢٢٧) .

(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٧١) .

(٥) ملاك التأويل (٢/ ٤٦٠) .

إلا أن التأصيل لهذا العلم، وإطلاق كلمة (مقصد) كمصطلح عليه، كان على يد البقاعي رحمه الله المتوفى سنة (٨٨٥هـ) في كتابه: « مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور »، وقد قال في مقدمته: " فإن كل سورة لها مقصد واحد، يدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها، فترتب المقدمات الدالة عليه على أتقن وجه، وأبدع نهج، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليل، استدل عليه، وهكذا في دليل الدليل، وهلم جرا .

فإذا وصل الأمر إلى غايته، ختم بما منه كان ابتدأ، ثم انعطف الكلام إليه، وعاد النظر عليه، على نهج آخر بديع، ومرقى غير الأول منيع، فتكون السورة كالشجرة النضيرة العالية، والدوحة البهيجة الأنيقة الخالية، المزينة بأنواع الزينة المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدر، وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وشعبة ملتحمة بما بعدها، وآخر السورة قد واصل أولها، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها "(١)، ثم درج عليه العلماء بعد ذلك .

وقد يدل اسم السورة على مقصدها، كما قال البقاعي رحمه الله: " قد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ، في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب، أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه، عنوانه الدال إجمالًا، على تفصيل ما فيه "(٢).

(١) مصاعد النظر (١/ ١٤٩) .

(٢) نظم الدرر (١/ ١٨- ١٩) .

ومقصد السورة بحد ذاته نوع من الهدايات، فكل مقصد من المقاصد ما هو إلا هداية من الهدايات، وقد اجتهد العلماء في استنباط مقاصد السور، ومن أمثلتها:

مقصد سورة الفاتحة: تحقيق العبودية لله تعالى .

مقصد سورة آل عمران: الثبات على الإسلام بعد كماله وبيانه، ورد شبهات أهل الكتاب وخاصة النصارى .

مقصد سورة النساء: تنظيم حقوق المجتمع المسلم من داخله، من خلال حفظ الحقوق الاجتماعية والمالية؛ إزالةً لرواسب الجاهلية، وتركيزًا على حقوق النساء والضعفاء .

مقصد سورة التوبة: كشف أحوال الطوائف، بالمُفاصلة مع الكافرين، وفضح المنافقين، وتمييز المؤمنين .

مقصد سورة هود: بيان منهج الرسل في مواجهة قومهم المكذبين .

مقصد سورة يوسف: تركز على الوعد بالتمكين بعد الابتلاء المبين؛ تثبيتًا ووعدًا للنبي ﷺ وللمؤمنين .

مقصد سورة النحل: تركز على التذكير بالنعم الدالة على المنعم؛ إلزامًا بعبوديته، وتحذيرًا من جحودها .

مقصد سورة الإسراء: التركيز على كمال الرسالة المحمدية، وفيها إشارات وبشارات للرسالة، مضمونًا ومستقبلًا(١) .

---

(١) ينظر: المختصر في التفسير في أوائل كل سورة .

وهكذا إلى آخر القرآن، ومما ينبغي التنبيه له في هذا الباب ما يلي:

- أنه قد يكون للسورة الواحدة عدة مقاصد، لاسيما السور الطوال .

- أن استنباط هذه المقاصد اجتهادي، تختلف فيه أنظار العلماء .

- أن هذا الباب - كغيره من علوم القرآن الاجتهادية - قد دخله شيء من التكلف غير المرضي، والله أعلم .

الثاني عشر: النظر في السياق:

من المعلوم أن سياق الكلام يدل على مراد المتكلم، ولا يكفي مجرد اللفظ، وما يجوز حمله عليه في اللغة؛ ولذلك يعد السياق القرآني من أهم مقومات المفسر، كما ظهر ذلك من خلال اختيارات المفسرين، وهذا ما يقال عند تدبر القرآن الكريم واستنباط هداياته .

قال شيخ الإسلام رحمه الله: " فمن تدبر القرآن، وتدبر ما قبل الآية، وما بعدها، وعرف مقصود القرآن: تبين له المراد، وعرف الهدى والرسالة، وعرف السداد، من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ، المجرد عن سائر ما يبين معناه، فهذا منشأ الغلط من الغالطين؛ لا سيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية، فإن هؤلاء أكثر غلطًا من المفسرين المشهورين؛ فإنهم لا يقصدون معرفة معناه، كما يقصد ذلك المفسرون "[(١)] .

وقد ظهر التأكيد على استحضار السياق في وقت مبكر، فقد روي عن تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما مسلم بن يسار البصري رحمه الله المتوفى سنة

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩٤) .

(١٠٠هـ)، أنه قال - وهو ينبه إلى ضرورة الاهتمام بالسياق -: " إذا حدثت عن الله؛ فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده "(١) .

وكذلك ذكر الزركشي رحمه الله منهج الراغب في مفرداته، فقال: "وطريق التوصل إلى فهمه: النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب، ومدلولاتها، واستعمالاتها، بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيرًا في كتاب: « المفردات »، فيذكر قيدًا زائدًا على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ؛ لأنه اقتنصه من السياق "(٢) .

ولذلك كلما تأمل المستنبط في سياق الآيات، وطوف نظره في سباقها ولحاقها، انفتحت له جملة من معالم الهدايات، وأسرار الدلالات .

ومن شواهد ذلك، قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[المائدة: ٦٧] .

يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله " هذه الآية تثبيت للوعد وإدامة له، وأنّه لا يتغيّر مع تغيّر صنوف الأعداء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾؛ ليتبيّن أنّ المراد بالنّاس كفّارهم، وليومئ إلى أنّ سبب عدم هدايتهم هو: كفرهم، والمراد بالهداية هنا: تسديد أعمالهم، وإتمام مرادهم، فهو وعد لرسوله بأنّ أعداءه

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص: ٢٢٩) .

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٧٢) .

لا يزالون مخذولين لا يهتدون سبيلًا لكيدِ الرّسول والمؤمنين؛ لطفًا منه تعالى، وليس المراد الهداية في الدّين؛ لأنّ السياق غير صالح له "[1] .

وكذلك أورد الرازي رحمه الله إشكالًا في سورة عبس، وهو: لماذا ذكر تعالى وصف العمى مع أن المقام تشريف لابن أم مكتوم؟! وأجاب عنه بما استنبطه من هداية دل عليها سياق الآيات، فقال: " إنه بسبب عماه استحق مزيد الرفق والرأفة، فكيف يليق بك يا محمد أن تخصه بالغلظة؟! "[2] .

وفي قوله تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾[الإنسان: ٦]: ذهب بعض العلماء إلى تضمين يشرب معنى يرتوي؛ وذلك لأنّ السياق في الامتنان والتكثير؛ والري أبلغ من مجرد الشرب، كما أنه لو قال: يشرب منها، لم تدل على الري؛ فعبر عن المعنيين بغاية الاختصار، وهذا من بدائع القرآن الكريم ومحاسنه وكماله[3] .

الثالث عشر: الاستفادة من آثار الصحابة والتابعين:

لاشك أن الصحابة والتابعين، هم أعلم الأمة بعد رسولها بكتاب ربها، فكان متحتما على كل ناظر في كتاب الله تعالى، أن يصدر من معينهم، ولا يخرج عن إجماعهم، فالصحابة - رضوان الله عليهم - قد شهدوا التنزيل، ومجموعهم فهم التأويل .

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٦٤) .

(٢) مفاتيح الغيب (٣١/ ٥٣) .

(٣) ينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢١) .

قال مسروق رحمه الله: " لقد جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ[1]، فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المئة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم "[2].

وعلم الهدايات في إطاره العام، لابد أن يلحظ فيه ذلك، وإن كانت آحاده وتفاصيله غير متناهية، وقد تعامل جماعة من المفسرين على هذا المقتضى.

ومن ذلك قول البقاعي رحمه الله في آخر سورة النصر: " فالتسبيح الذي هو تنزيه عن النقص، إشارة إلى إكماله الدين، تحقيقًا لما كان تقدم به وعده الشريف، والاستغفار إشارة إلى أن عبادته ﷺ التي هي أعظم العبادات، قد شارفت الانقضاء، ولا يكون ذلك إلا بالموت، فلذلك أمر بالاستغفار؛ لأنه يكون في خاتمة المجالس والأعمال؛ جبرًا لما لعله وقع فيها على نوع من الوهن، واعترافًا بذل العبودية والعجز "[3].

وقد استفاد هذا المعنى مما استفاض عن ابن عباس وغيره من الصحابة رضي الله عنهم من أن السورة نعي للنبي ﷺ[4].

وفي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

(١) أي غدير الماء، ويجمع على أُخذ، القاموس المحيط (ص:٣٣٠).

(٢) المدخل إلى السنن الكبرى (ص:١٦).

(٣) نظم الدرر (٢٣/ ٣١٩).

(٤) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس (ص:٥٢١).

قال البيضاوي رحمه الله: " لا يضركم الضلال إذا كنتم مهتدين، ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته "[(١)] .

وهذه الهداية معلومة من مجموع النصوص، ومنها: أثر أبي بكر رضي الله عنه قال: " إنكم تقرؤون هذه الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: " إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، أوشك الله أن يعمهم بعقابه "[(٢)] .

وفي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٩] .

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: " وأوْلى المعاني بقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ ﴾: علا عليهن وارتفع، فدبرهنّ بقدرته، وخلقهنّ سبع سموات"[(٣)] .

فاستفاد هذا المعنى من مجموع ما نقل عن الصحابة والتابعين - رحمهم الله - في معنى الاستواء، فقد ثبت عن أبي العالية رحمه الله أنه قال: ﴿ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى

---

(١) أنوار التنزيل (٢/ ٢٤٧) .

(٢) رواه أبوداود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، برقم: (٤٣٣٨)، والترمذي، أبواب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، برقم: (٢١٦٨) والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، سورة المائدة، قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾، برقم: (١١٠٩٢) وصححه الألباني في صحيح السنن .

(٣) جامع البيان (١/ ٤٨٠) .

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: ارتفع، وعن مجاهد رحمه الله أنه قال: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾: علا[(١)].

ومن ذلك قول ابن كثير رحمه الله في هدايات قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦]: "لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله، وينتفعون بسماعه، .. عطف بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء، بالألحان وآلات الطرب"[(٢)].

وقد استفاد هذا المعنى من قول ابن مسعود رضي الله عنه، حيث نقل الطبري رحمه الله وغيره أنه قال: " الغناء، والذي لا إله إلا هو، يردّدها ثلاث مرّات"[(٣)].

الرابع عشر: التدبر في قراءة النبي ﷺ في الصلوات وبعض الأحوال:

في هذه الطريقة تظهر استفادة العلماء من هدي النبي صلى الله عليه وسلّم، عند استنباطهم الهدايات، وتكون إما من خلال تدبر ما قرأه النبي صلى الله عليه وسلّم بنفسه، أو ما أمر بقراءته في بعض المناسبات، أو قرنه بين بعض السور والآيات.

أما قراءته فكثيرة، ومنها: قراءة (السجدة والإنسان)، في فجر الجمعة، وسورتي (الجمعة والمنافقون) في صلاة الجمعة.

---

(١) رواه البخاري معلقًا، كتاب التوحيد، باب ﴿وكان عرشه على الماء﴾ [هود: ٧]، ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ [التوبة: ١٢٩]، [٩/ ١٢٤].

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٣٠).

(٣) جامع البيان (٢٠/ ١٢٧).

والهدايات المستفادة من ذلك كثيرة: فسورتا السجدة والإنسان تدوران حول بيان حقيقة الخلق وأحوال الناس في الدنيا والآخرة، وتقرير البعث، والصبر، وكلها معان تناسب فجر الجمعة؛ فقد قال ﷺ: " خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلِق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة "(١).

وكذلك سورة الجمعة التي سميت بسورة الجمعة؛ لمجيء ذكر يوم الجمعة فيها، وهي تدور حول تذكير الأمة بنعمة الله تعالى عليها، بإرساله محمدًا ﷺ، وأن الله قد جعله هدايةً لها بعد الضلال، كما تنبه إلى عدم التشاغل بالدنيا عن الآخرة، التي ستكون بدايتها مع القيامة في يوم الجمعة.

وأما سورة المنافقون: فهي تدور حول كشف أحوال المنافقين، وبيان حقيقتهم وصفاتهم؛ للحذر منهم، ونصيحتهم، فصلاة الجمعة مظنة لاجتماعهم فيها.

وأما ما أمر به صلى الله عليه وسلّم: فكأمره بقراءة سورة الكهف يوم الجمعة.

وخلاصة ما قيل في هداياتها ومناسبتها للجمعة، أنها تتحدث عن أربع فتن:

فتنة الدين في قصة أصحاب الكهف، والعصمة منها بالصحبة الصالحة.

وفتنة المال في قصة صاحب الجنتين، والعصمة منها بمعرفة حقيقة الدنيا.

وفتنة العلم في قصة الخضر مع موسى ﷺ، والعصمة منها التواضع.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، برقم: (٨٥٤).

وفتنة الملك في قصة ذي القرنين، والعصمة منها تذكر الآخرة .

وهذه الفتن يَحتاجُ المؤمن إلى معرفتها وطرق العصمة منها ، فشُرعَت قراءتها كُلَّ جُمعة، وفي اسمها ما يدل على مقصدها، وهو (الكهف) فهو عصمة مادية لمن يلجأ إليه عادةً، وكذلك هذه السورة عصمة لمن قرأها وتدبرها من هذه الفتن [1] .

ومن أعظم الفتن، فتنة الدجال، الذي يجمع هذه الفتن الأربع، فهو يفتن الناس في دينهم، بعلمه، وماله، وملكه .

ولذلك بين النبي صلى الله عليه وسلّم أن قراءة سورة الكهف عصمة من الدجال، فقال: " من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال"، قال مسلم: " قال شعبة: من آخر الكهف، وقال همام: من أول الكهف"[2] .

ورغب ﷺ في قراءتها يوم الجمعة؛ لكون قيام الساعة فيها، وظهور الدجال من أظهر علاماتها الأرضية .

وأما قرنه ﷺ بين السور: فأشهرها قرنه بين المعوذتين في مواضع من الصلوات والأذكار، ووجه التلازم بينهما ما بينه البقاعي بقوله: " لما جاءت سورة الفلق للاستعاذة من شر ما خلق، من جميع المضار البدنية وغيرها، العامة

(١) ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم (ص: ١٧٩) .

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، برقم: (٨٠٩).

للإنسان وغيره، وذلك هو جملة الشر الموجود في جميع الأكوان والأزمان، ثم وقع فيها التخصيص بشرور بأعيانها من الفاسق والساحر والحاسد، فكانت الاستعاذة فيها عامة للمصائب الخارجة التي ترجع إلى ظلم الغير، والمعايب الداخلة التي ترجع إلى ظلم النفس، ولكنها في المصائب أظهر، وختمت بالحسد فعلم أنه أضر المصائب، وكان أصل ما بين الجن والإنس من العداوة الحسد، جاءت سورة الناس متضمنة للاستعاذة من شر خاص، وهو الوسواس، وهو أخص من مطلق الحاسد، ويرجع إلى المعايب الداخلة، اللاحقة للنفوس البشرية، التي أصلها كلها الوسوسة، وهي سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهي من الجن أمكن وأضر، والشر كله يرجع إلى المصائب والمعايب "(١) .

الخامس عشر: النظر في دلائل الرسم:

أكثر العلماء على أن الرسم القرآني توقيفي لإجماع الصحابة عليه، وذهب بعضهم إلى أنه اجتهادي(٢)، وبعيدًا عن هذا الخلاف فإن ما يهمنا هو أن العلماء قد استنبطوا جملًا من الهدايات من خلال التأمل في دلائل رسم القرآن الكريم، فقد تكون الكلمة الواحدة يختلف رسمها من موضع لآخر فيدل ذلك على هداية من الهدايات كما في كلمة نعمة، فقد وردت التاء مربوطة ومفتوحة .

وفي ذلك يقول ابن البناء المراكشي رحمه الله المتوفى سنة (٧٢١هـ): " النعمة: مدت في أحد عشر موضعًا: أحدها: في سورة إبراهيم: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٤٢٤) .

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٧٩) .

﴿ تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم: ٣٤]، فهذه بمعنى الحاصلة بالفعل في الوجود، يدلك عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ فهذه نعمة متصلة بالظلوم، (الكفار) في تنزلها .

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[النحل: ١٨]، وهذه قبضت تاؤها لأنها بمعنى الاسم، يدلك عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، فهذه نعمة وصلت من الرب الغفور، فهي ملكوتية ختمها باسمه تعالى، وختم الأولى باسم الإنسان "(١) .

ومثلها كلمة: (سُنّة)، قال المراكشي رحمه الله: " ومن ذلك: (السنّة) مُدت في خمسة مواضع حيث تكون بمعنى الإهلاك والانتقام الذي ظهر في الوجود .

أحدها في الأنفال: ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[الأنفال: ٣٨]، يدل على أنها للانتقام قوله تعالى قبلها: ﴿ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾[الأنفال : ٣٨]، وبعدها: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾[الأنفال: ٣٩] .

وفي فاطر: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[فاطر: ٤٣]، يدلك على أنها كلها بمعنى الانتقام، قوله تعالى قبلها: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[فاطر: ٤٣] وسياق ما بعدها .

وفي المؤمن: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ﴾[غافر: ٨٥] .

---

(١) عنوان الدليل من مرسوم الخط والتنزيل (ص: ١١٠) .

فإذا كانت السُنة بمعنى الشريعة، والطريقة المتبعة، فهي ملكوتية، بمعنى: الاسم تقبض تاؤها، كما في الأحزاب: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ [الأحزاب: ٣٨] فهذه بمعنى حكم الله و شرعه فيهم .

وكذلك: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾[الإسراء: ٧٧]، فهذه بمعنى الشريعة، والطريقة المتبعة "[1] .

وكذلك زيادة حرف في الرسم، كالواو، والألف، والياء، إنما يكون لفائدة في المعنى، كما قال البقاعي رحمه الله – في فائدة زيادة الألف في قوله تعالى: ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾[الأحزاب: ١٠) – : " وزيادة الألف في قراءة من أثبتها في الحالين، وهم: المدنيان، وابن عامر، وشعبة: إشارة إلى اتساع هذه الأفكار، وتشعب تلك الخواطر، وعند من أثبتها في الوقف دون الوصل، وهم: ابن كثير، والكسائي، وحفص: إشارة إلى اختلاف الحال تارة بالقوة ، وتارة بالضعف "[2] .

فهذه – وغيرها كثير – جملة من الهدايات الدقيقة التي استفيدت من رسم المصحف، والله أعلم .

(١) المرجع السابق (ص: ١١٢) .

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣٠٣) .

السادس عشر: ربط الآيات بالواقع:

هدايات القرآن الكريم لا تنقضي، فهي معان خالدة، تزداد تجليا كلما اقتضاها الواقع، وأسعفتها اللغة، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[الأنعام: ١٩].

قال ابن باديس رحمه الله: " إنّ القرآن كتاب الدهر، ومعجزته الخالدة، فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن "[١] .

وقد نزل القرآن الكريم منجما لحكم كثيرة، منها: معالجة الواقع، كما قال ابن كثير رحمه الله: " نزل مفرقًا منجمًا على الوقائع، بحسب ما يحتاج إليه العباد في معادهم ومعاشهم "[٢] .

وقال ابن عاشور رحمه الله نقلًا عن الوزير رحمه الله: " إنّ القرآن لو لم ينزل منجما على حسب الحوادث، لما ظهر في كثير من آياته مطابقتها لمقتضى الحال، ومناسبتها للمقام، وذلك من تمام إعجازها "[٣] .

وعلماء التفسير يتفقون على أنّ العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، وهي قاعدة دالة على مراعاة الواقع، كلما تغيرت أحواله، وملابساته .

وعلى ما سبق، نجد المحققين من المفسرين، في استخراجهم للهدايات، يتأثرون بالواقع؛ ربطًا وتفسيرًا، وأمثلة ذلك كثيرة منها:

---

(١) مجالس التذكير (٣٧٧) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٦٧) .

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠) .

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾[مريم: ٩٦]؛ يقول ابن باديس رحمه الله: " في الآية من سبب نزولها بشارة لدعاة الحق، وأنصار السنة، ومرشدي الأمم، عندما يقومون بدعوة القرآن الكريم في عشائرهم، ويلقون منهم النفور والإعراض، والبغض والإنكار، ويجدون أنفسهم غرباء بينهم، يعاديهم من كانوا أحبابهم، ويقاطعهم أقرب الناس قرابة إليهم، ويصبح يؤذيهم من كان يحميهم، ويدافع عنهم .

في الآية بشارة لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنهم سيكون لهم على كلمة الحق مؤيدون، وفي الله محبون، وسيكون لهم ود في القلوب، ممن يعرفون وممن لا يعرفون .

وفيها أيضًا، تثبيت لهم في تلك الغربة، ووحشة الانفراد، بما يكون لهم من أنس الود، وأي ود هو!! ود يكون من جعل الرحمن "(١) .

وظاهر جدًّا أن المفسر يستحضر معاناة الدعاة في زمانه، ويستخرج لهم هذه الهداية من الآية؛ لتثبيت قلوبهم، وتسليتهم في غربتهم، ومواساتهم في كربتهم .

ومنه قوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴾[البلد: ٤] .

قال القرطبي رحمه الله: " أول ما يكابد قطع سرته، ثم إذا قمط قماطًا، وشد رباطًا، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفطام، الذي هو أشد من اللطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المعلم وصولته، والمؤدب وسياسته،

(١) مجالس التذكير (٣٤١) .

والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه، ثم يكابد شغل الأولاد، والخدم والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكبر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغم الدين، ووجع السن، وألم الأذن، ويكابد محنا في المال والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مسألة الملك، وضغطة القبر وظلمته، ثم البعث ، والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار، إما في الجنة وإما في النار "[١] .

ومما يحسن التنبيه إليه، أن ربط الآيات بالواقع، لابد أن يكون متصلًا أيضًا بأسباب النزول كما سبق في نقل ابن باديس، وبسياق الآيات ودلالات اللغة، وإلا تحولت الهدايات إلى ضلالات، وتلاعب بظواهر الآيات، كما ذهب بعضهم إلى أن معنى قوله: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[التكوير: ٥]: جمعت في حدائق الحيوانات وسجنت في الأقفاص، فنظر إلى الواقع دون أدنى مراعاة للدلالة التفسيرية للآية، وقال في معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[التكوير: ٦]: البترول المودع في الأرض ..[٢]، إلى آخر هذا الكلام الذي يفتقر إلى أدنى قواعد التفسير .

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٦٣) .

(٢) مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية للغماري (ص: ٢٣-٢٤) .

السابع عشر: تأمل الآيات من خلال مكتشفات العلوم الكونية:

النظر في مكتشفات العلوم التجريبية والكونية، ومطابقتها لظواهر القرآن الكريم، - وهو ما يسمى بالإعجاز العلمي للقرآن - قد سبق الكلام عنه تفصيلًا[1]، وقد وظفه بعض العلماء في استخراج الهدايات القرآنية، فقد أمر الله تعالى بالنظر، والتفكر، في ملكوت السموات والأرض، فقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾[الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس: ١٠١]، وهذا النظر والتفكر، يفتح للذهن مسارح التأملات؛ لاستخراج الهدايات، والعلماء القوّامون على كتاب الله، وسنة رسوله، لا يتلقونها بالفكر الخامد، والفهم الجامد، إنما يترقبون من سنن الله في الكون، وتدبيره في الاجتماع، ما يكشف لهم عن حقائقها، ويكلون إلى الزمن وأطواره، تفسير ما عجزت عنه أفهامهم.

وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت: ٥٣]، قال الزمخشري رحمه الله: " ومعناه: أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، سيرونه ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك، أن القرآن تنزيل عالم الغيب، الذي هو على كل شيء شهيد، أي: مطلع مهيمن،

---

(١) عند الكلام عن مجالات الهداية المختلف فيها.

يستوي عنده غيبه وشهادته، فيكفيهم ذلك دليلًا على أنه حق، وأنه من عنده، ولو لم يكن كذلك؛ لما قوي هذه القوة، ولما نصر حاملوه هذه النصرة"[١].

وقد أثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن الكريم، قولهم في بعض هذه الآيات: لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد، يعنون أنه آت، وأن الآتي به حوادث الزمان، ووقائع الأكوان[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[النساء: ١٦٦].

يقول ابن كثير رحمه الله: "﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ ﴾أي: فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه، من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب، من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة، التي لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا أن يعلمه الله به "[٣].

والمتدبر للآيات القرآنية، التي تتحدث عن قضية كونية، كالسماوات، والشمس، والقمر، والنجوم، والأرض، والجبال، والإنسان، وغيرها، إن كان عنده علم بها، سيظهر له من الهدايات ما لا يظهر لغيره، وهذا ظاهر عند من يعتني بهذه العلوم من المفسرين، وأمثلة ذلك كثيرة .

---

(١) الكشاف (٤/ ٢٠٧) .

(٢) مجالس التذكير (٣٧٧) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٧٦) .

فقد ذكر المفسرون أن حكمة تقديم الشمس على القمر إذا تواليا هي: أن الشمس هي الأصل، فإن نور القمر جزء من نور الشمس، وانتفاع أهل الأرض بالشمس، أعظم من الانتفاع بالقمر؛ لذلك قدم القمر مرة واحدة فقط، حينما كان الحديث عن السماوات، في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[نوح:١٥-١٦][1].

وفي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

قال ابن عاشور رحمه الله: " ومن إعجاز القرآن العلمي، تسمية هذا الكائن باسم العلقة، فإنه وضع بديع لهذا الاسم؛ إذ قد ثبت في علم التشريح أن هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة، هو كائن له قوة امتصاص القوة من دم الأم، بسبب التصاقه بعروق في الرحم، تدفع إليه قوة الدم، والعلقة: قطعة من دم عاقد.

والمضغة: القطعة الصغيرة من اللحم، مقدار اللقمة التي تمضغ .. وعطف جعل العلقة مضغة بالفاء؛ لأن الانتقال من العلقة إلى المضغة يشبه تعقيب شيء عن شيء؛ إذ اللحم والدم الجامد متقاربان فتطورهما قريب، وإن كان مكث كل طور مدة طويلة.

---

(١) ينظر: البرهان (٣/ ٢٥٩).

وخلق المضغة عظامًا، هو تكوين العظام في داخل تلك المضغة، وذلك ابتداء تكوين الهيكل الإنساني، من عظم ولحم، وقد دل عليه قوله: ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾، بفاء التفريع على الوجه الذي قرر في عطف ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ ﴾ بالفاء "[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]: قال ابن عاشور رحمه الله: " لأن الجلد هو الذي يوصل إحساس العذاب إلى النفس بحسب عادة خلق الله تعالى، فلو لم يبدل الجلد بعد احتراقه لما وصل عذاب النار إلى النفس "[2]، فبين أن الإحساس يكون بالجلد .

والشواهد على هذا الأصل كثيرة، ذكرتها في مجالات الهدايات عند الكلام عن مجال الإعجاز الكوني والنفسي .

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٤) .

(٢) المرجع السابق (٣/ ٥٨) .

المبحث الثالث

أصول وقواعد وضوابط
في التعامل مع الهدايات القرآنية

إعداد

أ . د . طه عابدين طه حمد

أصول، وقواعد، وضوابط، في التعامل مع الهدايات القرآنية

مدخل:

يعتبر فهم القرآن الكريم وتفسيره، ومعرفة هداياته من أجلِّ وأعظم المقاصد، لأن صلاح أمور الدين والدنيا والآخرة متوقف على فهم القرآن والاهتداء بهديه، كما قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[طه:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[النساء:١٧٥]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة:١٥ - ١٦]، وللوصول لفهم معانيه، واستخراج أحكامه، معرفة هداياته، وضع العلماء أصولًا وقواعد وضوابط محكمة، لابد من الإلمام بها لكلِّ متدبر لآيات الكتاب المجيد مهتم بفهم معانيه ومعرفة هداياته .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية ترد إليها الجزئيات؛ ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت،

وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات، فيتولد فساد عظيم"[(١)].

وقال العلامة السعدي رحمه الله: "ومعلوم أن الأصول والقواعد للعلوم، بمنزلة الأساس للبنيان، والأصول للأشجار، لا ثبات لها إلا بها، والأصول تبنى عليها الفروع، والفروع تثبت وتتقوى بالأصول، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويقوى، وينمي نماء مطردًا، وبها تُعرف مآخذ الأصول، وبها يحصل الفرقان بين المسائل التي تشتبه كثيرًا "[(٢)].

وقال الشيخ العثيمين رحمه الله: " إن من المهم في كل فن أن يتعلم المرء من أصوله ما يكون عونًا له على فهمه، وتخريجه على تلك الأصول؛ ليكون علمه مبنيًّا على أسس قوية، ودعائم راسخةً، وقد قيل: من حُرِم الأصول حرم الوصول"[(٣)]، وقال: " ينبغي للمعلم أن يعتني بالأصول والقواعد؛ لأن الأصول والقواعد هي التي يبنى عليها العلم، وقد قال العلماء: من حُرم الأصول حُرم الوصول، أي: لا يصل إلى الغاية إذا حرم الأصول، فينبغي أن يلقي على الطلبة القواعد والأصول التي تتفرع عليها المسائل الجزئية؛ لأن الذي يتعلم على

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٠٣) .

(٢) طريق الوصول (ص: ٤) .

(٣) تفسير القرآن للعثيمين (١/ ١) .

المسائل الجزئية لا يستطيع أن يهتدي إذا أتته معضلة فيعرف حكمها؛ لأنه ليس عنده أصل "[1].

ولقد واجهتني عدة إشكالات وأنا أدرس هذا الموضوع، حاولت معالجتها بطرق علمية محددة، إليك بيانها، وهي تتلخص في الآتي:

١-ليست هنالك مصادر قديمة في أصول وقواعد التفسير إلا كتب التفسير، والدراسات الحديثة قليلة، وليست محررة بطريقة علمية واحدة؛ ولذا اعتمدت على كتب التفسير، مع الرجوع لكلِّ المصادر الحديثة ومحاولة الاستفادة منها، وحتى الرسائل العلمية التي درست قواعد التفسير عند عدد من المفسرين حاولت الرجوع إليها والاستفادة منها كذلك في تحديد القواعد التي تتعلق بالهدايات .

٢-هنالك عدم تفريق عند بعض العلماء الذين كتبوا في هذا الباب بين الأصول والقواعد والضوابط، ولقد اخترت هنا التفريق بينهما، والتزمت بهذا التفريق في الدراسة .

٣-ليست هنالك طريقة معينة عند المفسرين لصياغة القاعدة والتنصيص عليها كما هي عند الأصوليين؛ ولذا تجد تباينًا بينهم كبيرًا أحيانًا في التنصيص عليها، كما لا توجد دراسة علمية عن نشأة كل قاعدة وتطورها؛ ولذا فقد اخترت من عباراتهم ما رأيته الأمثل والأدق؛ ولو بتعديل، ولم أشر إلى من ذكرها في الغالب، ولم أتطرق إلي بيان كيفية تنوع عبارات العلماء في صياغتها؛ لأنّ ذلك يتطلب

---

(١) كتاب العلم للعثيمين (ص:٣١٥) .

استقراءً وتتبعًا دقيقًا لا تصلح مع طبيعة مثل هذه الدراسة، واكتفيت عن ذلك بذكر عبارات العلماء المختلفة أثناء التطبيق والاستدلال، وجعلت التأصيل مبينًا على القاعدة، وليس ذكر العلماء لها، واعتمدت في تثبيتها على الأدلة، ولذا ذكرت لكل أصل أو قاعدة أو ضابط أدلته، لأن به تثبت أو تنفى .

٤-لم أجد منهجية محددة في ذكر الأصول والقواعد عند العلماء، ولهذا وضعت من عندي منهجيةً محددةً في إيراد الأصول والقواعد والحديث عنها، وذلك من خلال ذكر القاعدة، وشرحها، وبيان أدلتها، وتطبيقات العلماء لها، بما يعين طلاب العلم على التعامل مع هدايات القرآن بصورة سليمة؛ لأن من أدرك الأصول والقواعد والضوابط بأدلتها، ونظر في تطبيقات العلماء لها، وتمرس على ذلك، وأصبح بإمكانه استحضارها متى أراد ذلك تكاملت عنده ملكة التفسير بصورة قوية، وصار باستطاعته توظيف فهمه الصحيح في الوصول للهدايات، والترجيح والاختيار القويم بين ما كتبه العلماء .

٥- لم أجد حصرًا وتحديدا للأصول والقواعد، وخصوصًا تلك التي تتعلق بالتفسير وعلوم القرآن والقراءات والهدايات، ولم أجد كذلك تبويبًا وترتيبًا معينا سار عليه العلماء في ذكرهم للأصول والقواعد، ولهذا حاولت التركيز على قواعد الهدايات التي تتعلق بتوظيف معنى الآية في الوصول للهداية بأوسع

أبوابها، وتركت القواعد الأخرى؛ لأنها خارج موضع الدراسة، وقد تناولها عدد من العلماء بالدراسة[1]، إلا أنه إذا كانت القاعدة مشتركة بين النوعين ذكرتها .

ولما كانت هذه الدراسة لا يصلح فيها استقراء وحصر جميع الأصول والقواعد للهدايات، وذلك لأن استقصاءها وحصرها يحتاج إلى بحوث ومؤلفات خاصة، فإنني قد اكتفيت ببعضها وخاصة الأصول الجامعة والقواعد المهمة في استثمار الفهم في الأصول للهداية، وقسمت هذه الدراسة إلى تمهيد وثلاثة مطالب:

كان التمهيد: في تعريف الأصل والقاعدة والضابط وبيان الفرق بينهم .

والمطلب الأول: في أصول التعامل مع هدايات القرآن .

والمطلب الثاني: في قواعد التعامل مع هدايات القرآن .

والمطلب الثالث: في ضوابط التعامل مع هدايات القرآن .

وإليك الحديث عن كل نوع، وهي أصول وقواعد وضوابط جليلة يستخدمها المفسر في فهمه القرآن الكريم، واستخراج هداياته الظاهرة والخفية، وما ذكرناه هنا يعتبر أهم الأصول والقواعد والضوابط التي لا يستغني عنها

---

(١) ممن تناول الأصول والقواعد من العلماء: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في كتابه: القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن، والشيخ عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني في كتابه: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، والشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت في كتابه: قواعد التفسير جمعًا ودراسة، والشيخ الدكتور حسين بن علي الحربي في كتابه: قواعد الترجيح عند المفسرين، والشيخ الدكتور أحمد سلامة أبو الفتوح في كتابه: عقود المرجان في قواعد المنهج الأمثل في تفسير القرآن من خلال أضواء البيان .

طالب علم مهتدٍ بهدايات الكتاب المجيد، ولكن قبل الشروع في الحديث عن تلك الأصول والقواعد والضوابط يحسن أن نبدأ بالتمهيد، الذي خصصناه في تعريف الأصل، والقاعدة، والضابط، مع بيان الفرق بينهم .

تمهيد : في تعريف الأصل، والقاعدة، والضابط، وبيان الفرق بينهم:

المطلب الأول: تعريف الأصل والقاعدة والضابط:

أولًا: الأصل لغةً واصطلاحًا:

أ/ الأصل في اللغة:

أساس الشيء[١]، وأَسْفَلُ الشيء، يُقال: قَعَدَ في أَصْل الجَبَلِ، وأَصْلِ الحائِطِ، وقَلَعَ أَصْلَ الشَّجَرِ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[إبراهيم: ٢٤]، ثم كثر حتّى قيل: أَصل كلِّ شيءٍ: ما يستند وجود ذلك الشيءِ إليه، فالأب أصل للولد، والنَّهر أصل للجدول[٢] .

وقال الرّاغب: أصل كلِّ شيء قاعدته التي لو تُوُهِّمَتْ مُرتَفِعَةً ارتفع بارتفاعها سائِره، وأَصَّلَ الرَّأي أصالة: جاد واستحكم ، وجمعه أصول[٣] .

ب/ الأصل اصطلاحًا:

الأصل في اصطلاح العلماء[٤] يطلق ويراد به عدة معان، أبرزها الآتي:

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ١٠٩) .

(٢) ينظر: القاموس المحيط (ص: ١٢٤٢)، وتاج العروس (ص: ٦٨٣٧) .

(٣) ذكره صاحب كتاب تاج العروس (ص: ٦٨٣٧)، وبحثت عنه في كتب الراغب فلم أجده .

(٤) ينظر: الفروق للقرافي (١/ ٢)، والقواعد للمقري (١/ ١٠٧)، والمفصل في القواعد الفقهية للبا حسين (ص:٤٤)، والكليات للكفوي (ص:٧٢٨)، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهاوني (ص: ٨٨٦) .

الأول: الدليل: ومنه قولهم: الأصل في هذه المسألة الكتاب والسنة: أي دليلها، والكتاب والسنة أصل؛ لأن غيرهما يتفرع عنهما، وإنما كان الدليل أصلًا لبناء الأحكام عليه واستنباطها منه، مثال ذلك:

قول ابن العربي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[الحجرات: ٩]: "هذه الآية هي الأصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأوِّلين، وعليها عوَّل الصَّحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملَّة .."(١).

الثاني: الراجح أو الغالب الذي يكون عليه الشيء قبل عروض العوارض:

ومنه قولهم: الأصل في الكلام الحقيقة، أي: الراجح، مثل: الأصل استواء الناس في الأحكام الشرعية إلا بدليل، والأصل في العقود والشروط الصحة، إلا ما أبطله الشارع، أو نهى عنه .

قال الشنقيطي رحمه الله: " إن الأصل براءة الذمة، فمن ادعى شغلها، فعليه الدليل، الأصل فرض الصوم "(٢).

الثالث: القاعدة المستمرة: مثل: الأصل فيما على الأرض الإباحة، حتى يرد دليل خاص بالمنع، الأصل في العقود الوجوب، إلَّا ما قام الدَّليل على ندبِه، ومثل: الأصل تحريم الميتة، وإباحتها للمضطر على خلاف الأصل، مثال ذلك:

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٩٦) .

(٢) أضواء البيان (٦/ ١٩٩) .

قول الجصاص رحمه الله: " الأصل في السنة دفن الموتى "(١).

وكقول ابن العربي رحمه الله: " الأصل في الأعمال الفرضيَّة الجهر، والأَصل في الأَعمال النَّفلِيَّة السِّرُّ "(٢).

وكقول الرازي رحمه الله: " إنّ الاصل في المنافع الاباحة، وفي المضار الحرمة "(٣).

وكقول ابن عاشور رحمه الله: " الأصل وهو أخذ الناس بظواهرهم "(٤).

الرابع: المقيس عليه: وهو أحد أركان القياس الأربعة، وهي: الأصل، والفرع، والعلة، وحكم الأصل.

قال الشنقيطي رحمه الله: " إن أركان القياس المذكورة أربعة: وهي الأصل المقيس عليه، والفرع المقيس، والعلة الجامعة بينهما، وحكم الأصل المقيس عليه "(٥)، وقال: " أما قياس الدلالة: فهو الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلة وملزومها، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[فصلت: ٣٩]، فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه، على الإحياء الذي

(١) أحكام القرآن (٤/ ٤٩).

(٢) أحكام القرآن (٤/ ٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٥/ ٣٠٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٦٢).

(٥) أضواء البيان (٤/ ١٧٧).

استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء، واعتبار الشيء بنظيره، والعلة الموجبة هي: عموم قدرته سبحانه، وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلة، ومنه قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[الروم:١٩] "[١] .

الخامس: ماله فرع، وليس هو فرعًا لغيره: قال القفال الشاشي رحمه الله: " الأصل: ما تفرع عنهغيره، والفرع: ما تفرع عن غيره، وهذا أسد الحدود "[٢].

وقال ابن تيمية رحمه الله: " والأصول مأخوذة من أصول الشجرة وأساس البناء؛ ولهذا يقال فيه: الأصل ما ابتنى عليه غيره، أو ما تفرع عنه غيره "[٣] .

وقال السعدي رحمه الله: " فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليها كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق فإنه مقيد به "[٤].

السادس: ما يقابل البدل: فيقال: " الماء أصل، والتيمم بدل منه "[٥] .

فخلاصة القول: إن الأصل قد يطلق عند العلماء ويراد به الدليل، والراجح أو الغالب الذي يكون عليه الشيء قبل عروض العوارض، والقاعدة المستمرة،

---

(١) أضواء البيان (٤/ ١٨٨) .

(٢) البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ١٠) .

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ١٥٨) .

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٤٩٩) .

(٥) التحرير والتنوير (١/ ٣٤) .

والمقيس عليه، وماله فرع، وليس هو فرعًا لغيره، وما يقابل البدل؛ ولكن في مصطلح هذه الدراسة فالمراد بالأصل هنا ما ينبني عليه أساس الحكم، أو القاعدة المستمرة .

ثانيًا: القاعدة لغةً واصطلاحًا:

أ / القاعدة لغة :

وهي: أساس الشيء وأصوله، سواء كان حسيًّا، كقواعد البيت، أو معنويًّا، كقواعد الدين، أي: دعائمه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾[البقرة: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾[النحل: ٢٦]، فالقواعد في الآيتين بمعنى الأساس، وهو ما يرفع عليه البنيان، فكل ما يبنى عليه غيره يسمى قاعدة، وجمعها قواعد، قال الزجاج رحمه الله: القواعد: أساطين البناء التي تعمده، وقواعد البيت: أساسُه [(١)] .

ب/ القاعدة اصطلاحًا:

قال التفتازاني رحمه الله: " القاعدة حكم كلي ينطبق على جزئياته؛ ليتعرف أحكامها منه "[(٢)] .

---

(١) ينظر: العين للخليل (١/ ٢٧)، والمحكم والمحيط الأعظم (١/ ٥٦)، وتاج العروس (٩/ ١٥٣)، ومعجم مقاييس اللغة (٥/ ١٠٩)، ولسان العرب مادة (قعد) (٣/ ٣٥٧)، والكشاف (٣/ ٥٦٣) .

(٢) شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، لسعد التفتازاني (١/ ٢٠) .

وعرفها الجرجاني رحمه الله بقوله: " قضية كلية منطبقة على جميع جزئياتها "(١).

وقال تاج الدين السبكي رحمه الله: " القاعدة: الأمر الكلي الذي ينطبق عليه جزئيات كثيرة يفهم أحكامها منه "(٢).

فالقاعدة على الراجح، هي: أمر كلي ينطبق على غالب جزئياته، كقول النحاة: " الفاعل مرفوع "، وقول الأصوليين: " الأمر للوجوب "، والذى يظهر أن القاعدة أكثرية لا كلية .

ثالثًا: الضابط لغةً واصطلاحًا:

أ/ الضابط لغةً:

من الضبط، فالضاد والباء والطاء أصل صحيح، يدل على لزوم الشيء وحَبْسِهِ، ضبط عليه، وضبطه يَضْبُطُ، وقال الليث رحمه الله: الضّبط: لزوم شيء لا يفارقه في كل شيء، وضبط الشيء: حفظه بالحزم، والرجل ضابِط، أي: حازم(٣).

ب/ الضابط اصطلاحًا:

هنالك من العلماء من لم يفرق بين مصطلح الضابط والقاعدة، بل استعملوهما اصطلاحين مترادفين، كالحافظ ابن رجب الحنبلي في قواعده، وهنالك من فرق

---

(١) التعريفات للجرجاني (ص : ٢١٩) .

(٢) الأشباه والنظائر (١/ ١١) .

(٣) ينظر: لسان العرب (٧/ ٣٤٠)، والصحاح (٥/ ٢٩٢)، والمحيط في اللغة (٢/ ١٩٤) ومقاييس اللغة (٣/ ٣٠٣) .

بينهما، فجعلوا مجال الضابط أضيق من مجال القاعدة، فهما متفقان في أن كلا منهما حكم كلي تندرج تحته فروع، إلّا أنّ : الضابط يختص ببابٍ واحدٍ فقط . والقاعدة أوسع مجالًا، فهي تتعلق بعدة أبواب .

قال تاج الدين السبكي رحمه الله: " القاعدة: الأمر الكلي الذي ينطبق عليه جزئيات كثيرة يفهم أحكامها منه .. والغالب فيما اختُص ببابٍ، وقُصد به نظم صور متشابهة، أن تسمى ضابطًا "(١) .

وقال ابن نُجيم رحمه الله: " الفرق بين الضابط والقاعدة: أن القاعدة تجمع فروعا من أبواب شتى، والضابط يجمعها من باب واحد "(٢)، وهذا الذي قرره العلماء هو الذي سنسير عليه في بحثنا هذا بإذن الله تعالى .

---

(١) الأشباه والنظائر (١/ ١١) .

(٢) الأشباه والنظائر (١/ ١٨٩)، وهو الذي مشى عليه السيوطي في كتابه الأشباه والنظائر في النحو (١/ ٧)، وينظر: القواعد الفقهية للندوي (ص: ٤٧) .

المطلب الثاني : الفرق بين الأصول والقواعد والضوابط :

أولا : الفرق بين الأصول والقواعد :

هنالك من العلماء من لم يفرق بين الأصول والقواعد كما فعل الشيخ عبد الرحمن السعدي في كتابه القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ، ولكن بعد التدقيق والنظر نجد أن هنالك فروقاً دقيقة تتلخص في الآتي :

١-الأصول سابقة ذهنيا للأحكام ، فهي أدوات للتعامل مع النصوص ، ومن ثم استنباط الأحكام منها ، وأما القواعد فلاحقة للأحكام ؛ فهي عبارة عن جمع للأحكام الجزئية الموجودة تحت كلي واحد يعمها .

٢- الأصول مأخوذة من دلالة الألفاظ ، واللغة ، والعقل ، والاستقراء، والقواعد مأخوذة من الأحكام ، وبعض النصوص .

٣-الأصول لا تستنبط منها أسرار الشرع وحكمه ، بينما تدل القواعد على ذلك .

٤-الأصول لا تدل على الأحكام مباشرة ، بل بواسطة الأدلة الخاصة ، فقولنا : " القرآن الكريم ليس فيه اختلاف تناقض أو تفاوت " ، لا يدل على مسألة بعينها إلا بواسطة الأدلة الخاصة في دفع موهم التعارض ، وأما القواعد فقد تدل على الحكم مباشرة ، فمن شك في صلاته قيل له : "اليقين لا يزول بالشك" .

٥-الأصول عامة ومطردة ، لا استثناء فيها ، والقواعد أغلبية ، تدخلها الاستثناءات .

٦-الأصول متعلقة بالأدلة الإجمالية ، والقواعد متعلقة بأحكام فعل المكلف .

٧-أن النتيجة المستنبطة من تطبيق الأصول هي من فعل المجتهد، بخلاف النتيجة المستفادة من القواعد فقد تكون من المقلد؛ لعدم الاستنباط فيها، وإنما مجرد التنزيل على الفروع[1].

ثانيًا: الفرق بين القواعد والضوابط:

أما الضوابط فهي كالقواعد في الفرق بينها وبين الأصول، إلا أن الضوابط متعلقة بباب واحد، بينما القواعد تنتظم أبواباً مختلفة، فالقواعد أعم وأشمل من الضوابط عند الجمهور؛ لأن الضابط يضبط موضوعًا واحدًا لا يتعداه، فمجال الضابط أضيق من مجال القاعدة.

قال السبكي رحمه الله: " الغالب فيما اختص بباب وقصد به نظم صور متشابهة أن يسمى ضابطًا "[2].

وقال السيوطي رحمه الله: " إن القاعدة تجمع فروعا من أبواب شتى كالأمور بمقاصدها، والضابط يجمع فروعا من باب واحد "[3].

---

(١) الأشباه والنظائر (١/ ١١).

(٢) الأشباه والنظائر في النحو (١/ ٧).

(٣) ينظر الكلام في الفروق: الفروق للقرافي (١/ ٢)، والقواعد للمقري (١/ ١٠٧)، ومقدمة « تخريج الفروع على الأصول للزنجاني » د. محمد مدكور (ص:٣٥)، المفصل في القواعد الفقهية للبا حسين (ص:٤٤ وما بعدها).

المطلب الأول: أصول في التعامل مع هدي القرآن الكريم:

هنالك أصول عامة مطردة، ولا استثناء فيها، وضعها العلماء للتعامل مع القرآن الكريم بصورة صحيحة، في فهمه، والاهتداء بهديه، ينبغي تعلمها قبل النظر في الهدايات القرآنية، وهي لا تدل على الهدايات مباشرة، وإنما هي حاكمة لفهم هدايات الكتاب العزيز، من ذلك:

الأصل الأول: " الأصل العمل بأدلة الكتاب والسنة ، ولا يقال بالنسخ إلا بدليل قاطع " .

شرح الأصل: أدلة الكتاب والسنة الأصل فيهما السلامة من النسخ، والعمل بهما، واستنباط هدايتهما، ولا يقال بالنسخ إلا بدليل شرعي متأخر قاطع، يرجع إليه، والنسخ يقال به عند وجود تعارض بين دليلين، يتعذر الجمع بينهما، مع معرفة تاريخ نزول كل آية؛ لأنه لو أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ، ولا يصح القول بالنسخ لمجرد التعارض؛ لأن النسخ يثبت بدليل قاطع، ولا يثبت بالاحتمال والرأي .

أدلة الأصل: الأصل فيما أنزله الله تعالى البقاء والعمل به، لأن الله أنزل كتابه ليتبع ويهتدى به، فأي شيء يخالف هذا الأصل يحتاج إلى دليل، قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٣]، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[الزمر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأنعام: ١٥٥] .

قال ابن حزم رحمه الله: " لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يقول في شيء من القرآن والسنة: هذا منسوخ، إلا بيقين؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾[النساء:٦٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾[الأعراف : ٣٢]، فكل ما أنزل الله تعالى في القرآن، أو على لسان نبيه، ففرض اتباعه، فمن قال في شيء من ذلك إنه منسوخ، فقد أوجب ألا يطاع ذلك الأمر، وأسقط لزوم اتباعه، وهذه معصية لله تعالى مجردة، وخلاف مكشوف، إلا أن يقوم ببرهان على صحة قوله، وإلا فهو مفتر مبطل .. وكل ما ثبت بيقين فلا يبطل بالظنون، ولا يجوز أن تسقط طاعة أمر أمرنا به الله تعالى ورسوله إلا بيقين نسخ، لا شك فيه، فإذا قد صح ذلك وثبت، فلنقل في الوجوه التي بها يصح نسخ الآية، أو الحديث، فإذا عدم شيء من تلك الوجوه، فقد بطلت دعوى من ادعى النسخ في شيء من الآيات، أو الأحاديث "(١) .

وقال الشاطبي رحمه الله: " الأحكام إذا ثبتت على المكلف؛ فادعاء النسخ فيها لا يكون إلا بأمر محقق؛ لأنّ ثبوتها على المكلف أولًا محقق؛ فرفعها بعد العلم بثبوتها لا يكون إلا بمعلوم محقق "(٢) .

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٤/ ٤٨٤) .

(٢) الموافقات (٣/ ٣٣٩) .

تطبيقات العلماء للأصل: قد قام علماء التفسير بتطبيق هذا الأصل في كتبهم بصورة واسعة، وبينوا أن ما ثبت من حكم في كتاب الله بيقين لا يبطل بظن، وأن الأصل في الدليل أنه محكم يجب العمل به، وأن الله أنزله ليهدي للتي هي أقوم.

قال الطبري رحمه الله وهو يتحدث عن اختلاف العلماء في آية الأنفال من سورة الأنفال، هل هي منسوخة أم محكمة؟ وهو يرجح بهذا الأصل عدم النسخ، فيقول رحمه الله: " وغير جائز أن يحكم بحكم قد نزل به القرآن أنه منسوخ، إلا بحجة يجب التسليم لها، فقد دللنا في غير موضع من كتبنا على أن لا منسوخ إلا ما أبطل حكمه حادثُ حكمٍ بخلافه، ينفيه من كل معانيه، أو يأتي خبرٌ يوجب الحجةَ، أن أحدهما ناسخٌ الآخرَ "[1].

وقال أبو جعفر النحاس رحمه الله وهو يرد على من يقول أن آية سورة البقرة ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾[البقرة: ٢٢١] منسوخة، فقال في أثناء رده على أن الآية محكمة: " القياسات، والتمثيلات، لا يؤخذ بها في الناسخ والمنسوخ، وإنما يؤخذ الناسخ والمنسوخ بالتيقن والتوقيف "[2].

وقال الرازي رحمه الله وهو يتحدث عن أقوال العلماء في عدة المتوفى عنها زوجها حولًا كاملًا، بين من يرى النسخ، ومن يرى أنها محكمة، ورجح عدم

(١) جامع البيان (١٣/ ٣٨٢).

(٢) الناسخ والمنسوخ (ص:٥٩).

النسخ بهذا الأصل، ثم قال: " إن النسخ خلاف الأصل، فوجب المصير إلى عدمه بقدر الإمكان "(١) .

وقال الشنقيطي رحمه الله وهو يؤكد على هذا الأصل في عدة مواضع في كتابه: " إن دعوى النسخ والتخصيص تحتاج إلى دليل يجب الرجوع إليه "(٢) .

وذلك لأن الأصل في الدليل أنه محكم غير منسوخ، وهنالك تطبيقات واسعة للعلماء لهذا الأصل العظيم .

الأصل الثاني: " القرآن الكريم أنزله الله ﷻ ؛ لهداية الخلق، وإرشادهم للتي هي أقوم " .

شرح الأصل: القرآن الكريم من أوله إلى آخره، أنزله الله تعالى لهداية العباد للتي هي أقوم، في كل وقت، فلا طريق للوصول إلى الحق والهدى والرشد بغيره، ومن ظن الهداية بغيره متحققة، فقد ضل ضلالًا مبينًا .

أدلة الأصل: قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩]، وقال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[سبأ:٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾[الجن: ١- ٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ

(١) مفاتيح الغيب (٣/ ٣٩٠) .

(٢) أضواء البيان (٤/ ٢١٩) .

﴿ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾[سبأ: ٥٠] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان: أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن، لا برأيه ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجْده؛ فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدي ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم .. فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدى به؛ ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس، ولا بذوق ووجد ومكاشفة، ولا قال قط قد تعارض في هذا العقل والنقل، فضلًا عن أن يقول: فيجب تقديم العقل "[1] .

وقال السعدي رحمه الله في تقرير هذا الأصل: " ما أعظمَ هذه القاعدةَ، وما أحكم هذا الأصل العظيم، الذي نص الله نصًّا صريحًا على عموم ذلك، وعدم تقيد هذا الهدى بحالة من الأحوال، فكل حالة هي أقوم، في العقائد، والأخلاق، والأعمال، والسياسات، الكبار، والصغار، والصناعات، والأعمال الدينية، والدنيوية، فإن القرآن يهدي إليها، ويرشد إليها، ويأمر بها، ويحث عليها، معنى﴿ أَقْوَمُ ﴾أيْ: أكرم، وأنفس، وأصلح، وأكمل استقامة، وأعظم قيامًا وصلاحًا للأمور .. ثم بعد شرح جميل قال: " وتفصيل هذا الأصل لا يمكن استيفاؤه في هذه القواعد الإجمالية، فكل التفاصيل الواردة في الكتاب والسنة،

---

(١)مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨) .

وما تقتضيه المصالح، تفصيلًا لهذا الأصل المحيط، وبهذا وغيره تبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح، أو معنى نافع، أو طريق صلاح، ينافي القرآن، والله وليُّ الإحسان "(١).

تطبيقات العلماء للأصل:

فكل ما ذكره العلماء من هدايات من خلال كتبهم وأصلوا له يدخل ضمن تطبيقاتهم لهذا الأصل العظيم، بل ما قام علم التفسير إلا لتحقيق ذلك، فهو يهدي للتي هي أقول في التوحيد والعبادات والمعاملات والأخلاق وسائر مناحي الحياة قال الشنقيطي - رحمه الله - وهو يتحدث عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩]: "وهذه الآية الكريمة أجمل الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة، ولكنَّنا إن شاء الله تعالى سنذكر جملًا وافرة في جهات مختلفة كثيرة مِن هدى القرآن للطريق التي هي أقوم بيانًا لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهاً ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفَّار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام، لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة .. ثم ذكر - رحمه الله - تفصيلات قد يطول ذكرها في التوحيد والطلاق وتعدد الزوجات وغيرها "(٢) .

---

(١) القواعد الحسان (ص:٩٧، ٩٨)، عنده كلام نفيس يرجع إليه لمزيد الفائدة .

(٢)أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٣/ ١١١) .

وقال ابن عاشور رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾[البقرة: ٤٠]، " انتقال من موعظة المشركين إلى موعظة الكافرين من أهل الكتاب، وبذلك تتم موعظة الفرق المتقدم ذكرها، لأن فريق المنافقين لا يعدو أن يكونوا من المشركين أو من أهل الكتاب اليهود، ووُجه الخطاب هنا إلى بني إسرائيل وهم أشهر الأمم المتدينة ذات الكتاب الشهير والشريعة الواسعة، وذلك لأن هذا القرآن جاء يهدي للتي هي أقوم فكانت هذه السورة التي هي فسطاطه مشتملة على الغرض الذي جاء لأجله "(١).

الأصل الثالث: " القرآن الكريم جعله الله تعالى تبيانًا لكلِّ شيء " .

شرح الأصل: القرآن الكريم جعل الله فيه كل ما كانت الأمة في حاجة إليه، من معرفة الحق والباطل، والحلال والحرام، والثواب والعقاب، وما يحتاجه الناس إليه، في أمر دينهم ودنياهم، ومعاشهم ومعادهم، " فلم يبق من العلوم النافعة علم إلا بيَّنه لهم، فإن القرآن تبيان لكل شيء، فعلوم الأصول، وعلوم الفروع والأحكام، وعلوم الأخلاق والآداب، وعلوم الكون، وكل ما يحتاجه الخلق من ذلك اليوم، إلى أن تقوم الساعة، ففي القرآن بيانه، والإرشاد إليه، وهو الذي إليه المرجع في جميع الحقائق الشرعية والعقلية، ومحال وممتنع أن يأتي علم

---

(١)التحرير والتنوير (١/ ٤٤٧) .

صحيح، لا محسوس، ولا معقول، ينقض شيئا مما جاء به القرآن؛ فإنه ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾"(١).

أدلة الأصل: قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل:٨٩]، قال الجصاص رحمه الله: " يعني به –والله أعلم– تبيان كل شيء من أمور الدين، بالنص، والدلالة، فما من حادثة، جليلة ولا دقيقة، إلا ولله فيها حكم "(٢) .

وقال السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾: " في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبيين، بألفاظ واضحة، ومعان جلية .. فلما كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء، صار حجة الله على العباد كلهم، فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم، يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة"(٣) .

وقال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾[الأنعام:٣٨]، قال القرطبي رحمه الله: " أي: في اللوح المحفوظ، فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث، وقيل: أي: في القرآن، أي: ما تركنا شيئًا من أمر الدين، إلا وقد دللنا عليه في القرآن؛ إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة، يتلقى بيانها من الرسول ﷺ، أو من الإجماع، أو من

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير الأحكام (٢/ ٢٥) .

(٢) أحكام القرآن (٥/ ١٠) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٤٦) .

القياس الذي ثبت بنص الكتاب، قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾[الحشر: ٧]، فأجمل في هذه الآية وآية (النَّحْلِ) ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره، إما تفصيلًا وإما تأصيلًا؛ وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ "[1]، وقال ابن مسعود ﷺ: " فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع، من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم "[2].

وقال أيضًا: " أنزل في هذا القرآن كل علم، وكلّ شيء قد بين لنا في القرآن، ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ "[3].

تطبيقات العلماء للأصل: قال الشافعي رحمه الله: " فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة، إلا وفي كتاب الله الدليل على سبل الهدى فيها، قال الله ﷻ: ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[إبراهيم: ١]"[4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٤٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٩٤).

(٣) ينظر: جامع البيان (١٧/ ٢٧٩)، والمحرر الوجيز (٣/ ٤١٩).

(٤) أحكام القرآن للشافعي (١/ ٢١).

وقال ابن عاشور رحمه الله: " إن القرآن أنزله الله تعالى كتابًا؛ لصلاح أمر الناس كافة، رحمة لهم؛ لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل:٨٩]، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية، فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد؛ لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد، والحقد، والكبر .

وأما الصلاح الجماعي، فيحصل أولا من الصلاح الفردي ، إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك، وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض، على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات، ومواثبة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية .

وأما الصلاح العمراني، فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات، والأقاليم، بعضهم مع بعض، على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع "[١] .

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٨) .

وقال رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾[المائدة:٣]: " فإكمال الدين هو إكمال البيان المراد لله تعالى.. بحيث صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنّة،كافيًا في هدي الأمّة، في عبادتها، ومعاملتها، وسياستها، في سائر عصورها، بحسب ما تدعو إليه حاجاتها، فقد كان الدين وافيًا في كلّ وقت بما يحتاجه المسلمون "(١) .

وقد تحدث السعدي رحمه الله عن أهمية هذه القاعدة فقال: " ومتى علم العبد أن القرآن فيه تبيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح، مبين لها، حاث عليها، زاجر عن المضار كلها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونزلها على كل واقع وحادث، سابق أو لاحق ، ظهر له عظم مواقعها، وكثرة فوائدها، وثمرتها "(٢) .

الأصل الرابع: " القرآن كله محكم باعتبار، وكله متشابه باعتبار، وبعضه محكم، وبعضه متشابه، باعتبار ثالث "(٣) .

شرح الأصل: القرآن الكريم عند اعتبار معناه لا يخلو من ثلاث حالات:- محكم على الاطلاق، والمراد: أنه متقن ممتنع عن الخلل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، في غاية من الإحكام، ونهاية في الانتظام، أخباره صدق، وأحكامه عدل، وأوامره خير، ونواهيه صلاح، وإصلاح للفرد والجماعة .

(١) المصدر السابق (٦/ ١٠٢) .

(٢) القواعد الحسان (ص: ٣) .

(٣) المصدر السابق (ص: ٣) .

- ومتشابه على الاطلاق، والمراد به: " تماثل الكلام وتناسبه، بحيث يصدق بعضه بعضًا، فإذا أمر بأمر، لم يأمر بنقيضه في موضع آخر؛ بل يأمر به، أو بنظيره، أو بملزوماته، وإذا نهى عن شيء، لم يأمر به في موضع آخر؛ بل ينهى عنه، أو عن نظيره ، أو عن ملزوماته، إذا لم يكن هناك نسخ "[(١)] .

فالتشابه هنا: هو تماثل الكلام وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضا - ومحكم من وجه ومتشابه من وجه، والمراد به: " مشابهة الشيء لغيره من وجه، مع مخالفته له من وجه آخر؛ بحيث يشتبه على بعض الناس أنه هو أو هو مثله، وليس كذلك . والإحكام هو الفاصل بينهما بحيث لا يشتبه أحدهما بالآخر "[(٢)] .

المحكم والمتشابه في معناهما العام: لا ينافي ولا يناقض أحدهما الآخر؛ بل تشترك فيهما جميعًا آيات القرآن، فالقرآن كله محكم، بمعنى: متقن لا يتطرق إليه خلل، تتفق معانيه، وإن اختلفت ألفاظه، ومتشابه يصدق بعضه بعضًا، دون اختلاف، أو تضاد، ويشبه بعضه بعضا بلاغة وحسنًا، حتى لا يستطيع الإنسان أن يفاضل بين حروفه وكلماته، فهما معنيان متفقان على القرآن حكمًا ووصفًا .

والمحكم والمتشابه في معناهما الخاص: فالمراد بالآيات المحكمات أنها واضحة الدلالة على مراد الله، ليس فيها اشتباه أو إشكال، ولا تقبل تأويلًا أو احتمالًا، والآيات المشتبهات: هي التي لا يتضح معناها مباشرة، ويشبه لفظه غيره، وتشتبه معانيه أحيانًا مع آيات أخرى ، فهي مأخوذة من المعنى العام للتشابه،

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٦١ ٣) .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/ ٦٢) .

وهو مشابهة الشيء لغيره من وجه، مع مخالفته له من وجه آخر، فالآيات المتشابهات هي التي تشبه هذا وتشبه هذا، فتكون محتملة معنيين أو أكثر، خلافًا للآيات المحكمات.

أدلة الأصل: جاءت أدلة تصف القرآن كله بالإحكام، وأدلة أخرى تصفه بالتشابه، وأدلة أخرى جعلت بعضه محكمًا وبعضه متشابهًا، " فقد وصفه الله تعالى بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاثة، فوصفه بأنه محكم في عدة آيات، قال تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود: ١]، ومعنى ذلك أنه في غاية الإحكام، ونهاية الانتظام، فأخباره كلها حق وصدق، لا تناقض فيها ولا اختلاف، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾[النساء:٨٢]، وأوامره كلها خير، وبركة، وصلاح، ونواهيه متعلقة بالشرور والأضرار، والأخلاق الرذيلة، والأعمال السيئة، فهذا إحكامه.

ووصفه بأنه متشابه في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر:٢٣] أي: متشابها في الحسن والصدق والحق، ووروده بالمعاني النافعة المزكية للعقول، المطهرة للقلوب، المُصلحة للأحوال، فألفاظه أحسن الألفاظ ومعانيه أحسن المعاني.

ووصفه بأن بعضه محكم، وبعضه متشابه، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ ﴾[آل عمران:٧]، فهنا

وصفه بأن بعضه هكذا، وبعضه هكذا، وأن أهل العلم بالكتاب يردون المتشابه منه إلى المحكم، فيصير كله محكمًا "(١).

ومن هنا كان لابد من استصحاب هذا الأصل عند النظر في هدايات القرآن حتى لا يضل العبد من خلال عدم رد المتشابه إلى المحكم.

تطبيقات العلماء للأصل: وقد تكلم العلماء كثيراً في الآيات التي تمسك بها بعض الفرق المنحرفة، من جبرية، وقدرية، ومعتزلة، وردوها على المحكم، وبينوا كيف يتعامل الدارس مع الآيات المتشابهات، بل بينوا الحكمة من إنزالها، وكيف كان السلف يتعاملون معها.

قال ابن كثير رحمه الله في بيان منهج العلماء في التعامل مع المتشابهات: "ردوا تأويل المتشابهات، على ما عرفوا من تأويل المحكمة، التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه بعضًا، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر "(٢).

وتعامل العلماء مع الآيات المتشابهة حتى في الأحكام بهذه المنهجية، قال ابن العربي رحمه الله في قوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، " فقد اختلف السلف فيه، فقال علي، وجبير بن مطعم، وابن المسيب، وقتادة: هو الزوج.. وقال مالك: هو الأب في حق البكر، وهو رواية عن ابن عباس، ولا شك بأن قوله: ﴿ بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ ﴾ محتمل

---

(١) القواعد الحسان (ص: ٣٩) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠) .

للوجهين اللذين تأولها السلف عليهما، فينظر في أقرب الوجهين إلى معاني الشرع والأصول المحكمة، التي ترد المتشابهات إليها .. "[١] .

وقال السمرقندي رحمه الله وهو يتحدث في قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[النساء: ٦] قال: " هو قرض، ثم يرد عليه إذا كبر، فقال: ألا ترى أنه قال في سياق الآية: ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾.. وأمّا من قال: إنه لا يجوز أكله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[النساء: ١٠] وتلك الآية محكمة، وهذه من المتشابهة؛ لأنه يحتمل التأويل أنهم يأكلون على وجه القرض أو على وجه الإباحة فيرد حكم المتشابه إلى المحكم "[٢]، وغيرها من تطبيقات كثيرة .

---

(١) أحكام القرآن (١/ ١٢٦) .

(٢) تفسير السمرقندي (١/ ٣٩٥) .

الأصل الخامس: " القرآن الكريم ليس فيه اختلاف تناقض أو تفاوت " .

شرح الأصل: القرآن الكريم ليس فيه اختلاف يؤدي إلى التناقض والاضطراب، في أحكامه، وأخباره، أو اختلاف تفاوت من جهة البلاغة وعدمها "، إذ لابد للكلام إذا طال من مرذول، وليس في القرآن إلا بليغ"[(١)] .

فهو متآلف الألفاظ، متسق المعاني، محكم البيان، " يصدق بعضه بعضًا، فإذا أمر بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر؛ بل يأمر به أو بنظيره، أو بملزوماته، وإذا نهى عن شيء لم يأمر به في موضع آخر؛ بل ينهى عنه أو عن نظيره أو عن ملزوماته إذا لم يكن هناك نسخ، وكذلك إذا أخبر بثبوت شيء لم يخبر بنقيض ذلك؛ بل يخبر بثبوته أو بثبوت ملزوماته، وإذا أخبر بنفي شيء لم يثبته، بل ينفيه ، أو ينفي لوازمه، بخلاف القول المختلف الذي ينقض بعضه بعضًا، فيثبت الشيء تارة، وينفيه أخرى، أو يأمر به، وينهي عنه في وقت واحد، ويفرق بين المتماثلين، فيمدح أحدهما، ويذم الآخر، فالأقوال المختلفة هنا هي المتضادة، والمتشابهة هي المتوافقة "[(٢)] .

أدلة الأصل: قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء:٨٢] .

قال البيضاوي رحمه الله: " أي: ولو كان من كلام البشر كما تزعم الكفار؛ لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، من تناقض المعنى، وتفاوت النظم، وكان بعضه

---

(١) زاد المسير (٢/ ١٤٥) .

(٢)مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/ ٦١) .

فصيحًا، وبعضه ركيكًا، وبعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل، ومطابقة بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض، وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض، على ما دل عليه الاستقراء لنقصان القوة البشرية "[١].

وقال البقاعي رحمه الله: "﴿ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ أي: في المعنى، بالتناقض والتخلف عن الصدق، في الإخبار بالمغيبات، أو بعضها، وفي النظم بالتفاوت في الإعجاز "[٢].

ومن هنا إذا وجد الإنسان ما ظاهره التعارض والاختلاف فليعتقد يقينًا خلاف ذلك، ثم يبحث عن وجه التوفيق، قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله: " وإن عَرَضَت لأحدٍ شبهةٌ، وظن اختلافًا في شيء من القرآن، فالواجب أن يَتَّهِمَ نظره، ويسأل من هو أعلم منه "[٣].

قال ابن زيد رحمه الله: " إن القرآنّ لا يكذّب بعضه بعضًا، ولا ينقض بعضه بعضًا، ما جهل الناس من أمرٍ، فإنما هو من تقصير عقولهم وجهالتهم! وقرأ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾، قال: فحقٌّ على المؤمن أن يقول: " كل من عند الله "، ويؤمن بالمتشابه، ولا يضرب بعضه ببعض، وإذا

(١) أنوار التنزيل (١/ ٤٨٩) .

(٢) نظم الدرر (٢/ ٢٨٧) .

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٩٩) .

جهل أمرًا ولم يعرف أن يقول: " الذي قال الله حق "، ويعرف أن الله تعالى لم يقل قولا وينقضه "[١].

تطبيقات العلماء للأصل: قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله: " وما ذهب إليه بعض الزنادقة المعاندين، من أنّ فيه أحكامًا مختلفة، وألفاظًا غير مؤتلفة، فقد أبطل مقالتهم علماء الإسلام، وما جاء في القرآن من اختلاف، في تفسير، وتأويل، وقراءة، وناسخ، ومنسوخ، ومحكم، ومتشابه، وعام، وخاص، ومطلق، ومقيد، فليس هو المقصود في الآية، بل هذه من علوم القرآن، الدالة على اتساع معانيه، وإحكام مبانيه "[٢].

ولهذا قال السعدي رحمه الله: " الآيات القرآنية التي يفهم منها قصَّار النظر التعارض: يجب حمل كل نوع منها على ما يليق، ويناسب المقام، كل بحسبه، وهذا في مواضع متعددة من القرآن: منها: الإخبار في بعض الآيات أن الكفار لا ينطقون، ولا يتكلمون يوم القيامة، وفي بعضها: أنهم ينطقون، ويحاجُّون، ويعتذرون، ويعترفون: فمحمل كلامهم ونطقهم: أنهم في أول الأمر يتكلمون ويعتذرون، وقد ينكرون ما هم عليه من الكفر، ويقسمون على ذلك، ثم إذا ختم على ألسنتهم وأفواههم، وشهدت عليهم جوارحُهم بما كانوا يكسبون، ورأوا أن الكذب غير مفيد لهم، أُخْرِسوا، فلم ينطقوا، وكذلك الإخبار بأن الله تعالى لا يكلمهم، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، مع أنه أثبت الكلام لهم معه، فالنفي واقع

(١) جامع البيان (٨/ ٥٦٧).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٢٤٨).

على الكلام الذي يسرهم، ويجعل لهم نوع اعتبار.. ومن ذلك: الشفاعة فإنه أثبتها في عدة مواضع، ونفاها في مواضع من القرآن، وقيدها في بعض المواضع بإذنه، ولمن ارتضى من خلقه، فتعين حمل المطلق على المقيد، وأنها حيث نفيت، فهي الشفاعة بغير إذنه، ولغير من رضي الله قوله وعمله، وحيث أثبتت، فهي الشفاعة التي بإذنه لمن رضيه الله وأذن فيه.. ومن ذلك:

النهي في كثير من الآيات عن موالاة الكافرين، وعن مُوادَّتهم، والاتصال بهم، وفي بعضها الأمر بالإحسان، إلى من له حق على الإنسان منهم، ومصاحبته بالمعروف، كالوالدين والجار ونحوهم، فهذه الآيات العامات من الطرفين قد وضحها الله غاية التوضيح في قوله: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[الممتحنة: ٨، ٩]، فالنهي واقع على التولي والمحبة لأجل الدين، والأمر بالإحسان والبر واقع على الإحسان؛ لأجل القرابة، أو لأجل الجيرة، أو الإنسانية، على وجه لا يُخل بدين الإنسان .. "[1].

(١) القواعد الحسان (ص: ٢٠-٢٣)، هنالك كلام قيم يرجع إليه .

الأصل السادس : " القرآن الكريم معانيه تجري مع الزمان والمكان والأحوال لا تتغير، وإنما التغير يكون فقط في أحكامه، الراجعة للعرف والعوائد "[(١)] .

شرح الأصل: الأصل في معاني القرآن وهدايته أنها تكون واحدة لا تتغير بتغير الزمان، والمكان، والحال، فما فهم الأوائل في العقيدة، والأخلاق، والعبادات، من صلاة وزكاة وصيام وحج ، وغيرها، من الشرائع الراتبة، **يجب** أن يفهمه، ويكون عليه الأواخر، فالمعروف في كل زمان واحد، والمنكر كذلك واحد لا يتغير، والواجب على الآخِرين نظير الواجب على الأولين من هذه الأمة، ولكن هنالك أحكام يردهم الله تعالى فيها إلى العرف، والعادة، والمصلحة، المتعينة في الوقت الذي يعيشونه، فهذه هي التي تختلف باختلاف الأمكنة، والأزمنة، والأحوال .

أدلة الأصل: قول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[التوبة: ١٠٠]، أي: والذين اتبعوهم على ما كانوا عليه علمًا وعملًا، وقال تعالى: ﴿ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] .

---

(١) ينظر: القواعد الحسان (ص:٥٩)، وهو نص عليها بقوله: " القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد " .

تطبيقات العلماء للأصل: قال تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[النساء:٣٦]، فكل ما كان فيه توقير وإكرام للذات، في كل زمان، من الأقوال الكريمة، والأفعال الحميدة يشمله الأمر بالإحسان .

قال السعدي رحمه الله: " أمر بالإحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال، ولم يعين لعباده نوعًا خاصًّا من الإحسان والبر؛ ليعم كل ما تجدد من الأوصاف، والأحوال، فقد يكون الإحسان إليهم في وقت، غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حق شخص، دون حق الشخص الآخر، فالواجب الذي أوجبه الله: النظر في الإحسان المعروف في وقتك ومكانك، في حق والديك، ومثل ذلك: ما أمر به من الإحسان إلى الأقارب، والجيران، والأصحاب، ونحوهم، فإن ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده، إلى ما يتعارفه الناس إحسانًا، وكذلك ضده من العقوق والإساءة، ينظر فيه إلى العرف، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[النساء:١٩]، وكقوله تعالى: ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وكقوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[البقرة: ٢٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[النساء:٢٥]، وكقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[البقرة: ٢٣٣]، فرد الله الزوجين في عشرتها، وأداء حق كل منهما على الآخر، على المعروف المتعارف عند الناس، في بلدهم،

وحالهم، وعرفهم؛ وذلك يختلف اختلافًا عظيمًا، لا يمكن إحصاؤه عدًّا، فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة، وهذا من آيات القرآن، وبراهين صدقه .

وقال تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[الأعراف:٣١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ ﴾[الأعراف: ٢٦]، فقد أباح لعباده الأكل والشرب واللباس، ولم يعين شيئًا من الطعام والشراب واللباس، وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال، فيتعلق بها أمره حيث كانت، ولا ينظر إلى ما كان موجودًا منها وقت نزول القرآن فقط .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[الأنفال:٦٠]، ومن المعلوم: أن السلاح والقوة الموجودة وقت نزول القرآن، غير نوع القوة التي وجدت بعد ذلك، فهذا النص يتناول كل ما يستطاع من القوة، في كل وقت، وبما يناسبه ويليق به .

قال ابن عاشور رحمه الله في مفهوم القوة: " فاتّخاذ السيوف، والرماح، والأقواس، والنبال، من القوة في جيوش العصور الماضية، واتّخاذ الدبابات، والمدافع، والطيارات، والصواريخ، من القوّة في جيوش عصرنا "(١).

وقال السعدي رحمه الله: " ﴿ مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية، وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة، والآلات، من المدافع، والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٣٩٥) .

والبحرية، والحصون ، والقلاع ، والخنادق، وآلات الدفاع .. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته، فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابًا منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأمورًا بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة، وجب ذلك، لأن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب "[1].

وكذلك لما قال تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾[النساء:٢٩]، لم يعين لنا نوعًا من التجارة ولا جنسًا، ولم يحدد لنا ألفاظًا يحصل بها الرضى، وهذا يدل على أن الله أباح كل ما عد تجارة، ما لم ينه عنه الشارع، وأن ما حصل به الرضى، من الأقوال، والأفعال، انعقدت به التجارة، فما حقق الرضى من قول أو فعل، انعقدت به المعاوضات، والتبرعات، وفي القرآن من هذا النوع شيء كثير[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص:٣٢٤) .

(٢) ينظر: القواعد الحسان في تفسير القرآن (ص:٤١) بتصرف .

الأصل السابع: " الأوامر الربانية في القرآن الكريم، إما لمكلف لم يقم بها، فعليه القيام، وإما لقائم بها، فعليه تحقيق الكمال والثبات "(١) .

شرح الأصل: من الأصول المطردة في جميع الأوامر القرآنية: أن ما أمر الله به في كتابه من فعل أو كف، إما أن يوجه الخطاب فيها إلى من لم يقم بها، فهذا أمر له بالقيام بها، وإما أن يوجه لمن هو قائم بها، فهذا أمر له بتصحيح ما وجد منه، مع طلب الزيادة، والكمال، والدوام .

دليل الأصل لمن لم يقم بالأوامر الربانية: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴾[النساء:٤٧]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾[النساء: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ [الأحزاب: ٥٣] .

ودليل الأصل للقائم بها ومطالب بالكمال والدوام: قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[النساء: ١٣٦]، " فإنه

(١) ينظر: المصدر السابق (ص:١٠٣) بتصرف .

أمرهم بما يصحح، ويكمل إيمانهم، من الأعمال الظاهرة، والباطنة، وكمال الإخلاص فيها، ونهاهم عما يفسدها وينقصها "[1].

وكقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر: ١٠] .

وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويصوموا رمضان أمر بتكميل ذلك، والقيام بكل شرط ومكمل لذلك العمل، والنهي عن كل مفسد وناقض لذلك العمل .

وكذلك أمره لهم بالتوكل، والإنابة، ونحوها من أعمال القلوب، هو أمرٌ بتحقيق ذلك، وإيجاد ما لم يوجد منه .

تطبيقات العلماء للأصل: هذا الأصل نجده واضحًا في كلام العلماء في الخطاب الموجه للمؤمنين، ولغير المؤمنين، بل حتى في الخطاب الموجه للنبي ﷺ، وكما نجدهم استصحبوا هذا الأصل حتى في الآيات التي جاء الخطاب فيها عامًا للناس جميعًا، وبينوا أنه يصلح أن يكون لمن هو قائم؛ ليستمر ويزيد، ومن ليس قائمًا؛ ليدخل في سلك القائمين، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ٢١] .

قال البيضاوي رحمه الله: " فالناس يعم الموجودين وقت النزول لفظًا، ومن سيوجد، لما تواتر من دينه ﷺ أن مقتضى خطابه، وأحكامه، شامل للقبيلين، ثابت إلى قيام الساعة، إلا ما خصّه الدليل، وما روي عن علقمة والحسن أن كل شيء

(١) المصدر السابق (ص:٧٨) .

نزل فيه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ فمكي، و﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فمدني، إن صح رفعه، فلا يوجب تخصيصه بالكفار، ولا أمرهم بالعبادة، فإن المأمور به، هو القدر المشترك، بين بدء العبادة، والزيادة فيها، والمواظبة عليها، فالمطلوب من الكفار هو الشروع فيها، بعد الإتيان بما يجب تقديمه من المعرفة، والإقرار بالصانع، فإن من لوازم وجوب الشيء وجوب ما لا يتم إلا به، وكما أن الحدث لا يمنع وجوب الصلاة، فالكفر لا يمنع وجوب العبادة؛ بل يجب رفعه والاشتغال بها عقيبه، ومن المؤمنين ازديادهم وثباتهم عليها "[1] .

الأصل الثامن: " الأصل في خطاب القرآن الكريم العموم " .

شرح الأصل: الأصل في خطاب القرآن أنه لعموم الناس؛ ولذا يجب حمل نصوص الكتاب والسنة على العموم، ولا يقال بالتخصيص إلا بدليل، وإذا جاء النص عامًّا، والسبب خاصًّا، فالعبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب، والاعتبار دائما بعموم المعنى، لا بخصوص المخاطب .

أدلة الأصل: قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾[الفرقان:١]، وقال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾[الأنعام:١٩]، فالوحي جاء لعموم الناس، فلا يثبت التخصيص إلا بدليل، ولا يصح التخصيص بالاحتمال، حتى ما كان خطابًا للنبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب: ٢١] .

---

(١) أنوار التنزيل (١/ ٢١٨) .

قال ابن العربي رحمه الله: " إن كلام الله تعالى إذا ورد، هل يحمل على العموم المطلق أو الغالب من المتناول فيه؟ والصحيح حمله: على العموم المطلق "(١).

وقال ابن القيم رحمه الله: " الأصل مشارَكَةُ أُمَّتِه له في الأحكام، إلا ما خصَّه الدليلُ "(٢)، وقال ابن حزم رحمه الله: " لا يحل لأحد أن يقول في شيء فعله صلى الله علي وسلّم: إنه خصوص له، إلا بنص "(٣).

وقال السعدي رحمه الله وهو يتحدث عن قاعدة " العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب " التي تتفرع عن هذا الأصل: " هذه القاعدة نافعة جدًا، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير، وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع الغلط، والارتباك الخطير، وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم، فمتى راعيت القاعدة حق الرعاية، وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول، إنما هو على سبيل المثال؛ لتوضيح الألفاظ، وليست معاني الألفاظ، والآيات مقصورةً عليها . فقولهم : نزلت في كذا وكذا، معناه: أن هذا مما يدخل فيها، ومن جملة ما يراد بها، فإن القرآن - كما تقدم - إنما نزل لهداية أول الأمة وآخرها، حيث تكون، وأنى تكون .. وإذا أمر بشيء نظرت إلى معناه، وما يدخل فيه، وما لا يدخل، وعلمت أن ذلك الأمر موجه إلى جميع الأمة، وكذلك في النهي .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٤٧٠) .

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٦٧) .

(٣) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٤٦٩) .

ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، أصلَ كل الخير والفلاح، والجهل بذلك، أصل كل الشر والخسران، فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله والقيام بها "(١).

تطبيقات العلماء لهذا الأصل: قال أبو بكر الجصاص رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[المائدة: ٤]: " فتأول بعضهم قوله ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ على الكلاب خاصة، وتأوله بعضه على الكلاب وغيرها، ومعلوم أن قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ ﴾ شامل للطير والكلاب، ثم قوله: ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ محتمل أن يريد ذكره من الجوارح والكلاب منها، ويكون قوله: ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ بمعنى مؤدبين أو مضرين، ولا يخصص ذلك بالكلاب دون غيرها فوجب حمله على العموم، وأن لا يخصص بالاحتمال، ولا نعلم خلافًا بين فقهاء الأمصار في إباحة صيد الطير وإن قتل وأنه كصيد الكلب " (٢).

وقال الخازن رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴾[الهمزة:١-٤]: " قال محمد بن إسحاق: ما زلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت في أمية بن خلف الجمحي، وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه ويطعن عليه في وجهه، وقيل نزلت في العاص بن وائل السّهمي، وقيل هي عامة في كل

---

(١) القواعد الحسان (ص:٤) .

(٢)أحكام القرآن للجصاص (٣/ ٣١٠) .

شخص هذه صفته كائنًا من كان، وذلك لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ والحكم، ومن قال إنها في أناس معينين قال أن يكون اللّفظ عامًّا لا ينافي أن يكون المراد منه شخصًا معينًا وهو تخصيص العام بقرينة العرف والأولى أن تحمل على العموم في كل من هذه صفته "[١].

وقال الشوكاني رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣]: " اختلف السلف فى تعيين هؤلاء الأخسرين أعمالًا فقيل اليهود والنصارى، وقيل: كفار مكة، وقيل: الخوارج، وقيل: الرهبان أصحاب الصوامع والأولى حمل الآية على العموم لكل من اتصف بتلك الصفات المذكورة "[٢].

الأصل التاسع: " كل كلمة وردت في القرآن فهي لمعنى، وكل ترتيب وجد فهو لحكمة " .

شرح الأصل: القرآن الكريم محكم الكلمات، فكل حرف ولفظة وردت، فهي لمعنى مقصود، وكل تقديم، وتأخير، وترتيب، فهو لحكمة مقصودة .

أدلة الأصل: قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] .

---

(١) تفسير الخازن علاء الدين البغدادي (٧/ ٢٨٩) .

(٢) فتح القدير (٣/ ٣١٦) .

قال القرطبي رحمه الله: " أي: نظمت نظمًا محكمًا لا يلحقها تناقض ولا خلل "[1] .

وقال ابن كثير رحمه الله: " فأحكمت ألفاظه، وفصلت معانيه، أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح، لا يجارى، ولا يدانى "[2] .

فهذا الإحكام في القرآن الكريم جعل لكل حرف ولفظ معنى، ولكل ترتيب أسرارًا وحكمًا، وكلها أخذ بعضها بعناق بعض، ومن هنا قال ابن جرير رحمه الله: " غير جائز أن يكون في كتاب الله حرف لا معنى له "[3] .

تطبيقات العلماء لهذا الأصل: قال الزمخشري رحمه الله: " انظر إلى بلاغة هذا الكلام، وحسن نظمه وترتيبه، ومكانة إضماره، ورصانة تفسيره وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنما أفرغ إفراغًا واحدًا، ولأمر مّا أعجز القوي وأخرس الشقاشق[4]"[5] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢١٧) .

(٣) جامع البيان (٢/ ٤٠٠).

(٤) الشَّقَاشِق: الخُطَبَاءُ الفُصَحاءُ . وأصْلُ الشَّقْشَقَةِ: جَهَارَةُ الصَّوْتِ . ينظر : المحيط في اللغة لابن عباد (١/ ٤٢٧) .

(٥) الكشاف (٣/ ٣٩٢) .

وقال الرازي رحمه الله: " إن كل كلمة وردت في القرآن فهي لمعنى، وكل ترتيب وجد فهو لحكمة، وما ذكر على خلافه لا يكون في درجة ما ورد به القرآن "[(١)] .

وقال أيضًا رحمه الله: " الأصل حمل كل لفظة على فائدة جديدة، وترك العمل به عند التعذر، فيبقى في غير موضع التعذر على الأصل "[(٢)] .

وقال رحمه الله: " الأصل أن يكون لكل حرف من كلام الله تعالى فائدة "[(٣)].

الأصل العاشر: " الأصل حمل القرآن الكريم على ظاهره وعدم تأويله " .

شرح الأصل: الأصل في القرآن الكريم حمل الكلام فيه على ظاهره، ولا يجوز العدول عن ظاهره إلا بدليل يجب الرجوع إليه ، فيصرفه إلى المحتمل المرجوح ، فالدليل قد يكون له معنى في الظاهر دل عليه، وقد يكون له معنى مؤول، يمكن حمله عليه، فالأصل العمل بما دل عليه ظاهر الدليل، ولا يجوز تأويله عن ظاهره إلا بدليل، يدل على صحة ذلك التأويل .

أدلة الأصل: الأصل في الكلام لغة أن يكون دالًّا بظاهره على مراد المتكلم، وهو ما يتبادر إلى الذهن من معان، وقد نص العلماء على هذا الأصل، قال ابن

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ٤٠٩) .

(٢) المصدر السابق (٤/ ٣٧) .

(٣) المصدر السابق (١/ ١٧٧) .

جرير رحمه الله: " وغير جائز ترك الظاهر المفهوم من الكلام إلى باطن لا دلالة على صحته "(١).

وقال الرازي رحمه الله: " أن الأصل المعتبر في علم القرآن، أنه يجب إجراء اللفظ على الحقيقة، إلا إذا قام دليل يمنع منه "(٢).

وقال رحمه الله: " متى أمكن حمل الكلام على ظاهره، فلا حاجة إلى صرفه عنه "(٣).

وقال ابن تيمية رحمه الله: " وأما سؤاله عن إجراء القرآن على ظاهره، فإنه اذا آمن بما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تكييف، فقد اتبع سبيل المؤمنين "(٤).

وقال ابن القيم رحمه الله: " الواجب حمل كلام الله تعالى، ورسوله، وحمل كلام المكلف، على ظاهره الذي هو ظاهره، وهو الذي يقصد من اللفظ عند التخاطب، ولا يتم التفهيم والفهم إلا بذلك، ومدعي غير ذلك، على المتكلم القاصد للبيان والتفهيم، كاذب عليه "(٥).

وقال الشنقيطي رحمه الله: " وقد أجمع جميع المسلمين على أن العمل بالظاهر واجب، حتى يرد دليل شرعي صارف عنه، إلى المحتمل المرجوح، وعلى هذا كل

---

(١) جامع البيان (١/ ١٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٥/ ٣٠٣).

(٣) المصدر السابق (٨/ ٤٣١).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧٩، ٣٨٠).

(٥) إعلام الموقعين (٣/ ١٠٨).

من تكلم في الأصول"[١]، فهم يرون أنه لا يحاد عن الظاهر، ويمنع صرف الكلام عنه إلا بدليل يعتد به .

تطبيقات العلماء لهذا الأصل: قال الثعالبي في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف: ٨]: " قال جمهور الأمة: إن الله أراد ان يبين لعباده، أن الحساب والنظر يوم القيامة، هو في غاية التحرير، ونهاية العدل، بأمر قد عرفوه في الدنيا، وعهدته أفهامهم.. قال الفخر الرازي رحمه الله: والأظهر إثبات موازين في يوم القيامة، لا ميزان واحد؛ لظواهر الآيات، وحمل الموازين على الموزونات، أو على الميزان الواحد، يوجبان العدول عن ظاهر اللفظ؛ وذلك إنما يصار إليه عند تعذر حمل الكلام على ظاهره، ولا مانع هاهنا منه، فوجب إجراء اللفظ على حقيقته "[٢] .

وقال البقاعي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾[هود: ٤٠]، قال في معنى ﴿ ٱلتَّنُّورُ ﴾: " إنه الحقيقي الذي يخبز فيه، وهذا هو الظاهر فلا يعدل عنه إلا بدليل، لأن صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل عبث، كما قاله أهل الأصول "[٣] .

وقال الشنقيطي رحمه الله وهو يتحدث في آية سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٢٦٩) .

(٢) جواهر الحسان (٢/ ٥) .

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣/ ٨٥١) .

عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾[الكهف: ٢٣ – ٢٤]: " التحقيق الذي لا شك فيه، وهو الذي عليه أصحاب رسول الله ﷺ، وعامة المسلمين: أنه لا يجوز العدول عن ظاهر كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، في حال من الأحوال، بوجه من الوجوه، حتى يقوم دليل صحيح شرعي صارف عن الظاهر إلى المحتمل المرجوح ، والقول بأن العمل بظاهر الكتاب والسنة من أصول الكفر، لا يصدر ألبتة عن عالم بكتاب الله وسنة رسوله، وإنما يصدر عمن لا علم له بالكتاب والسنة أصلًا؛ لأنه لجهله بهما يعتقد ظاهرهما كفرًا، والواقع في نفس الأمر، أن ظاهرهما بعيد مما ظنه، أشد من بعد الشمس من اللمس "(١)، وقال: " لا يجوز صرف القرآن عن معناه المتبادر بلا دليل يجب الرجوع إليه "(٢) .

وقد يجوز صرف الكلام عن ظاهره بدليل عقلي أو سمعي، عقلي: كقوله تعالى: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا ﴾[الأحقاف: ٢٥]، وقوله: ﴿ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [النمل:٣]، وأما الأدلة السمعية، وهو ما جاء من أدلة الكتاب والسنة .

قال ابن تيمية رحمه الله: " ويجوز باتفاق المسلمين، أن تفسر إحدى الآيتين بظاهر الأخرى، ويصرف الكلام عن ظاهره إذ لا محذور في ذلك عند أحد من أهل السنة، وإن سمي تأويلًا وصرفاً عن الظاهر، فذلك لدلالة القرآن عليه، ولموافقة السنة والسلف عليه؛ لأنه تفسير للقرآن بالقرآن ليس تفسيرًا له بالرأي،

(١) أضواء البيان (٧/ ٤٣٨) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٦٠) .

والمحذور إنما هو صرف القرآن عن فحواه، بغير دلالة من الله، ورسوله، والسابقين "[1].

فهذه الأصول العشرة، هي أبرز ما ظهرت للباحث من خلال تتبع كلام العلماء في كتب التفسير وغيرها، وقد تكون هنالك أصول أخرى تحتاج إلى دراسة واستقصاء آخر.

المطلب الثاني: قواعد في التعامل مع الهدايات القرآنية:

هنالك قواعد عامة، وضعها العلماء في استخراج الهدايات القرآنية بصورة صحيحة، وهنالك قواعد أخرى تستخدم عند الترجيح والاختيار بين الهدايات التي استخرجها العلماء، وسوف نذكر هنا أهم القواعد التي نص عليها العلماء، وطبقوها في الوصول للهداية، والتي ذكروها في الترجيح والاختيار، إليك الحديث عن كل قسم، من ذلك:

القسم الأول: قواعد في استخراج الهدايات:

القاعدة الأولى: " تؤخذ الهداية من كلِّ قراءة ثابتة عن النبي ﷺ " .

شرح القاعدة: الاختلاف في القراءات الثابتة، قد يكون اختلاف ألفاظ دون المعاني، وقد يكون اختلاف معان، لكنه اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد، وهي بمنزلة آية مستقلة، فهنالك بعض المفسرين والمعربين يردون بعض القراءات الثابتة، وهذا خطأ كبير في التعامل مع هدايات الآيات؛ بل يجب قبولها، وقبول معناها، فكل معنى مستنبط من القراءة الثابتة فهو معنى صحيح يعمل به،

---

(١) مجموع الفتاوى (٦ / ٢١).

فالقراءة الثابتة لا يجوز ردها ولا رد معناها، أو ترجح إحدى القراءتين على الأخرى؛ لأن القراءة الثابتة عن النبي ﷺ قرآن يهتدى به .

أدلة القاعدة: القرآن الكريم بكل أحرفه نزل من عند الله تعالى: كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[السجدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[يونس: ١٥]، وغيرها من أدلة كثيرة في القرآن، وقد روى البخاري ومسلم عن النبي ﷺ قال: " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ "(١) .

وروى البخاري في صحيحه عن ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَال: " أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ ﷺ عَلَى حَرْفٍ، فَرَاجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ فَيَزِيدُنِي، حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ "(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، برقم: (٤٦٠٨)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، برقم: (١٣٥٤) .

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، برقم: (٤٦٠٧) .

وهذا يدل على أن الأحرف كلها من عند الله، كما قال ابن حجر رحمه الله: " إنَّ الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهي، أي: أنَّ كل واحد يغير الكلمة بمرادفها في لغته، بل المراعى في ذلك السماع عن النبي ﷺ "(١) .

قال ابن تيمية رحمه الله: " القراءات التي يتغاير فيها المعنى كلها حق، وكل قراءة منها مع القراءة الأخرى بمنزلة الآية مع الآية، يجب الإيمان بها كلها، واتباع ما تضمنته من المعنى، علمًا وعملًا، لا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى، ظنًّا أن ذلك تعارض، بل كما قال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: " من كفر بحرف منه فقد كفر به كله "(٢) .

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: وتطبيقات العلماء لهذه القاعدة أكثر من أن تحصى، بل جعلوا ذلك موضع اهتمامهم، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " إن القراءتين كالآيتين، فزيادة القراءات لزيادة الآيات؛ لكن إذا كان الخط واحدًا، واللفظ محتملًا، كان ذلك أخصر في الرسم "(٣) .

وقال الشنقيطي رحمه الله: " إن القراءتين إذا ظهر تعارضهما في آية واحدة لهما حكم الآيتين، كما هو معروف عند العلماء "(٤) .

---

(١) فتح الباري (٩/ ٣٥) .

(٢) الفتاوى الكبرى (٤/ ٤١٤) .

(٣) الفتاوى الكبرى (٣/ ١٦٧) .

(٤) أضواء البيان (٦/ ٨).

وقال الماوردي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] " في الآية قراءتان: إحداهما: (ننشرُها) بالراء المهملة، قرأ بذلك ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، ومعناه نحييها، والقراءة الثانية: قرأ بها الباقون (ننشِزُها) بالزاي المعجمة، يعني نرفع بعضها إلى بعض، وأصل النشوز: الارتفاع، ومنه النشز اسم للموضع المرتفع من الأرض، ومنه نشوز المرأة لارتفاعها عن طاعة الزوج، وقيل: إنَّ الله أحيا عينيه، وأعاد بصره، قبل إحياء جسده، فكان يرى اجتماع عظامه واكتساءها لحمًا، ورأى كيف أحيا الله حماره وجمع عظامه "[1].

وقال الرازي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ [البروج: ١٥]: " وفيه قراءتان، إحداهما: الرفع، فيكون ذلك صفة لله سبحانه، وهو اختيار أكثر القراء والمفسرين؛ لأن المجد من صفات التعالي والجلال، وذلك لا يليق إلا بالله سبحانه، والقراءة الثانية: بالخفض، وهي قراءة حمزة والكسائي، فيكون ذلك صفة العرش "[2].

وقال ابن عاشور رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[البقرة:٢٨]: " و(تُرجَعون) بضم التاء وفتح الجيم في قراءة الجمهور، وقرأهُ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم، والقراءة الأولى: على اعتبار أن الله أرجعهم، وإن كانوا

(١) النكت والعيون (١/ ٣٣٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/ ٤٤٥).

كارهين؛ لأنهم أنكروا البعث، والقراءة الثانية: باعتبار وقوع الرجوع منهم بقطع النظر عن الاختيار أو الجبر "[١] .

وقال الشنقيطي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾[الصافات:١٢]: " قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة، غير حمزة والكسائي، (عجبتَ) بالتاء المفتوحة، وهي تاء الخطاب، المخاطب بها النبي ﷺ، وقرأ حمزة والكسائي: (بل عجبتُ) ، بضم التاء، وهي تاء المتكلم، وهو الله ﷻ .

وقال في تفسيرها: " وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك، أن القراءتين المختلفتين يحكم لهما بحكم الآيتين، وبذلك تعلم أنّ هذه الآية الكريمة على قراءة حمزة والكسائي، فيها إثبات العجب لله تعالى، فهي إذًا من آيات الصفات على هذه القراءة "[٢] .

القاعدة الثانية: " ألفاظ القرآن مشتملة على جوامع المعاني " .

شرح القاعدة: ألفاظ القرآن الكريم تدل على معان جامعة، وقواعد كلية، يحتاج شرحها إلى مطولات، يصعب استيفاء ما يدخل فيها من معان، وهي ستظل محل نظر العلماء في كل عصر؛ ليدخلوا تحتها أمثلة، ونماذج يصعب حصرها .

أدلة القاعدة: أدلة هذه القاعدة كثيرة جدًا في القرآن الكريم، من ذلك ما جاء في الأمثلة التالية، والتي منها قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾(البقرة:١٤٨)، وقوله

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٧٧) .

(٢) المصدر السابق (٦/ ٣٠٨) .

تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[البقرة:١٩٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾[البقرة: ١٩٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[آل عمران: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[المائدة:٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[الأنفال:٦٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾[الرعد:٢١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾[النحل:٩٠]، وقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾[فصلت:٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[الحشر: ٧]، وغيرها كثير .

قال ابن القيم رحمه الله وهو يشير لهذه القاعدة: " المعهود أن ألفاظ القرآن كلها أنها تكون دالة على جملة معان "[١] .

وقال السعدي رحمه الله بعد أن ذكر عشرات الأمثلة من القرآن لهذه القاعدة: " فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها، كل كلمة منها قاعدة، وأصل كلي يحتوي على معان كثيرة "[٢].

(١) جلاء الأفهام (١/ ٩٣ – ١٠٠) .

(٢) القواعد الحسان (ص:١١٦) .

وقال في تفسيره: " إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح، معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس "(١).

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: كل ما ذكره العلماء في مثل تلك الآيات يذكرونه من باب التفسير بالنوع والمثال، وليس من باب الحصر للمعنى، وهم يرون أن المعنى أوسع من أن يحدد بشيء معين، مثال ذلك:

ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة: ٢]، قال الزمخشري: "﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ على العفو والإغضاء، ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ على الانتقام والتشفي، ويجوز أن يراد العموم لكل بر وتقوى، وكل إثم وعدوان، فيتناول بعمومه العفو والانتصار "(٢).

وقال الرازي: " فجعل البر ضد الإثم، فدل على أنه اسم عام لجميع ما يؤجر عليه الإنسان، وأصله من الاتساع، ومنه البر الذي هو خلاف البحر لاتساعه "(٣).

وقال ابن كثير رحمه الله: " يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٦١).

(٢) الكشاف (١/ ٦٣٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٣/ ٤٩).

الباطل، والتعاون على المآثم والمحارم "[١] .

وقال السعدي رحمه الله: " تشمل جميع أنواع البر والخير، وتشمل التقوى جميع ما يجب اتقاؤه من أنواع المَخُوفات، والمعاصي، والمحرمات، والإثم: اسم جامع لكل ما يؤثم، ويوقع في المعصية، كما أن العدوان: اسم جامع يدخل فيه جميع أنواع التعدي على الناس في الدماء والأموال والأعراض، والتعدي على مجموع الأمة، وعلى الحكومات والتعدي على حدود الله "[٢] .

وقال السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]: " أي: كل ما تقدرون عليه، من القوة العقلية، والبدنية، وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة، والآلات، من المدافع، والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأْي، والسياسة، التي بها يتقدم المسلمون، ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتَعَلُّم الرَّمْيِ، والشجاعة والتدبير .. ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾، وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته "[٣] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٤) .

(٢) القواعد الحسان (ص:٩)، وينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢١٨) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٢٤) .

ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله: " من عادة السلف أن يفسروها بذكر بعض الانواع، يقع على سبيل التمثيل؛ لحاجة المخاطبين، لا على سبيل الحصر والتحديد"[(١)] .

ولهذا قال ابن عطية رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[البقرة:٣]: " و﴿ يُنفِقُونَ ﴾ معناه هنا: يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة، وما ندبهم إليه من غير ذلك، قال ابن عباس: ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ يؤتون الزكاة احتسابًا لها، وقال غيره: الآية في النفقة في الجهاد، قال الضحاك: هي نفقة كانوا يتقربون بها إلى الله، على قدر يسرهم، قال ابن مسعود وابن عباس أيضًا: هي نفقة الرجل على أهله، قال القاضي أبو محمد: والآية تعم الجميع، وهذه الأقوال تمثيل لا خلاف "[(٢)] .

القاعدة الثالثة: " ينبغي حمل الآية على أوسع المعاني " .

شرح القاعدة: فهذه قاعدة مهمة تعين على فهم القرآن الكريم، ويجمع بها بين ما يذكر في كتب التفسير من أقوال مختلفة، فإذا تعددت المعاني في الآية، وكان المعنى يحتملها، فالأولى حمل هدايات الآية على جميع الأقوال، وعدم قصره على واحد منها .

أدلة القاعدة: قال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾[يونس: ١]، " والمراد أنّه أحكم وأتقنَ في بلاغته "[(٣)] .

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٩٦) .

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٧٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ١٥٦) .

وقال تعالى : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود: ١]، " فهو أفضل من كل كلام يُوجَد في هذه المعاني، ولا يمكن أحد أن يأتي بكلام يساويه فيها، والعرب تقول في البناء الوثيق، والعقد الوثيق الذي لا يمكن حَلُّه: مُحْكَم "(١) .

وقال تعالى: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[لقمان: ٢ – ٣]، قال السعدي رحمه الله: " من إحكامها، أنها جاءت بأجل الألفاظ، وأفصحها، وأبينها، الدالة على أجل المعاني، وأحسنها، ومن إحكامها، أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، والتحريف، ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها، نبي من الأنبياء.. "(٢) .

فالقرآن الكريم كتاب أحكمت آياته، بطريقة تجد في اللفظة الواحدة، أو الجملة الواحدة، احتمالًا لعدة معان، كلها صحيحة، فالأولى الأخذ بها، وعدم رد بعضها، وهذا ما سار عليه العلماء الربانيين من هذه الأمة .

قال الطبري رحمه الله: " والكلمة إذا احتملت وجوهًا، لم يكن لأحد صرفُ معناها إلى بعضٍ وجوهها دون بعضٍ، إلا بحجة يجب التسليم لها"(٣) .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب (٥/ ٣٠) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٤٦) .

(٣) جامع البيان (١/ ٣١٥) .

وقال الشنقيطي رحمه الله: " تقرّر عند العلماء، أن الآية إن كانت تحتمل معاني، كلها صحيحة، تعيَّن حملها على الجميع "(١).

وقال: " أن التفسيرات المتعددة في الآية، إن كان يمكن حمل الآية على جميعها، فهو أولى "(٢).

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قال الجصاص في قوله تعالى: ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾[البقرة: ٢٣٣]: " فإنه عائد على المضارة، نهى الرجل أن يضارها بولدها، ونهى المرأة أيضا أن تضاره بولده، والمضارة من جهتها قد تكون في النفقة وغيرها، فأما في النفقة بأن تشتط عليه، وتطلب فوق حقها، وفي غير النفقة أن تمنعه من رؤيته، والإلمام به، ويحتمل أن تغترب به، وتخرجه عن بلده، فتكون مضارة له بولده، ويحتمل أن تريد أن لا يطيعه، وتمتنع من تركه عنده، فهذه الوجوه كلها محتملة، ينطوي عليها قوله تعالى: ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ حمل الآية عليها "(٣).

وقال الرازي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥]" فيه وجوه أحدها: قال الأصم: أحسنوا في فرائض الله، وثانيها: وأحسنوا في الإنفاق على من تلزمكم مؤنته ونفقته، والمقصود منه: أن يكون ذلك الإنفاق

(١) أضواء البيان (٢/ ٢٥٩).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٥٧).

(٣) أحكام القرآن (٢/ ١٠٨).

وسطًا، فلا تسرفوا، ولا تقتروا، وهذا هو الأقرب؛ لاتصاله بما قبله، ويمكن حمل الآية على جميع الوجوه "[١].

وقال الشوكاني رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]: " أي: لا يقتل بعضكم أيها المسلمون بعضًا، إلا بسبب أثبته الشرع، أو لا تقتلوا أنفسكم، باقتراف المعاصي، أو المراد النهى عن أن يقتل الإنسان نفسه حقيقة، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني "[٢].

وقال في قوله تعالى: ﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:١١٩]: " واختلف العلماء في هذا التغيير ما هو، فقالت طائفة: هو الخصاء، وفقء الأعين، وقطع الآذان، وقال آخرون: إن المراد بهذا التغيير، هو: أن الله سبحانه خلق الشمس، والقمر، والأحجار، والنار، ونحوها من المخلوقات، لما خلقها له فغيره الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة، وبه قال الزجاج، وقيل: المراد بهذا التغيير: تغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور، حملًا شموليًّا، أو بدليًّا "[٣].

وقال القاسمي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾: " أي : دين الله ﷻ، وقيل: خصي الدواب، وقيل: الوشم، وقال السيوطيّ رحمه الله في « الإكليل »: " فيستدل بالآية على تحريم الخصاء، والوشم، وما يجري

---

(١) مفاتيح الغيب (٣/ ١٥٤) .

(٢) فتح القدير (١/ ٤٥٧) .

(٣) المصدر السابق (١/ ٥١٧) .

مجراه: من الوصل في الشعر، والتفلج، وهو تفريق الأسنان، والتنميص، وهو نتف الشعر في الوجه "، قال القاسمي رحمه الله: " ولا يخفى أن عموم الآية يصدق على جميع المعاني، إذ كلها من تغيير خلق الله، فلا مانع من حمل الآية عليها "(١).

وقال ابن عاشور رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ [المائدة: ٥]: " قال كثير من العلماء: أراد الله هنا بالطعام: الذبائح، مع اتّفاقهم على أنّ غيرها من الطعام مباح، ولكن هؤلاء قالوا: إنّ غير الذبائح ليس مرادًا، أي: لأنّه ليس موضع تردّد في إباحة أكله، والأولى حمل الآية على عمومها، فتشمل كلّ طعام قد يظن أنَّه محرّم علينا، إذ تدخله صنعتهم، وهم لا يتَوَقَّوْنَ ما نتوقّى، وتدخله ذكاتهم، وهم لا يشترطون فيها ما نشترطه، ودخل في طعامهم صيدهم على الأرجح "(٢).

القاعدة الرابعة: ينبغي " مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام عند استخراج الهداية وغيرها " .

شرح القاعدة: على المفسر للقرآن أن يراعي عند استخراج الهدايات ما دلت عليه ألفاظه مطابقة، وما دخل في ضمنها، كما عليه أن يراعي لوازم تلك المعاني، وما لا تحصل بدونها، وما يقتضيه النص اقتضاء، وما يشترط لها من معنى، وما

---

(١) محاسن التأويل (٢/ ٤٩٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٢٠) .

يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها، وما تستدعيه من المعاني، التي لم يعرج في اللفظ على ذكرها .

وهذه القاعدة: من أجل قواعد التفسير وأنفعها، وتستدعي قوة فكر، وحسن تدبر، وصحة قصد، فإن الذي أنزله للهدى والرحمة هو العالم بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تكن الصدور، وبما تضمنه القرآن من المعاني، وما يتبعها وما يتقدمها، وتتوقف هي عليه، ولهذا أجمع العلماء على الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب، والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني، فإذا فهمتها فهمًا جيدًا، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها، وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها، وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه، حتى تصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة، فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف على الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق، ذلك كله حق ولابد، فمن وفق لهذه الطريقة، وأعطاه الله توفيقًا ونورًا، انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجليلة، والأخلاق السامية، والآداب الكريمة العالية (١) .

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قال ابن عاشور رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦]: " ولما كان طلب الزيادة يستلزم طلب

(١) يراجع: القواعد الحسان ، (ص: ١٧-٢٠) .

دوام ما حصل إذ لا تكاد تنفع الزيادة إذا انتقض الأصل كان استعمالها حينئذٍ في لازم المعنى مع المعنى فهو كناية "(١).

وقال السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾[النساء: ٥٨]: " فإذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها: استدللت بذلك على وجوب حفظ الأمانات، وعدم إضاعتها، والتفريط والتعدي فيها، وأنه لا يتم الأداء لأهلها إلا بذلك، وإذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل، استدللت بذلك على أن كل حاكم بين الناس، في الأمور الكبار والصغار، لابد أن يكون عالمًا بما يحكم به: فإن كان حاكمًا عامًا، فلابد أن يحصل من العلم ما يؤهله إلى ذلك، وإن كان حاكمًا ببعض الأمور الجزئية، كالشقاق بين الزوجين، حيث أمر الله أن نبعث حكمًا من أهله، وحكمًا من أهلها، فلابد أن يكون عارفًا بهذه الأمور التي يريد أن يحكم فيها، ويعرف الطريق التي توصله إلى الصواب منها، وبهذا بعينه نستدل على وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد، فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة، ونهانا عن أمور كثيرة، ومن المعلوم أن امتثال أمره، واجتناب نهيه، يتوقف على معرفة المأمور به، والمنهي عنه، وعلمه، فكيف يتصور أن يمتثل الجاهل الأمرَ الذي لا يعرفه، أو يتجنب النهي الذي لا يعرفه؟

ومن ذلك: أن الله أمر بالصلاح والإصلاح، وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يُصلح عمل المفسدين، فيُسْتدل بذلك على أن كل أمر فيه صلاح للعباد في أمر

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٨٩).

دينهم ودنياهم، وكل أمر يعين على ذلك فإنه داخل في أمر الله وترغيبه، وأن كل فساد وضرر وشر، فإنه داخل في نهيه، والتحذير عنه، وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلى الصلاح والإصلاح، بحسب استطاعة العبد.."[١] .

وقال رحمه الله في تفسيره: " لا يكون المتدبر مقتصرًا على مجرد معنى اللفظ بمفرده ، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ، فإذا فهمه فهمًا صحيحًا على وجهه، نظر بعقله إلى ذلك الأمر، والطرق الموصلة إليه، وما لا يتم إلا به، وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراده، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص، الدال عليه اللفظ "[٢] .

وقريب من هذا قاعدة: " الأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا به"[٣]، وقاعدة: " الإتيان بالملزوم ليدل على اللازم "[٤] .

القاعدة الخامسة: " حذف المتعلق يفيد العموم " .

شرح القاعدة: من القواعد المهمة المساعدة في استخراج الهدايات القرآنية، هذه القاعدة التي تفيد أن الفعل، وما هو في معناه، متى قيد بشيء تقيد به، فإذا أطلقه الله تعالى، وحذف المتعلق، كان القصد من ذلك التعميم، "والتوسع في تقدير المحذوف بكل احتمال مناسب؛ تكثيرًا للمعاني"[٥]، ويكون الحذف هنا

---

(١) ينظر: القواعد الحسان (ص:١٧-٢٠) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٣٢) .

(٣) المصدر السابق (ص: ٥١٧) .

(٤) المصدر السابق (ص:٧٢٠) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٤٠) .

أحسن، وأفيد كثيرًا من التصريح بالمتعلقات، وأجمع للمعاني النافعة، ولهذا قال العلماء: " حذف المُتَعَلْق – المعمول فيه – يفيد تعميم المعنى المناسب "(١) .

أدلة القاعدة: قال الشوكاني في « إرشاد الفحول »: " ذكر علماء البيان أن حذف المتعلق يشعر بالتعميم، نحو زيد: يعطي ويمنع، ونحو قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[يونس: ٢٥]، فينبغي أن يكون ذلك من أقسام العموم، وإن لم يذكره أهل الأصول "(٢) .

وقال السعدي رحمه الله: " وهذه قاعدة مفيدة جدًا، متى اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة "(٣).

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: العلماء راعوا هذه القاعدة في استخراج هدايات ومعان آيات القرآن الكريم، وأكدوا عليها؛ لأن حذف المعمول دائمًا يكون لقصد العموم، وتكثير المعنى، ومثال ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ ﴾[البقرة: ٢٨٢]، قال ابن عاشور رحمه الله: " والذي يظهر أنّ حذف المتعلّق بفعل (دعوا) لإفادة شمول ما يُدعَون لأجله في التعاقد: من تحمّل، عند قصد الإشهاد، ومن أداء، عند الاحتياج إلى البيّنة "(٤).

---

(١) انظر: القواعد الحسان (ص:٤٣) .

(٢) إرشاد الفحول (ص:١٩٨) .

(٣) القواعد الحسان (ص: ٢٥) .

(٤) التحرير والتنوير (٣/ ١١٣) .

وكقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾[آل عمران : ٣٢]، قال الشوكاني رحمه الله: " حذف المتعلق مشعر بالتعميم، أي: في جميع الأوامر والنواهي "[١] .

وكقوله تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾[الأنبياء:١٠٠]، قال البقاعي رحمه الله: " حذف المتعلق تعميماً لكل مسموع "[٢] .

وكقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة :٢٣]، قال السعدي رحمه الله: " قوله: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾حذف المتعلق؛ ليعم الخوف من العدو، والسبع، وفوات ما يتضرر العبد بفوته "[٣] .

وقال في « القواعد الحسان »: " إنه قال في عدة آيات:﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾،﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فيدل ذلك على أن المراد: لعلكم تعقلون عن الله كل ما أرشدكم إليه وكل ما علمكموه، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة، ولعلكم تذكرون، فلا تنسون ولا تغفلون، فتكونون دائمًا متيقظين، مُرْهفي الحواس، تحسون كل ما تمرون به من سنن الله وآياته، فتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية، ولعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه، من الغفلة، والجهل، والتقليد، وكل ما يحاول عدوكم أن يوقعكم فيه، من جميع الذنوب، والمعاصي، ويدخل في ذلك ما كان سياق الكلام فيه، وهو فرد من أفراد هذا

---

(١) فتح القدير (١/ ٣٣٣) .

(٢) نظم الدرر (٥/ ١١٤) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٢٢) .

المعنى العام؛ ولهذا كان قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٣] يفيد كل ما قيل في حكمة الصيام، أي: لعلكم تتقون المحارم عمومًا، ولعلكم تتقون ما حرم الله على الصائمين من المفطرات والممنوعات، ومن كل الأحوال والصفات السيئة والخبيثة، ولعلكم تتصفون بصفة التقوى، وتحصلون على كل ما يقيكم مما تكرهون، وتتخلقون بأخلاقها، وهكذا سائر ما ذكر فيه هذا اللفظ.. وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر أمثلة عليه لطالت، ولكن قد فتح لك الباب، فامش على هذا السبيل المفضي إلى رياض بهيجة من أصناف العلوم "(١) .

القاعدة السادسة: " الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده والعكس " .

شرح القاعدة: إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، إذا كان له ضد واحد، كالأمر بالإيمان نهي عن الكفر، وإن كان له أضداد، كالأمر بالقيام، له أضداد، من القعود، والركوع، والسجود، والاضطجاع، يكون الأمر به نهيًا عن جميع أضداده كلها؛ لأنك إذا فعلت ضده لم تكن ممتثلًا للأمر، وإذا نهى عن شيء كان آمرًا بضده، فإذا قلت لك: لا تقم، فإنك تكون ممتثلًا إذا جلست(٢) .

أدلة القاعدة: هذه القاعدة من القواعد العظيمة التي تعين على فهم هدايات الآيات القرآنية؛ " لأنه لا يمكن فهم الأمر وامتثاله على وجه الكمال إلا بترك

---

(١) القواعد الحسان (ص:٢٧) .

(٢) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١/ ٢٥٦) .

ضده "[١]، " وحجة الجمهور: أن ضد المأمور به إما أن يكون مأمورًا به، أو منهيًا عنه، أو مباحًا، ولا يصح أن يكون مأمورًا به؛ لأنه لا يصح الأمر بالضدين، لاستحالة الجمع بينهما، ولا يصح أن يكون مباحًا، وإلا لجاز له فعل الضد "[٢]، ومن هنا كان حيث أمر بالتوحيد نهى عن الشرك، وحيث أمر بالصلاة نهى عن تركها وإضاعتها، وحيث أمر بالإنفاق نهى عن البخل، وحيث أمر ببر الوالدين نهى عن العقوق، وحيث أمر بصلة الأرحام نهى عن القطيعة، وحيث أمر بالعدل نهى عن الظلم، وحيث أمر بالصدق نهى عن الكذب، وحيث أمر بالأمانة نهى عن الخيانة، وحيث أمر بالصبر نهى عن الجزع، وحيث أمر بالشكر نهى عن كفر النعم، وهكذا في سائر الأوامر والنواهي، وقد ذكر هذه القاعدة السعدي في كتابه القواعد الحسان في القاعدة الثانية والثلاثين[٣].

قال ابن عرفة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾[البقرة: ٢٠٠]: " هذه الآية نص في (أنّ) الأمر بالشيء نهي عن ضده؛ لأنّهم قالوا: سبب نزولها، أنّ قريشا الحمس، كانوا يجتمعون بعد الإفاضة من عرفات، فيفتخرون بأنسابهم، فنزلت الآية ردا عليهم، فكان الأصل أن يقال: فإذا قضيتم مناسككم، لا تفتخروا بآبائكم، لكنه

---

(١) القواعد الحسان (ص: ٨٥) وهو ذكر هذه القاعدة ضمن قواعد أخرى في سياق واحد.

(٢) تعليقات أصولية حديثية على المرشد المعين على الضروري من علوم الدين المشهور بـ ابن عاشر (ص: ٨).

(٣) يراجع كتابه القواعد الحسان (ص:٨٦) له كلام قيم.

لو قيل ذلك؛ لاحتمل أن يسكتوا، ولا يتكلّموا بشيء، ويتحدّثوا في أخبار الأوائل فيما ليس بذكر ولا فخر، فأمرهم الله تعالى بذكره، حتى يتناول النهي عن الاشتغال بجميع أضداده المنافية له"[(١)].

وقال في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦١ - ٦٢]: " أخذوا منها: أن الأمر بالشيء نهي عن ضده، قال: لأنه قال لهم: اعبدوا الله، فأجابوه بأنه نهاهم عن عبادة غيره؛ إنكارًا عليه "[(٢)].

وقال ابن القيم رحمه الله: " إن الأمر بالشيء نهي عن ضده، من طريق اللزوم العقلي لا القصد الطلبي، فإن الأمر إنما مقصوده فعل المأمور، فإذا كان من لوازمه ترك الضد، صار تركه مقصودا لغيره، وهذا هو الصواب في مسألة الأمر بالشيء، هل هو نهي عن ضده أم لا؟ فهو نهي عنه من جهة اللزوم لا من جهة القصد والطلب، وكذلك النهي عن الشيء، مقصود الناهي بالقصد الأول الانتهاء عن المنهي عنه، وكونه مشتغلًا بضده ، جاء من جهة اللزوم العقلي، لكن

---

(١) تفسير ابن عرفة (٢/ ٥٨٧).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٦١).

إنما نهى عما يضاد ما أمر به كما تقدم، فكأن المأمور هو المقصود بالقصد الأول في الموضعين "(١).

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قال البقاعي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق:١]، " أي: في وقت، أو عند استقبال العدة، أي: استقبال طهر يحسب منها، وهو الطهر الذي لم يجامع فيه، إن كانت مدخولًا بها.. وذلك دال على أن العدة بالأطهار، وأن الطلاق في الحيض حرام؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده "(٢).

قال الألوسي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل:٩٠]: "إن الله يأمر بالعدل.. قد قوبل في الآية الأمر بالنهي، وكل من المأمور به، بكل من المنهي عنه، وجمع بين الأمر والنهي، مع أن الأمر بالشيء نهي عن ضده، والنهي عن الشيء أمر بضده؛ لمزيد الاهتمام والاعتناء"(٣).

وقال ابن عاشور رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٩]: " والأمر يشمل النهي عن الضد، فإن النهي عن المنكر أمر بالمعروف، والأمر بالمعروف نهي عن المنكر؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فالاجتزاء بالأمر بالعرف عن النهي عن المنكر من الايجاز، وإنما اقتصر

---

(١) الفوائد (ص:١٣١) .

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢٦٩) .

(٣) روح المعاني (١٤/ ٢١٩) .

على الأمر بالعرف هنا: لأنه الأهم في دعوة المشركين لأنه يدعوهم إلى أصول المعروف واحدًا بعد واحد "(١).

وقال السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[البقرة: ١٤٤]: " ففيها اشتراط استقبال الكعبة، للصلوات كلها، فرضها، ونفلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن، مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده "(٢).

وقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢]: " ونفي الريب عنه، يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين، المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة، أن النفي المقصود به المدح، لابد أن يكون متضمنا لضده، وهو الكمال؛ لأن النفي عدم، والعدم المحض، لا مدح فيه "(٣).

القاعدة السابعة: " إذا جاء سياق الكلام في أوله خاصًّا، وجاء الحكم في آخره عامًّا، دل ذلك على العموم " .

شرح القاعدة: إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة، وأراد الله أن يحكم عليها بأن ذلك الحكم لا يختص بها، بل يشملها ويشمل غيرها، جاء الله بالحكم العام.

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٢٨) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٧١) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص:٤٠) .

أدلة القاعدة: لما ذكر الله المنافقين وذمهم، واستثنى منهم التائبين، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء :١٤٥-١٤٦]، فلما أراد الله أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا، بل قال: ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ؛ ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن، ولئلا يظن اختصاص الحكم بهم[١].

ولما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[النساء:١٥٠- ١٥١]، لم يقل: وأعتدنا لهم، للحكمة التي ذكرناها، ومثله: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام: ٦٣ – ٦٤]، أي: هذه الحالة التي وقع السياق لأجلها ﴿ وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾.

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة : قال ابن عاشور رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء : ١٤٥ -١٤٦]، الخطاب- أي في قوله: ﴿ وَسَوْفَ

---

(١) القواعد الحسان (ص: ١١٠).

﴿يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ - يجوز أن يراد به جميع الأمّة، ويجوز أن يوجّه إلى المنافقين على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ارتفاقًا بهم "[١].

وقال السعدي رحمه الله بعد أن ذكر الآية: " وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: (وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا)، مع أن السياق فيهم، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة - لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب عليه ثوابًا أو عقابًا، وكان ذلك مشتركًا بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم "[٢].

وقال رحمه الله بعد عدة تطبيقات لهذه القاعدة في كتابه « القواعد الحسان »: " وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعه، وأكبر دليل على إحكامه وانتظامه العجيب، ثم قال: وأمثلة هذه القاعدة كثيرة، وذكر ما سبق من الأمثلة في التطبيقات "[٣].

وهنالك قواعد كثيرة نص عليها العلماء ، لا يستغني عنها ناظر في الهدايات القرآنية لا يسع المجال لاستقصائها هنا، منها:

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٤٥) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٢١١) .

(٣) القواعد الحسان (ص: ٧٨) .

قاعدة: " إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى "(١) .

وقاعدة: " الجملة الاسمية تدل على الدوام والثبوت "(٢) .

وقاعدة: " الجملة الفعلية تدل على التجدد والحدوث، وتدل على الاهتمام بشأن الفعل، دون الفاعل "(٣) .

وقاعدة: " التعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء "(٤) .

وقاعدة: " النكرة في سياق النفي، أو النهي، أو الاستفهام، أو الشرط تفيد العموم "(٥) .

وقاعدة: " تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في العموم يدل على زيادته عن غيره "(٦) .

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١/ ١٧١)، وروح المعاني (٢٢/ ٦)، وتفسير الثعالبي (١/ ١٦٧)، وتفسير القرآن للعثيمين (١٢/ ١) .

(٢) ينظر: أنوار التنزيل (١/ ٣٧٤)، وإرشاد العقل السليم (٢/ ٧٠)، وروح المعاني (٧/ ٢٣٣) .

(٣) ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٢)، مفاتيح الغيب (١٤/ ١٢٧)، واللباب (٩/ ١٨٧)، وأضواء البيان (٩/ ٤١) .

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص:٤١٥) .

(٥) ينظر: التحرير والتنوير (٩/ ١٦)، وأضواء البيان (٢/ ٤١٦)، القواعد الحسان (ص:١١) .

(٦) ينظر: أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٢٧٩)، مفاتيح الغيب (٦/ ١٠٨)، تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٨٩)، وصفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني (٣/ ٥٣٧) .

وقاعدة: " وكل فعل مدح الله فاعله، دل ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه "(١) .

وقاعدة: " أن التفسير بعد الإبهام، والتقييد بعد الإطلاق أوقع عند النفس، وأجدر بالقبول "(٢) .

وقاعدة: " النهي عن الشيء يشمل النهي عن مقدماته، وعن وسائله الموصلة إليه "(٣) .

وقاعدة: " نفي الواحد يلزم منه نفي الجنس ألبتة، وبأن نفي الأدنى يلزم منه نفي الأعلى "(٤) .

وغيرها من قواعد أخرى تحتاج إلى جمع واستقصاء .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٧٥) .

(٢) إرشاد العقل السليم (٢/ ١٣٢) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٧)، (ص: ٢٤٣) .

(٤) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٢٧١) .

القسم الثاني: قواعد في التعامل مع الهدايات المستنبطة:

هنالك قواعد وضعها العلماء مقصدهم منها أن يرجح أو يختار بها بين الفوائد والهدايات التي اختلفت فيها أقوال العلماء من ذلك:

القاعدة الأولى: " الهداية التي تؤيدها آية قرآنية أو حديث نبوي مقدم على ما عدم ذلك " .

شرح القاعدة: أي هداية مستنبطة من موضع في القرآن الكريم، ومصرح بها في موضع آخر في القرآن أو السنة، يدل ذلك على قبولها، واعتبارها، وتقدمها .

أدلة القاعدة: " الهدايات التي أيدها القرآن في موضع آخر، أو السنة النبوية أولى من غيرها في الاعتبار؛ لأنّ القرآن مثنى يصدق بعضه بعضًا كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾[الزمر: ٢٣]، والنبي ﷺ هو المكلف ببيان هديه للناس، وهو أعلم بما أنزل عليه، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء:١٠٥]، ولهذا قال العلماء: إذا ثبت الحديث، وكان نصًّا في تفسير الآية، فلا يصار إلى غيره، وقالوا: إذا عرف التفسير من جهة النبي ﷺ، فلا حاجة إلى قول من بعده، وقالوا: لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه، دون النظر في شرحه وبيانه، وهو السنة "[(١)] .

---

(١) الموافقات (٤/ ١٨٣) .

فأي هداية مستنبطة إذا عارضت هداية منصوصًا عليها في الكتاب والسنة فهي باطلة ؛ لأن الوحيين لا يعارض بعضهما بعضًا، وإذا ثبت الحديث وكان في معنى أحد الأقوال فهو مرجح له على ما خالفه؛ لأن " الرسول ﷺ أعلم بما أنزل الله عليه، وليس لأحد مع قوله الذي يصح عنه قول "(١) .

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قال ابن العربي رحمه الله في مسألة المرأة تُزوِّج نفسها في قوله تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾[البقرة: ٢٣٠] قال في رده على من قال: المراد بالنكاح العقد؛ وبين أن المراد بالنكاح هنا هو الوطء ثم قال: " فلا يصحّ الاستدلال لكم معنا بهذه الآية، فإن قيل: القرآن اقتضى تَحْرِيمها إلى العقد، والسُّنَّة لم تُبَدِّل لفظ النِّكاح، ولا نقلته عن العقد إلى الوطء، إنَّما زادت شرطًا آخر وهو الوطء، قلنا: إذا احتمل اللَّفظ في القرآن معنيين فأثبتت السُّنَّة أَنَّ المراد أحدهما، فلا يقال: إنَّ القرآن اقتضى أَحدهما، وزادت السُّنَّة الثَّاني؛ إنَّما يُقال: إنَّ السُّنَّة أَثبتت المراد منهما، والعدول عن هذا جهل بالدَّليل، أو مراغمة، وعناد في التَّأويل "(٢) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث، إذا عرف تفسيرها، وما أريد بها من جهة النبي ﷺ، لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم؛ ولهذا قال الفقهاء: (الأسماء ثلاثة أنواع): نوع يعرف حَدّه بالشرع، كالصلاة والزكاة،

---

(١) جامع البيان (١٨/٢٢) .

(٢) أحكام القرآن (١/ ٣٩٣) .

ونوع يعرف حده باللغة، كالشمس والقمر، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض، ولفظ المعروف في قوله: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[النساء: ١٩]، وكان من أعظم ما أنعم اللهّ به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان: أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن، لا برأيه ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجْده؛ فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات، والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم "(١) .

وقال الشنقيطي رحمه الله بعد ما ذكر ما قيل في معنى السبع المثاني، بين من قال: هي السبع الطوال، ومن قال: إنها الفاتحة، ورجح بالحديث الصحيح أنها السبع المثاني، ثم قال: " فهذا نص صحيح من النَّبي ﷺ أن المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم: فاتحة الكتاب، وبه تعلم أن قول من قال: إنها السبع الطوال، غير صحيح، إذ لا كلام لأحد معه ﷺ "(٢) .

القاعدة الثانية: " الهدايات التي نص عليها الصحابة والتابعون أولى من غيرهم " .

شرح القاعدة: أي هداية نص عليها الصحابة رضي الله عنهم، وأئمة التابعين، ونقلت إلينا بسند صحيح، هي معتبرة أكثر ممن جاء بعدهم من أهل القرون .

---

(١) مجموع الفتاوي (٧/ ٢٨٦) .

(٢) أضواء البيان (٢/ ٣١٥) .

أدلة القاعدة: الصحابة هم الذين عاصروا الوحي، وعايشوا التنزيل، ونزل القرآن بلغتهم فهم أعلم الناس بمعاني القرآن الكريم، ورباهم النبي ﷺ وعلمهم معاني القرآن، ومدحهم الله في كتابهم، فأثبت صدقهم وعدلهم، وطهارة نفوسهم، وهم الذين تتلمذ عليهم أئمة التابعين، وكلاهما يمثلون القرون المفضلة، وقد حث الله في كتابه على أتباعهم في العلم والعمل، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧]، وهنالك أدلة كثيرة جاءت تؤكد هذا المعنى .

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: هذه القاعدة التزم به كل من فسر القرآن بما أثر عن الصحابة والتابعين، بل أكدوا عليها بشدة .

قال ابن تيمية رحمه الله: " وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين، كما أن لهم معرفة بأمور السنة، وأحوال الرسول ﷺ، لا يعرفها أكثر المتأخرين، فإنهم شهدوا الرسول والتنزيل، وعاينوا الرسول، وعرفوا من أقواله، وأفعاله،

وأحواله، ما يستدلون به على مراده، ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك "(١) .

وقال رحمه الله أيضًا: " ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها، ويخاطبهم بها النبي، وعادتهم في الكلام، وإلا حرف الكلم عن مواضعه، فإن كثيرا من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعادتهم في الألفاظ، ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله، أو رسوله، أو الصحابة، فيظن أن مراد الله، أو رسوله، أو الصحابة، بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك"(٢) .

وقال رحمه الله: " من المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة، وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف، أن خير قرون هذه الأمة، في الأعمال، والأقوال، والاعتقاد، وغيرها من كل فضيلة، أن خيرها القرن الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة، من علم ، وعمل، وإيمان، وعقل، ودين، وبيان، وعبادة، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل، هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علم، كما قال عبدالله بن مسعود ﷺ: " من كان منكم مستنًّا، فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد، أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٠٠) .

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٤٣) .

اختارهم الله؛ لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم "، وقال غيره: " عليكم بآثار من سلف، فإنهم جاءوا بما يكفي وما يشفي، ولم يحدث بعدهم خير كامن لم يعلموه .. "، وما أحسن ما قال الشافعي رحمه الله في رسالته: " هم فوقنا في كل علم، وعقل، ودين، وفضل، وكل سبب ينال به علم، أو يدرك به هدى، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا "[1] .

القاعدة الثالثة: "القول الذي تؤيده قرائن السياق مرجح على ما خالفه "[2] .

شرح القاعدة: لابد عند استخراج الهداية من مراعاة إدخال الكلام في معنى ما قبله وما بعده، وهو ما يسمى بالسِّباق واللحاق، فلا ينظر في الكلمة، أو الجملة، أو الآية، مستقلة بنفسها؛ بل عليه أن ينظر إليها في المعنى الذي وردت فيه، فإن ذلك معين على تحديد المراد، لا سيما إذا كان للكلمة، أو الجملة، أكثر من معنى، ومن هنا قال العلماء: إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما إلا بدليل يجب التسليم له، هذا ما قصده العلماء بهذه القاعدة التي أكدوا عليها كثيرًا .

أدلة القاعدة: القرآن الكريم محكم البيان، قوي الأركان، ليس فيه تناقض واختلاف، قال تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود : ١]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ١٥٧) .

(٢) قواعد الترجيح للحربي (١/ ٢٧١) ، والكتاب مفيد في بابه .

﴿ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢]، ومن هنا أكد العلماء على أن المعنى المتوافق مع ما قبله وما بعده أولى من غيره؛ وذلك لأن " الأصل في آي القرآن، أن يكون بين الآية ولاحقتها، تناسب في الغرض، أو في الانتقال منه، أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل "[١] .

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: هذه القاعدة من القواعد المهمة في فهم القرآن الكريم، وفي الترجيح بين كلام العلماء في هدايات الآية، وقد اعتمدها عامة المفسرين، وأكدوا عليها .

قال الزركشي رحمه الله وهو يتحدث عن الأمور التي تعين على المعنى عند الإشكال وذكر منها: " دلالة السياق، فإنها ترشد إلى تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظيره، وغالط في مناظراته، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[الدخان:٤٩]، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير"[٢] .

وقد ذكر ابن جزي رحمه الله في مقدمة تفسيره، أن من قواعد الترجيح أن يشهد بصحة القول سياق الكلام، ويدل عليه ما قبله أو ما بعده، وبهذه القاعدة رجح الطبري وغيره من المفسرين بعض الأقوال، وردوا غيرها .

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٩) .

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٠٠) .

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، قال الطبري رحمه الله: " وقد زعم بعض الزاعمين أن قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ يعني به الشياطين، وأن قوله: ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني به الناس،وذلك قول لجميع أهل التأويل مخالف، وذلك أنهم مجمعون على أن قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ ﴾ معني به اليهود، دون الشياطين، ثم هو - مع ذلك - خلاف ما دل عليه التنزيل؛ لأن الآيات قبل قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ ﴾، وبعد قوله: ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾، جاءت من الله بذم اليهود، وتوبيخهم على ضلالهم، وذمًّا لهم على نبذهم وحي الله، وآيات كتابه، وراء ظهورهم، مع علمهم بخطأ فعلهم، فقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ أحد تلك الأخبار عنهم"(١).

وجاء مثله في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾[البقرة:١٢١]، فقد نقل الطبري رحمه الله عن قتادة رحمه الله قوله: هؤلاء أصحاب النبي ﷺ، وروى عن غيره: أنهم علماء بني إسرائيل الذين اتبعوا محمدًا ﷺ، ثم رجح ابن جرير القول الثاني استنادًا على هذه القاعدة، فقال: " وهذا القول أولى بالصواب من القول الذي قاله قتادة؛ لأن الآيات قبلها مضت بإخبار أهل الكتابين، وتبديل من بدل منهم كتاب الله

(١) جامع البيان (٢/ ٤٥٦).

بالأباطيل، ولم يجد لأصحاب محمد ﷺ في الآية التي قبلها ذكر، ولا لهم بعدها ذكر في الآية التي تتلوها "[١] .

القاعدة الرابعة: " القول بالتأسيس أولى من القول بالتأكيد " .

شرح القاعدة: إذا دار كلام العلماء بين التأسيس - الذي هو إفادة معنى جديد لم يكن حاصلًا من قبل -، والتوكيد، واحتملهما، فحمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التوكيد؛ لأن حمله على التأسيس يضيف معنى جديدًا، فهو أولى من إعادة معنى سابق، " ولا يذهب إلى التأكيد إلا عند اتضاح عدم التأسيس "[٢] .

أدلة القاعدة: هذه القاعدة من القواعد المهمة التي أكد عليها، وقررها علماء اللغة، والأصول، والتفسير، ورجحوا بها الكثير من الأقوال .

قال صاحب معجم القواعد العربية: " التأسيس: هو أن كون اللفظ المكرَّر لإفادة معنى آخر لن يكون حاصلا قبله، ويسمَّى التأسيس، ويقولون: التأكيد إعادة، والتأسيس إفادة، والإفادة أَولى، وإذا دار اللفظ بينهما، حسن الحمل على التَّأسيس، كقوله تعالى: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ [الكافرون :٢ - ٥]، فإنْ أُريد بهذا التكرار زيادة التَّقرير فهو توكيد، وإن أُريد بقولِه تعالى: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤

(١) المصدر السابق (٢/ ٥٦٤) .

(٢) البحر المحيط (٣/ ٢٩٣) .

﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ أي: في المستقبل، فهذا معنى زائِد عن مجرَّد التكرار، وهذا هو التأسيس "[1].

وقال الآمدي رحمه الله: " التأسيس أصل، وفائدة التأكيد تبع، فكان حمله على التأسيس أولى "[2].

وقال بدر الدين الزركشي رحمه الله: " إذا دار اللفظ بين حمله على التأسيس أو التأكيد فالتأسيس أولى، لأنه أكثر فائدة "[3].

وقال الشنقيطي رحمه الله: " قد تقرّر في الأصول، أنه إن دار اللفظ بين التأكيد والتأسيس، فحمله على التأسيس أرجح، إلا لدليل "[4].

وقال ابن العربي رحمه الله: " إِذا أمكن حمل اللَّفظ على فائدة مجدَّدة، لم يحمل على التَّكرار في كلام النَّاس، فكيف كلام العليم الحكيم"[5].

وقال ابن عاشور رحمه الله: " إن الكلام إذا دار بين التأسيس والتأكيد فحمله على التأسيس أولى "؛ لأن التأسيس فيه معنى جديد، والتأكيد خلاف الأصل "[6].

---

(١) معجم القواعد العربية (٤/ ٥).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام (ص:٢٤٩).

(٣) البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٤٨٤).

(٤) مذكرة أصول الفقه (ص:١٤٣).

(٥) أحكام القرآن (١/ ٣٣٣).

(٦) التحرير والتنوير (١/ ١٩٦).

وقال الشنقيطي رحمه الله: " إن المقرّر في الأصول: أنَّ النص من كتاب الله، وسنّة رسوله ﷺ، إذا احتمل التأسيس والتأكيد معًا، وجب حمله على التأسيس، ولا يجوز حمله على التأكيد، إلا لدليل يجب الرجوع إليه"(١) .

وقال العثيمين: " والقاعدة: أنه إذا احتمل أن يكون الكلام توكيدًا، أو تأسيسًا، حمل على التأسيس؛ لأنه فيه زيادة معنى "(٢) .

وغيرهم كثير ممن نص على هذه القاعدة .

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قال السمين الحلبي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤]: " يحتمل وجهين، أحدهما: أنها جملةٌ كُرِّرَتْ للتوكيد .. والثاني: أنه ليس بتأكيدٍ، وإليه نحا الزمخشري: فإنه قال: "فإن قُلْتَ: ما معنى تكرارِ ﴿ رَأَيْتُهُمْ ﴾؟ قلت: ليس بتكرارٍ، إنما هو كلامٌ مستأنفٌ، على تقديرِ سؤالٍ وقع جوابًا له، كأنَّ يعقوبَ عليه السلام قال له عند قوله: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ كيف رأيتها؟ سائلًا عن حال رؤيتها، فقال: رأيتهم لي ساجدين "، قلت: وهذا أظهرُ؛ لأنه متى دار الكلامُ بين الحَمْل على التأكيد، أو التأسيس، فَحَمْلُه على الثاني أَوْلَى "(٣) .

وقال الألوسي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران: ٤٢] يحتمل أن يراد بهذا الاصطفاء غير الاصطفاء الأول، وهو ما كان

(١) أضواء البيان (٦/ ٤٧١) .
(٢) تفسير القرآن (٥/ ٣١٧) .
(٣) الدر المصون (ص:٣٤٢٧) .

آخرًا من هبة عيسى عليه السلام لها من غير أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء، وجعلها وإياه آية للعالمين، ويحتمل أن يراد به الأول، وكرر للتأكيد، وتبيين من اصطفاها عليهن .. ولعل الأول أولى، كما قال الإمام؛ لما أن التأسيس خير من التأكيد"(١) .

وقال الشنقيطي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[النور:٤١]، " ﴿ كُلٌّ ﴾ أي: كل من المصلين، قد علم صلاة نفسه، وكل من المسبحين قد علم تسبيح نفسه، وعلى هذا القول فقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾، تأسيس لا تأكيد، أما على القول بأن الضمير راجع إلى ﴿الله﴾، أي: قد علم الله صلاته، يكون قوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ كالتكرار مع ذلك، فيكون من قبيل التوكيد اللفظي، وقد علمت أن المقرر في الأصول أن الحمل على التأسيس، أرجح من الحمل على التوكيد"(٢) .

القاعدة الخامسة: " القول بالتباين أولى من القول بالترادف " .

شرح القاعدة: إذا اختلفت أقوال المفسرين في معنى لفظة قرآنية، بين من يقول بالترادف، ومن يقول بالتباين، فأرجح القولين حملها على التباين؛ لأنه الأصل، فأكثر اللغة على إفادة معنى جديدًا، ولأن اللفظين وإن اشتركا في معنى، فلأحدها ميزة على الأخر؛ ولأن الترادف في القرآن قليل نادر أو معدوم، لأن كل لفظة في القرآن الكريم مقصودة المعنى، ولها أثرها في دلالة المعنى .

---

(١) روح المعاني (٣/ ٣٠) .

(٢) أضواء البيان (٦/ ٣٥) .

أدلة القاعدة: العلماء رحمهم الله وإن اختلفوا في القول بالترادف في اللغة لكنهم لم يختلفوا أن القول بالتباين أولى من القول بالترادف، فهذا ما أكده علماء اللغة والأصول والتفسير، بل واعتمده علماء التفسير في الترجيح والاختيار بين أقوال العلماء .

قال الزركشي رحمه الله: " الترادف خلاف الأصل، فإذا دار اللفظ بين كونه مترادفًا، أو متباينًا، فحمله على المتباين أولى، لأن القصد الإفهام، فمتى حصل بالواحد لم يحتج إلى الأكثر، لئلا يلزم تعريف المعرف، ولأنه يوجب المشقة في حفظ تلك الألفاظ "[(١)] .

وقد رجحوا هذا الأصل: لأنه ثبت بالاستقراء لكلام العرب، أن الشائع الكثير عندهم هو : " لكل معنى لفظًا واحدًا خاصًّا به، فيكون الترادف - وهو: أن يكون للمعنى الواحد أكثر من لفظ واحد - خلاف الأصل .. وهذا في أكثر كلامهم، والكثرة تفيد الظن والرجحان، فيكون المعنى المنفرد بلفظ واحد، أكثر وجودًا من المعنى الذي له لفظان فأكثر - وهو: المترادف- فيكون مرجوحًا؛ نظرًا لقلته، ولأنه لما عرفنا المعنى بأحد اللفظين، وحصل المقصود، فالأصل عدم الثاني؛ لعدم الحاجة إليه، ولأنه يلزم منه تعريف المعرَّف، فيكون تحصيلًا وهو

---

(١) البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٤٧٦) .

باطل، ولأنه ومتى أمكن تكثير فوائد كلام صاحب الشرع، وجعل مدلول لكل دليل، فهو أولى من الترادف والتأكيد "(١) .

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقَلَّ أن يعبر عن لفظ واحد، بلفظ واحد، يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن، فإذا قال القائل: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾[الطور: ٩]: إن المور هو الحركة، كان تقريبًا؛ إذ المور حركة خفيفة سريعة .. والعرب تُضَمِّنُ الفعل معنى الفعل، وتعديه تعديته، ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض، كما يقولون في قوله: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾[ص: ٢٤] أي: مع نعاجه، و ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الصف: ١٤] أي: مع الله، ونحو ذلك، والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين، فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه .. ومن قال: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[البقرة: ٢]: لا شك، فهذا تقريب، وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة "(٢) .

وقال ابن القيم رحمه الله: " الأصل في اللغة هو التباين، وهو أكثر اللغة، والله أعلم "(٣) .

---

(١) ينظر: الجامع لمسائل أصول الفقه (ص:١١٧)، والمحصول في علم أصول الفقه للرازي (٢/ ٢٣٤)، وأنوار البروق في أنواع الفروق (٥/ ٣٥٥) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤١) .

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية (ص: ٥٤) .

وقال الزركشي رحمه الله: " في ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه، وزعت بحسب المقامات، فلا يقوم مرادفها فيما استعمل فيه مقام الآخر، فعلى المفسر مراعاة الاستعمالات، والقطع بعدم الترادف ما أمكن، فان للتركيب معنى غير معنى الإفراد، ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الاخر في التركيب، وإن اتفقوا على جوازه في الإفراد، مثال ذلك: الخوف والخشية، لا يكاد اللغوي يفرق بينهما ، ولا شك أن الخشية أعلى من الخوف ، وهي أشد الخوف .. إن الخشية تكون من عظم المخشي، وإن كان الخاشي قويًّا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا .."[(١)] .

وقال ابن عاشور رحمه الله: " والهدى على التحقيق، هو: الدلالة التي من شأنها الإيصال إلى البُغية، وهذا هو الظاهر في معناه؛ لأن الأصل عدم الترادف، فلا يكون هدى مرادفًا لدل، ولأن المفهوم من الهُدى الدلالة الكاملة، وهذا موافق للمعنى المنقول إليه الهدى في العرف الشرعي "[(٢)] .

القاعدة السادسة: " القول بالترتيب مقدم على القول بالتقديم والتأخير " .

شرح القاعدة: إذا اختلف العلماء في معنى آية من كتاب الله، وكان خلافهم دائرًا بين مدعٍ للتقديم والتأخير في الآية، ومبقٍ لها على ترتيبها، فأولى القولين بالصواب، قول من قال بالترتيب؛ لأنه الأصل في الكلام، وينبغي " لزوم فهم

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٤/ ٥٥) .

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٥) .

الآية وفق ترتيبها "[١]؛ لأن التقديم والتأخير في القرآن الكريم له أسباب محددة، والأصل بقاء الكلام على ترتيبه في النص، فلا يقال بالتقديم والتأخير إلا بقرينة تقرر ذلك .

أدلة القاعدة: الأصل في بيان معاني القرآن مراعاة الترتيب الذي وردت به الكلمات والآيات، ولا ينتقل عن الأصل إلا بدليل واضح، وقرينة بينة، لا سيما إذا استقام المعنى بدونه، فإذا احتمل الأمر، وعُدم الدليل والقرينة، فالقول الحق أن يبقى الكلام على ترتيبه، وذلك لأن القرآن الكريم محكم البيان، قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود: ١]، وقد راعى النبي ﷺ في فهمه وتعامله مع القرآن الترتيب الذي ورد به، كما جاء في صفة حجة النبي ﷺ: " ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ إِلَى الصَّفَا، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الصَّفَا قَرَأَ: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ " أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ "، فَبَدَأَ بِالصَّفَا "[٢] .

قال ابن تيمية رحمه الله: " والتقديم والتأخير على خلاف الأصل، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه، لا تغيير ترتيبه، ثم إنما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة، أما مع اللبس فلا يجوز؛ لأنه يلتبس على المخاطب"[٣] .

---

(١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، الشيخ عبد الرحمن حسن حنبكة (ص:٢٠٧) .

(٢) رواه مسلم، كتاب الحج، باب حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، برقم: (٣٠٠٩) .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/ ٢٥١) .

وقال أبو حيان الأندلسي رحمه الله: " ولا يصار إلى التقديم والتأخير إلا لمعنى يقتضي ذلك، أو بتوقيف، أو فيما لا يمكن فيه إلا ذلك "(١) .

وقال: " لا حاجة إلى ادعاء التقديم والتأخير، والمعنى يصح بخلافه "(٢) .

وقال السمين الحلبي رحمه الله: " إنَّ التقديمَ والتأخيرَ من الضرائرِ عند الجمهور"(٣) .

وقال الألوسي رحمه الله: " التقديم والتأخير لا يذهب إليه إلا عند الضرورة "(٤) .

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله: " وذكر بعض من قال في التفسير: أن هذه الآية: ﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ ﴾ [البقرة: ٢١١]، مؤخرة في التلاوة، مقدمة في المعنى، والخطاب للنبي ﷺ، قال: والتقدير: فإن زللتم، إلى آخر الآية: سل يا محمد بني إسرائيل، كم آتيناهم من آية بينة؟ فما اعتبروا ولا أذعنوا إليها، هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله؟ أي: أنهم لا يؤمنون حتى يأتيهم الله، انتهى . لا حاجة إلى ادّعاء التقديم والتأخير، بل هذه الآية على ترتبها أخذ بعضها بعنق بعض، متلاحمة التركيب، واقعة مواقعها، فالمعنى: أنهم أمروا أن يدخلوا في الإسلام، ثم أخبروا أن من زلّ جازاه الله

(١) البحر المحيط (٤/ ٤٨) .

(٢) المصدر السابق (٨/ ٢٩٦) .

(٣) الدر المصون (ص: ٥٥٤) .

(٤) روح المعاني (١٤/ ٤٨٧) .

العزيز الذي لا يغالب، الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها، ثم قيل: لا ينتظرون في إيمانهم إلاَّ ظهور آيات بينات، عنادًا منهم، فقد أتتهم الآيات، ثم سلَّى نبيه ﷺ في استبطاء إيمانهم مع ما أتى به لهم من الآيات، بقوله: ﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ﴾ فما آمنوا بها، بل بدلوا وغيروا، ثم توعد من بدل نعمة الله بالعقاب الشديد، فأنت ترى هذه المعاني متناسقة، مرتبة الترتيب المعجز، باللفظ البليغ الموجز، فدعوى التقديم والتأخير المختص بضرورة الأشعار، وبنظم ذوي الانحصار، منزه عنها كلام الواحد القهار "(١) .

وقال السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾[المائدة : ٦]: " الأمر بالترتيب في الوضوء، لأن الله تعالى ذكرها مرتبة، ولأنه أدخل ممسوحا – وهو الرأس – بين مغسولين، ولا يعلم لذلك فائدة، غير الترتيب"(٢) .

وقال ابن عاشور رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾[هود: ٧٧]: " ومن بديع ترتيب هذه الجمل، أنها جاءت على ترتيب حصولها في الوجود، فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يُساء به، ويتطلب المخلص منه، فإذا عَلم أنه لا مخلص منه ضاق به ذرعًا، ثم يصدر تعبيرًا عن المعاني، وترتيبًا عنه، كلامًا يُريح به نفسه، وتصلح

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٨٥) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٢٢) .

هذه الآية لأن تكون مثالاً لإنشاء المنشئ إنشاءه، على حسب ترتيب الحصول في نفس الأمر، هذا أصل الإنشاء ما لم تكن في الكلام دواعي التقديم والتأخير، ودواعي الحذف والزيادة "[١] .

القاعدة السابعة: " المعنى الشرعي مقدم على المعنى اللغوي " .

شرح القاعدة: ألفاظ الوحي قد تكون لها حقيقة شرعية، وهو ما وضعها الشارع في معنى محدد، مثل: الصلاة والزكاة والحج، ولها حقيقة لغوية، فهي عند عدم وجود مرجح، الأولى حملها على المعنى الشرعي؛ لأن ألفاظ القرآن جاءت لبيان المعنى الشرعي .

أدلة القاعدة: العلماء يقولون أن الحقيقة الشرعية مقدمة على الحقيقة اللغوية، وذلك عندما يكون التباين عند العلماء دائرًا بين مسمى شرعي وآخر لغوي، ولا دليل يعين أحدهما، حمل على الشرعي، فإن قام دليل على تعيين أحدهما، فلا ترجيح بهذه القاعدة .

قال الزركشي رحمه الله: " إذا كان للكلمة الواحدة معنيان أو أكثر؛ أحدهما لغوي، والآخر شرعي، واختلف المعنيان، قدم المعنى الشرعي؛ لأن القرآن الكريم نزل لبيان الشرع، لا لبيان اللغة، إلا أن تدل قرينة على إرادة المعنى اللغوي "[٢] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢٥) .

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٦٧)، وأصول التفسير للعثيمين (ص: ٢٩) .

وقال الشنقيطي رحمه الله: " أن النص إن دار بين الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية حمل على الشرعية وهو التحقيق "(١) .

وقال الشيخ العثيمين رحمه الله: " فإن اختلف المعنى الشرعي واللغوي، أخذ بما يقتضيه الشرعي، لأن القرآن نزل لبيان الشرع ، لا لبيان اللغة، إلا أن يكون هناك دليل يترجح به المعنى اللغوي فيؤخذ به "(٢) .

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: هذه القاعدة لها تطبيقات كثيرة، مثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم فيه المعنى الشرعي: قوله تعالى عن المنافقين: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾[التوبة:٨٤]، فالصلاة لها معنيان: لغوي، هو(الدعاء)، و(شرعي)، وهو هنا صلاة الجنازة، فيقدم المعنى الشرعي؛ لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب .

ومثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم فيه اللغوي لقرينة: قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١٠٣]، فالمراد بالصلاة هنا الدعاء، بدليل حديث مسلم: " كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم، قال: اللهم صل عليهم "، وأمثلة ما اتفق فيه المعنيان الشرعي واللغوي كثيرة: كالسماء، والأرض، والصدق، والكذب، والحجر، والإنسان(٣) .

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٣٤٧) .

(٢) تفسير القرآن للعثيمين (١/ ٢٤) .

(٣) أصول التفسير للعثيمين (ص:٢٩)، تفسير القرآن للعثيمين (١/ ٢٥) .

وهنالك قواعد أخرى كثيرة يرجح بها عند الاختلاف، منها:

قاعدة: " متى أمكن حمل الكلام على غير إضمار ولا افتقار، كان أولى من أن يسلك به الإضمار والافتقار "[١].

قاعدة: " لكل حرف من حروف المعاني وجهٌ هو به أولى من غيره، فلا يصلح تحويل ذلك عنه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها"[٢] .

وقاعدة: " الضمير يعود إلى القريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك "[٣].

وقاعدة: "وإعادة الضمير إلى المحدث عنه أولى من إعادته إلى غيره "[٤] .

وقاعدة: "حمل معاني القرآن على ما غلب استعماله في القرآن أولى "[٥] .

وقاعدة: " القول الذي يؤيده تصريف الكلمة وأصل اشتقاقها أولى بتفسير الآية "[٦].

وغيرها من قواعد كثيرة تحتاج إلى جمع ودراسة .

---

(١) البحر المحيط (١/ ٢١) .

(٢) جامع البيان (٢/ ٣٤٠) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ١١٢) .

(٤) البحر المحيط (٨/ ٣٧٩) .

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٦٧)، وأصول التفسير للعثيمين (ص:٢٩) .

(٦) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين، للحربي (٢/ ١٥٣)، يراجع الكتاب فهو مفيد في بابه .

المطلب الثالث: ضوابط في التعامل مع الهدايات:

هنالك عدة ضوابط في التعامل مع الهدايات القرآنية، لابد من مراعاتها، وهي لا تنفك عن ضوابط التفسير بالرأي غالبًا، والعلماء فيها بين مقل ومكثر[1]، وقد رأيت الاكتفاء بالضوابط التي لا يستغنى عنها، ويجب الالتزام بها، من ذلك:

أولًا: التزام طرق الفهم الصحيح للقرآن الكريم:

عند النظر في الهدايات القرآنية ينبغي أن يلتزم بالطرق الصحيحة في فهم القرآن من حيث بيان القرآن بالقرآن؛ لأن القرآن يبين بعضه بعضًا، ويحمل أحيانًا عامه على خاصه، ومطلقه على مقيده، ومبهمه على مبينه وهكذا، فإن لم يجد بيانًا للقرآن بالقرآن، فليطلبه فيما صح وثبت عن النبي ﷺ؛ لأنه هو المكلف ببيانه للناس كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل:٤٤]، وهنالك من القرآن ما لا يمكن الوصول لهديه إلا ببيان الرسول ﷺ .

قال الطبري رحمه الله: " فقد تبين ببيان الله جلّ ذكره: أنّ مما أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ ما لا يُوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ، وذلك تأويل جميع ما فيه: من وجوه أمره - واجبه ونَدْبِه وإرْشاده -، وصنوفِ نَهيه، ووظائف حقوقه وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير اللازم بعضَ خَلْقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آيه، التي لم يُدرَك علمُها إلا ببيان رسول الله ﷺ لأمَّته.

---

(١) ينظر: تفسير القرآن الكريم، أصوله وضوابطه، أ.د. علي بن سليمان العبيد، فقد ذكر ضوابط أخرى ضمن جزء كبير منها في الأصول والقواعد.

وهذا وجهٌ لا يجوز لأحد القول فيه، إلا ببيان رسول الله ﷺ له تأويلَه بنصٍّ منه عليه، أو بدلالة قد نصَبها، دالَّةٍ أمَّتَه على تأويله"(١) .

ولكن يتجنب الضعيف والموضوع والإسرائيليات، فإن لم يجد في السنة بيانًا رجع إلى أقوال أصحاب النبي ﷺ، فهم أعلم الناس بما أنزل على محمد ﷺ لتعلمهم على يده ، ومعايشتهم لنزول القرآن ومعرفتهم الدقيقة بلغته، فإن لم يجد ما يطلبه في أقوال الصحابة، رجع إلى أقوال أئمة التفسير من التابعين .

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " وفي الجملة من عَدَل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم، إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئًا في ذلك، بل مبتدعًا، وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته، وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث اللهّ به رسوله ﷺ، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعًا "(٢) .

وقال رحمه الله: " فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فُسِّرَ في موضع آخر، وما اخْتُصِر في مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن، وموضحة له.. إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في

(١) جامع البيان (١/ ٧٤) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦١) .

السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآئن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين.."[١].

وقد بين الزركشي رحمه الله في كتابه « البرهان » خلاصة الشروط التي لابد منها لإباحة التفسير بالرأي الذي هو الضابط للنظر في الهدايات، وهي:

" الأولى: النقل عن رسول الله ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع .

الثانية: الأخذ بقول الصحابي فقد قيل: إنه في حكم المرفوع مطلقا وخصه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه .

الثالثة: الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلى ما لا يدل عليه الكثير من كلام العرب .

الرابعة: الاخذ بما يقتضيه الكلام، ويدل عليه قانون الشرع "[٢] .

وقال الزرقاني رحمه الله: " فمن فسر القرآن برأيه، أي: باجتهاده، ملتزمًا الوقوف عند هذه المآخذ، معتمدا عليها فيما يرى من معاني كتاب الله، كان تفسيره سائغًا، جائزًا، خليقًا بأن يسمى التفسير الجائز، أو التفسير المحمود، ومن حاد عن هذه الأصول، وفسر القرآن غير معتمد عليها، كان تفسيره ساقطًا، مرذولًا، خليقا بأن يسمى التفسير غير الجائز، أو التفسير المذموم، فالتفسير

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٥) .

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٥٦) .

بالرأي الجائز يجب أن يلاحظ فيه الاعتماد على ما نقل عن الرسول ﷺ وأصحابه، مما ينير السبيل للمفسر برأيه، وأن يكون صاحبه عارفا بقوانين اللغة، خبيرًا بأساليبها، وأن يكون بصيًا بقانون الشريعة، حتى ينزل كلام الله على المعروف من تشريعه "[1].

ومن هنا فكل هداية خالفت دليلًا في الكتاب والسنة فهي باطلة، ولا يرجع إلى اللغة مع بيانه وبيان أصحابه .

قال ابن تيمية رحمه الله: " ومما ينبغي أن يعلم أن الالفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي ﷺلم يحتج في ذلك الى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم "[2] .

ولذلك قال العلماء بأنه إذا لم يجد بيانًا في أقوال التابعين رجع إلى لغة العرب بالضوابط التي حددها العلماء .

ثانيًا: عدم الخوض فيما استأثر الله بعلمه:

مما ينبغي الالتزام به من ضوابط فهم القرآن، والبحث في هداياته، عدم الخوض فيما استأثر الله بعلمه، من الأمور الغيبية، وغيرها من الأمور التي لا تدرك بالاجتهاد والنظر، بل يُتَوَقَّف معرفتها على أدلة الوحي .

قال ابن جرير رحمه الله: " وأنّ منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار، وذلك ما فيه من الخبر عن آجال حادثة، وأوقات آتية، كوقت قيام الساعة،

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٣٨٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٦) .

والنفخ في الصور، ونزول عيسى بن مريم، وما أشبه ذلك: فإن تلك أوقاتٌ لا يعلم أحدٌ حدودَها، ولا يعرف أحدٌ من تأويلها إلا الخبرَ بأشراطها، لاستئثار الله بعلم ذلك على خلقه، وبذلك أنزل ربُّنا محكم كتابه فقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وكان نبينا محمد ﷺ إذا ذكر شيئًا من ذلك لم يدلّ عليه إلا بأشراطه دون تحديده بوقته كالذي روى عنه ﷺ أنه قال لأصحابه، إذ ذكر الدجّال: " إنْ يخرجْ وأنا فيكُم، فأنا حَجِيجُه، وإن يخرجْ بعدي، فالله خليفتي عليكم "، وما أشبه ذلك من الأخبار - التي يطُول باستيعابها الكتاب - الدالّةِ على أنه ﷺ لم يكن عنده علمُ أوقاتِ شيء منه بمقادير السِّنين والأيام، وأن الله جل ثناؤه إنما كان عرَّفه مجيئه بأشراطه، ووقَّته بأدلته"[(١)] .

وقال القرطبي رحمه الله: " مغيبات القرآن ، وتفسير مجمله، ونحو هذا، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى، ومن جملة مغيباته، ما لم يعلم الله به، كوقت قيام الساعة ونحوها، مما يستقري من ألفاظه، كعدد النفخات في الصور وكرتبة خلق السموات والأرض "[(٢)] .

---

(١) جامع البيان (١/ ٧٤) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣١) .

وقال أبو حيان الأندلسي رحمه الله:" مغيبات القرآن، وتفسير مجمله، ونحوه، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى "(١) .

وقال الزركشي رحمه الله: " لا يبحث عن مبهم أخبر الله باستئثاره بعلمه، كقوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[الأنفال : ٦٠]، قال: والعجب ممن تجرأ وقال: إنهم قريظة، أو من الجن "(٢) .

وقال ابن عاشور رحمه الله: " مغيبات القرآن ، وتفسير مجمله، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف "(٣) .

وقال الزرقاني رحمه الله: " وينبغي أن يعلم أن في القرآن علوما تتنوع إلى ثلاثة :

الأول: علم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه، بل استأثر به وحده، كمعرفة حقيقة ذاته، وصفاته، وغيوبه التي لا يعلمها إلا هو، وهذا النوع لا يجوز الكلام فيه لأحد إجماعًا .

الثاني: ما أطلع الله عليه نبيه ﷺ، واختص به، وهذا لا يجوز الكلام فيه إلا له ﷺ، ولمن أذن له الرسول ﷺ، قيل: ومنه أوائل السور .

الثالث: العلوم التي علمها الله تعالى لنبيه مما أمر بتبليغه، وهذا النوع قسمان:

---

(١) البحر المحيط (١/ ١١٩)، وينظر: التحرير والتنوير (١/ ٢٣) .

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٥٥) .

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٢٣) .

- قسم لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع والنقل، كالكلام في الناسخ والمنسوخ، والقراءات، وقصص الأمم الماضية، وأسباب النزول، وأخبار الحشر، والنشر، والمعاد.

- وقسم يعرف بطريق النظر والاستدلال، وهذا منه المختلف في جوازه، وهو ما يتعلق بالآيات المتشابهات، ومنه المتفق على جوازه، وهو ما يتعلق بآيات الأحكام، والمواعظ، والأمثال، والحكم ونحوها، لمن له أهلية الاجتهاد "[1].

ثالثًا: عدم الخوض في هدى القرآن بغير علم:

من الضوابط المهمة للتكلم في القرآن، أن يتكلم الإنسان فيما يعلم، وأن لا يخوض فيما لا يعلم، لأنه سيؤدي بلا شك إلى التبديل والتحريف في كلام الله تعالى؛ ولذا حرم الله القول في الهدى بغير حق.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٣].

---

(١) مناهل العرفان (١/ ٣٨٣).

وقال النبي ﷺ: " مَنْ قالَ في الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ "(١) .

قال صاحب تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي رحمه الله: " قوله : "من قال في القرآن بغير علم" أي: بغير دليل يقيني، أو ظني نقلي، أو عقلي مطابق للشرعي "(٢) .

فالهدايات المعتبرة هي التي يتكلم فيها صاحبها بعلم ويؤيدها بنقل ثابت، أو نظر صائب، وما سواها فباطل.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله: " والعلم إما نقل مصدق عن معصوم، وإما قول عليه دليل معلوم، وما سوى هذا فإما مزيف مردود، وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود "(٣) .

وقد حذر الله تعالى من تحريف كلامه ووضعه في غير ما أريد به، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾[فصلت:٤٠]، وقال تعالى في ذم اليهود ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[النساء: ٤٦] .

ومن أعظم أسباب الضلال في القرآن الكريم الذي وقع فيه أهل الأهواء راجع إلى القول على الله بغير علم أو تحريف الكلم عن موضعه .

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن الكريم، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، برقم: (٢٩٥٠)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب فضائل القرآن، باب من قال في القرآن بغير علم، برقم: (٥٩)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (٢٢٧٥)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وقد ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، برقم: (١٧٨٣) .

(٢) تحفة الأحوذي (٤/ ١٢) .

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٢٩) .

وقد بين ابن تيمية رحمه الله سبب انحرافهم، وحصره في سببين:

" أحداهما: قوم اعتقدوا معانى ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها .

والثانية: قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه، والمخاطب به، فالأولون: راعوا المعنى الذي رأوه، من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن، من الدلالة والبيان، والآخرون: راعوا مجرد اللفظ، وما يجوز عندهم أن يريد به العربي، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به، ولسياق الكلام.. والأولون صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به، وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به، وفى كلا الأمرين: قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلًا، فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول، وقد يكون حقًّا، فيكون خطؤهم في الدليل لا في المدلول"[١] .

رابعًا: الالتزام بضوابط اللغة العربية في فهم المعنى:

القرآن الكريم نزل بلغة العرب، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[يوسف :٢]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾[الرعد: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[فصلت: ٣]؛ ولذلك قال العلماء: لا يفهم القرآن إلا وفق لغة العرب التي نزل عليها، ومعهودهم في الكلام، وطرائقهم في

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٥٥-٣٥٧) .

التعبير، ووجوه تصرفهم في البيان، خاصة إذا لم يجد المفسر تفسيرًا للآية في القرآن، ولا في السنة، ولا في أقوال الصحابة، ولا في أقوال التابعين .

قال الطبري رحمه الله: " فالواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزل على نبينا محمد ﷺ لمعاني كلام العرب موافقة، وظاهره لظاهر كلامها ملائمًا "[١] .

وقال الشاطبي رحمه الله: " القرآن نزل بلسان العرب على الجملة، فطلب فهمه إنَّما يكون من هذا الطريق خاصة، فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة "[٢] .

بل يجب حمل كلام الله على المعروف من كلام العرب، والمشهور منهم، دون الشاذ والضعيف والمنكر، وكل تفسير ليس له أصل في لغة العرب فهو مردود .

قال ابن جرير رحمه الله: " كتاب الله تعالى لا توجَّهُ معانيه، وما فيه من البيان، إلى الشواذ من الكلام والمعاني، وله في الفصيح من المنطق والظاهر من المعاني المفهوم، وجهٌ صحيح موجودٌ "[٣]، وقال أيضًا: " غير جائز حمل كتاب الله تعالى ووحيه جلّ ذكره، على الشواذ من الكلام، وله في المفهوم الجاري بين الناس وجه صحيح موجود"[٤]، وقال: " وغير جائز أن نحمل معاني كتاب الله على غير

(١) جامع البيان (١/ ٥٥) .
(٢) الموافقات (٢/ ٣٧٥) .
(٣) جامع البيان (٧/ ١٠٠) .
(٤) المصدر السابق (٤/ ٥٧٣) .

الأغلب المفهوم بالظاهر، من الخطاب في كلام العرب، ولنا إلى حمل ذلك على الأغلب من كلام العرب سبيل "[١] .

وقال الشاطبي رحمه الله: " كل معنى مستنبط من القرآن، غير جار على اللسان العربي، فليس من علوم القرآن في شيء، لا مما يستفاد منه، ولا مما يستفاد به، ومن ادعى فيه ذلك، فهو في دعواه مبطل "[٢] .

فكل هداية مستنبطة من القرآن، لا تجري على قواعد اللغة العربية، التي نزل بها القرآن، فهي ليست من هدايات هذا الكتاب، وعلومه، فالقرآن عربي، فيسلك عند استنباط واستخراج هداياته، مسلك العرب في تفسير معانيه .

قال السعدي رحمه الله: " إن هذا القرآن الكريم العربي المبين الذي خاطب الله به الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم، وأمرهم بالتفكر في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالًا منقولة عن غير رسول الله ﷺ ردها إلى هذا الأصل، فإن وافقته قبلها لكون اللفظ دالًّا عليها، وإن خالفته لفظًا ومعنى، أو لفظًا، أو معنى ردها، وجزم ببطلانها، لأن عنده أصلًا معلومًا مناقضًا لها، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته "[٣] .

ومن لم يجعل لغة العرب مرجعه ومفزعه في التفسير، كان من أهل التحريف والزيغ لا محالة، في فهم معاني القرآن .

---

(١) المصدر السابق (٨/ ٥٧٨) .

(٢) الموافقات (٣/ ٣٩١) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٠٢) .

قال ابن تيمية رحمه الله: " لا بد في تفسير القرآن والحديث، من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله ﷺ من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها، مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني، فإن عامة ضلال أهل البدع بهذا السبب، فإنهم صاروا يُحَمِّلُون كلام الله ورسوله، على ما يدّعون أنه دال عليه، ولا يكون الأمر كذلك "(١) .

خامسًا: الالتزام بفهم المعنى وفق السياق الذي ورد فيه:

من الضوابط المهمة في فهم القرآن الكريم أن تُفْهَمَ معانيه وتفسر ألفاظه وفق السياق الذي ورد به المعنى، وهذا من الضوابط المهمة التي أكد عليها العلماء، حيث يجب أن يراعى السابق واللاحق في فهم معنى الآية، خاصة إذا كان الكلام مفتقرًا إلى ما بعده في إعرابه أو معناه؛ لأن قطع الآية عن سابقتها ولاحقتها قد يوقع في خطأ كبير، خاصة " فإن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه، وما يحف به من القرائن ، اللفظية والحالية "(٢) .

ومن هنا أكد العلماء على مراعاة نظم الكلام، والغرض الذي سيق له، لما له من دور في فهم المراد، وإصابة الحق الصواب، قال مسلم بن يسار رحمه الله: " إذا حدثت عن الله، فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده "(٣) .

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١١٦) .

(٢)مجموع الفتاوى لابن تيمية (٦/ ١٤) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٢) .

وقال ابن جرير رحمه الله: " فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول ﷺ تقوم به حُجَّة فأما الدَّعاوى، فلا تتعذر على أحد "[1].

وقال ابن تيمية رحمه الله: " فمن تدبر القرآن، وتدبر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن؛ تبين له المراد، وعرف الهدى والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ، المجرد عن سائر ما يبين معناه، فهذا منشأ الغلط من الغالطين، لاسيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية، فإن هؤلاء أكثر غلطًا من المفسرين المشهورين، فإنهم لا يقصدون معرفة معناه، كما يقصد ذلك المفسرون "[2].

وقال الزركشي رحمه الله: " والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له "[3].

فاستصحاب دلالات السياق، من الضوابط المهمة التي لا غنى عنها لفهم هدايات القرآن؛ وذلك لأنه " من خلاله يستعين على فهم المعنى، أو الترجيح بين

---

(١) جامع البيان (٩/ ٣٨٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩٥).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٧).

الآراء في ضوء السياق، أو إزالة لبس أو إشكال، أو دفع إيهام، أو معرفة الحكمة من إيراد القصص القرآني، أو غير ذلك من الفوائد"[1].

وهو ضابط مهم في الوصول للمعنى، وإهماله يؤدي إلى خلل كبير في الوصول إلى الهداية، كما جاء عن عكرمة أن نافع بن الأزرق الخارجي قال لابن عباس رضي الله عنهما: " يا أعمى البصر، أعمى القلب، تزعم أن قومًا يخرجون من النار، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾[المائدة:٣٧] فقال: ويحك، اقرأ ما فوقها، هذا للكفار "[2].

سادسًا: جمع الآيات في الموضوع الواحد وفهمها مجتمعة:

القرآن الكريم يفسر بعضه بعًض، ويبين بعضه بعضًا، فقد يكون الحكم في موضع عامًا، مخصصًا في موضع آخر، مطلق في موضع، مقيد في موضع آخر، مبهم في موضع مبين في موضع آخر، مجمع في موضع مفصل في موضع، كما أن الكثير من المواضيع لا تستطيع أن تقرر الحكم النهائي، وتستوفي هدى المسألة، إلا بجمع أدلة الموضوع الواحد، ثم النظر إليها مجتمعة، مثل: أحكام الطلاق، والمواريث، والعدة، بل والصلاة، والزكاة، والحج، ومثل الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان، أو أحوال الأرض والجبال، وغيرها، ومن هنا فلابد للوصول لفهم سليم، من جمع الأدلة الأخرى التي تتحدث عن الموضوع الواحد، ثم النظر فيها، ومحاولة فهمها مجتمعة، وهذا هو منهج النبي ﷺ،

(١) موقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات (١/ ١٥) .

(٢) جامع البيان (١٠/ ٢٩٤) .

والسلف الصالح، وهو ما سار عليه العلماء في كتبهم، حيث يحاولون جمع الآيات التي تتحدث عن حكم، أو موضوع واحد، خاصة إذا تطلب فهم الآية ذلك، قبل البدء في تفسير الآية، وهذا الضابط هو الذي يوصل لفهم صحيح للقرآن الكريم، ويعصم الزلل والانحراف .

قال الشاطبي رحمه الله: " ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد، وهو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضم أطرافه بعضها لبعض، فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامها المرتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسر بينهما إلى ما سوى ذلك من مناحيها فإذا حصل للناظر من جملتها حكم من الأحكام فلذلك الذي نظمت به حين استنبطت .. فشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة، يخدم بعضها كأعضاء الإنسان إذا صورت صورة مثمرة، وشأن متبعي المتشابهات أخذ دليل ما أي كان عفوا وأخذا أوليا وإن كان ثم ما يعارضه من كلي أو جزئي .. "(١) .

---

(١)الاعتصام للشاطبي (١/ ١٨١) .

سابعًا: أن يجرد المفسر نفسه من الهوى:

من الضوابط المهمة للنظر في هدايات القرآن الكريم التجرد من الهوى الذي يعني: " أخذ القول والفعل الذى يحبه، ورد القول والفعل الذى يبغضه بلا هدى من الله "(١)؛ لأن اتباع الهوى والنزعات الشخصية من أعظم الأسباب الصارفة عن الحق والهدى، قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[القصص : ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [ص: ٢٦] .

وقد يكون الهوى هو ميله إلى مذهب بعينه، أو قول شيخ محدد، فيحمله ذلك التعصب على تفسير القرآن برأيه ومذهبه؛ فيقع في الزيغ والضلال، فيجعل المذهب أصلًا ومتبوعًا، ومعنى الآية فرعًا وتابعًا، كما يفعله أهل الأهواء من أصحاب الفرق، فيقع في الضلال المبين، قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[البقرة: ١٢٠] .

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ١٨٩) .

قال ابن تيمية رحمه الله: " فمن اتبع أهواء الناس بعد العلم الذى بعث الله به رسوله، وبعد هدى الله الذى بينه لعباده فهو بهذه المثابة، ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع والتفرق المخالفين للكتاب والسنة أهل الأهواء؛ حيث قبلوا ما أحبوه، وردوا ما أبغضوه بأهوائهم، بغير هدى من الله "(١) .

وقد حذرنا الله من اتباع الهوى، لأن الهوى دائمًا يصد عن الحق، ويعمي البصيرة عن نور الهدى، وهو من أعظم أسباب ضلال الفرق من قدرية ومعتزلة ورافضة وغيرهم .

قال ابن تيمية رحمه الله: "وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك، ولا يطلبه، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه "(٢) .

فهذه هي أهم الضوابط التي يجب الالتزام بها لكل ناظر في الهدايات القرآنية ملتزمًا طريقة السلف الصالح في فهم القرآن الكريم والاهتداء به .

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٨٩) .

(٢) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية (٥/ ١٣٣) .

قال ابن القيم رحمه الله: " صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده؛ بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما؛ بل هما ساقا الإسلام وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم، الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة، وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد ، ويمده حسن القصد وتحري الحق وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى وإيثار الدنيا وطلب محمدة الخلق وترك التقوى "[1].

(١) إعلام الموقعين (١/ ٨٧) .

الفصل الخامس

تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة

سبله، وموانعه، وأثره

ويشتمل على المباحث التالية:

* سبل تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة
* موانع تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة
* أثر تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة

تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة سبله، وموانعه، وأثره

تمهيد:

الحمد لله الذي جعل القرآن العظيم هدى للمتقين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، الهادي إلى الطريق القويم، والصراط المستقيم، صلى الله عليه، وعلى آله، وأصحابه، ومن تبعهم، وسار على هديهم إلى يوم الدين .

أما بعد:

فالقرآن الكريم كلام الله تعالى، أعظم الكتب السماوية التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله، وأجمعها للعلوم كافة، هذا الكتاب العظيم والسفر القويم وُصف في مواطن عديدة منه أنه كتاب هداية، أي: دلالة وإرشاد، يدل الناس إلى الحق ويرشدهم إلى الصواب، بل قد سمى الله كتابه بالهدى في غير ما آية، فقال سبحانه: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء: ٩٤]، وقال جل في علاه: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾[الكهف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[النجم: ٢٣] .

والهداية - كما أخبر القرآن - لا تتحقق إلا لمن آمن بالله تعالى، وصدق

برسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[(١)] [البقرة: ١، ٢].

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "أي الذين يحذَرُون من الله تعالى عقوبتَه في تَرْك ما يعرفون من الهُدى، ويرجون رحمَته بالتَّصديق بما جاء به "[(٢)]؛ لأن: " الهدى على التحقيق: هو الدلالة التي من شأنها الإيصال إلى البغية.. والهدى الشرعي هو: الإرشاد إلى ما فيه صلاح العاجل الذي لا يَنقُضُ صلاح الآجل، وأثر هذا الهدى هو الاهتداء، فالمتقون يهتدون بهديه، والمعاندون لا يهتدون؛ لأنهم لا يتدبرون "[(٣)].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[البقرة: ٩٧]، " وإنما سماه الله جل ثناؤه هدى؛ لاهتداء المؤمن به، واهتداؤه به: اتخاذه إياه هاديًا يتبعه، وقائدًا ينقاد لأمره ونهيه، وحلاله وحرامه "[(٤)].

وهذا لا يتنافى أو يتعارض مع شمولية الهداية وعمومها للناس كافة، كما أخبر القرآن في عدة مواضع من كتابه، قال عزّ وجلّ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾[البقرة: ١٨٥]؛ فقوله: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾أي: عموم الناس، فالمراد " بالهدى الأول: ما في القرآن من الإرشاد إلى

---

(١) أخرج الطبري في جامعه (١/ ٢٣٣) عن ابن مسعود ﷺ أنه فسر الآية بـ: المؤمنين.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٣٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣٥).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٥).

(٤) جامع البيان (٢/ ٣٩٣).

المصالح العامة والخاصة التي لا تنافي العامة، وبالبينات من الهدى: ما في القرآن من الاستدلال على الهدى الخفي، الذي ينكره كثير من الناس، مثل: أدلة التوحيد، وصدق الرسول وغير ذلك من الحجج القرآنية "[١] .

ويقول أبو الفداء الاستانبولي: " وتخصيص الهدى بهم - أي بالمتقين كما في الآية السابقة من سورة البقرة - لما أنهم المقتبسون من أنواره، المنتفعون بآثاره، وان كان ذلك شاملًا لكل ناظر من مؤمن وكافر، وبذلك الاعتبار قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾أي : كلهم بيانًا، وهدى للمتقين على الخصوص إرشادًا "[٢] .

ومما تقدم يفهم أن الهداية أنواع كما ذكر أهل العلم[٣]، يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله: " فأما مراتب الهدى فأربعة:

إحداها: الهدى العام، وهو: هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها، وهذا أعم مراتبه .

المرتبة الثانية: الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده، وهذا خاص بالمكلفين، وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى وأعم من الثالثة .

المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء، وهي: هداية التوفيق، ومشيئة الله لعبده الهداية، وخلقه دواعي الهدى، وإرادته والقدرة عليه للعبد، وهذه الهداية

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٧٣) .

(٢) روح البيان لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي (١/ ٣٠) .

(٣) سبقت الإشارة إلى ذلك في الفصول المتقدمة، لكني أشير هنا إلى هذه الأنواع دون تفصيل .

التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى .

المرتبة الرابعة: الهداية يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار " .

ثم استطرد رحمه الله في بيان هذه الأنواع الأربعة بشيء من التفصيل(١) .

وقد جمع القرآن الكريم بين الهداية العامة والهداية الخاصة في آيات عديدة، يقول سبحانه عن قوم صالح ﷺ: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]، ويقول تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٨]، ويقول عزّ وجلّ: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[النحل: ٦٤]، ويقول: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل: ٨٩] .

وعليه؛ فإن قال قائل: بما أن القرآن الكريم فيه بيان وهداية لجميع الخلق، فلم خص المتقين بالهداية كما تقدم بيانه؟

فيجاب عنه: بأن: " المتقين هم الذين ينتفعون بالبيان، ويعملون به، فإذا كانوا هم الذين ينتفعون، صار في الحقيقة حاصل البيان لهم "(٢) .

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٦٥ – ٨٥) في الباب الرابع عشر: في الهدى والضلال، ومراتبهما، والمقدور منهما للخلق، وغير المقدور لهم، وانظر: بدائع الفوائد (٢/ ٣٥ -٣٧) .

(٢) بحر العلوم (١/ ٢٢)، وبنحوه قال غير واحد، انظر: جامع البيان (١/ ٢٣٠) .

وهذه الهداية الخاصة بنوعيها - المجملة والمفصلة -[1]، لا بد أن يُعلم علم اليقين أن من لم يوفقه الله تعالى لها لن يوفق مهما عمل، فهي منّة من الله يخص بها من شاء من خلقه، ويصطفي إليها من أراد من عباده، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ ﴾ [الشورى: ٥٢]، ولا تتحقق إلا بأمر الله تعالى، فهو الهادي سبحانه، كما جاء ذلك مقررًا في نصوص كثيرة من كتاب الله:

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ ﴾[الأنعام: ٨٨].

وبنحوها قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾[الزمر: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾[الحج: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾[النور: ٣٥].

وقال جل في علاه: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[الأحزاب: ٤].

وغيرها من الآيات الكثيرة في هذا الباب.

وفي الحديث القدسي: " .. يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني

---

(١) قال ابن رجب الحنبلي: " فإن الهداية نوعان: هداية مجملة، وهي: الهداية للإسلام والإيمان، وهي حاصلة للمؤمن، وهداية مفصلة، وهي هداية إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام، وإعانته على فعل ذلك، وهذا يحتاج إليه كل مؤمن ليلًا ونهارًا "، جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠).

أهدكم .. " الحديث[(١)] .

ومع تعدد نعم الله تعالى على عباده: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[(٢)] فإن

---

(١) الحديث بطوله أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم: (٢٥٧٧) .

(٢) وردت هذه الآية في موضعين من كتاب الله تعالى بنفس اللفظ: في سورة إبراهيم عليه السلام آية (٣٤)، وفي سورة النحل آية (١٨)، والملاحظ أن هاتين الآيتين اختلفتا في أمرين:

الأول: في رسم كلمة: ﴿ نِعْمَتَ ﴾ فرسمت في آية إبراهيم بالتاء المفتوحة، مع عشرة مواضع أخرى في القرآن الكريم رسمت هكذا، ورسمت بالتاء المربوطة في آية النحل، ومثلها في أربعة وعشرين موضعًا أخرى في القرآن الكريم، والفرق بينهما كما ذكر أبو العباس المراكشي في كتابه « عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل » (ص:١٠٩) أنها ترسم بالتاء المفتوحة إذا كانت بمعنى الفعل، وبالتاء المضمومة إذا كانت بمعنى الاسم .

وأشار محمد شملول في كتابه « إعجاز القرآن وإعجاز التلاوة » (ص:١٧٧) أنها تأتي بالتاء المفتوحة حينما تدل على النعمة الخاصة التي وهبها الله جل وعز للمؤمنين من عباده .

وتأتي بالتاء المربوطة حينما تتحدث عن نعم الله الظاهرة للعيان، وهي النعم العامة للبشر، أو تتحدث عن أقل شيء يطلق عليه نعمة، ثم قال بعد أن ذكر الفرق بينهما: " وجدير بالذكر أنه حينما تذكر ﴿نعمت﴾ في أي آية من القرآن الكريم فيكون ذلك من أجل لفت انتباه قارئ القرآن لتدبر هذه الآية وما حولها من آيات واستخلاص الحكمة والعبرة " .

والثاني: التذييل، فقد ذيلت الأولى بـ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾، وذيلت الثانية بـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وسبب الاختلاف بين الآيتين راجع إلى السياق؛ ففي الآية الأولى يدور السياق حول الإنسان وصفاته، فختمت بما يناسب صفاته، وأما آية النحل فإنها في سياق الحديث عن صفات الله تعالى ونعمه؛ لذا ختمت بما يناسب صفات المولى سبحانه من العفو والمغفرة .

نعمة الهداية هي أعظم النعم وأجلها على الإطلاق: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[الحجرات: ١٧] .

فتحقيق الهداية إذًا لا يمكن أن تكون إلّا بتوفيق الله تعالى لعبده، فمن ابتغى الهدى من عند غير الله أضله الله، وقد بين القرآن الكريم في آياته أن كافة الشركاء من دون الله لا يمكن أن تحقق الهداية مهما بذل الإنسان وسعى، قال تعالى مستنكرًا على من زعم هذا الزعم: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس: ٣٥] .

وبعد: فإنَّ تحقق الهداية وإن كان اصطفاءً واختيارًا من الله تعالى، إلا أنه تعالى قد هيأ السبل وبين الوسائل لتحقيقها، وفي مقابل ذلك أوضح سبحانه الموانع التي تمنع منها، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ [الأعراف: ٣٠]، أي: الناس على فريقين: فريق " وفقهم الله تعالى لهدايته، ويسر لهم أسبابها، وصرف عنهما موانعها "، وفريق " وجبت عليهم الضلالة، بما تسببوا لأنفسهم، وعلموا بأسباب الغواية "[(١)] .

وعليه؛ فإن من اتبع السبل والوسائل تحققت له تلك الهداية بأمر الله جل وعلا ونفع نفسه، ومن ارتكب شيئًا من الموانع امتنع عنها ولم يضر إلا نفسه، قال

---

(١) تيسير الكريم الرحمن للشيخ السعدي (ص:٢٤٩) .

تعالى مخاطبًا نبيه وخليله ﷺ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[يونس: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ ﴾[الإسراء: ١٥] .

وهذه السبل والموانع متفرعة المشارب، ومتعددة المسالك، ومتنوعة الطرق، ذكرها الله في كتابه، وبينها رسوله ﷺ فيما صح من سنته .

وسيكون محور الحديث هنا حول هذه السبل والموانع، وأثر تحقيق الهداية في واقع الأمة، وهذا من خلال ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سبل تحقيق الهدايات القرآنية، وفيه مطالب:

المطلب الأول: الإيمان بالله والإسلام .

المطلب الثاني: تقوى الله والاستجابة لأوامره تعالى .

المطلب الثالث: الاستجابة لرسول الله ﷺ واتباع هديه .

المطلب الرابع: اتباع أصحاب النبي ﷺ والاقتداء بهديهم .

المطلب الخامس: الدعاء بطلب الهداية والثبات عليها .

المطلب السادس: التوبة والإنابة إليه سبحانه .

المطلب السابع: تلاوة القرآن الكريم وتدبره .

المطلب الثامن: العلم والعمل .

المبحث الثاني: موانع تحقيق الهدايات القرآنية، وفيه مطالب:

المطلب الأول: الكفر .

المطلب الثاني: الظلم .

المطلب الثالث: الفسق .

المطلب الرابع: الخيانة .

المطلب الخامس: حب الدنيا وكراهية الموت .

المطلب السادس: اتباع الهوى .

المطلب السابع: الكذب.

المطلب الثامن: ا لحسد .

المطلب التاسع: الكبر.

المبحث الثالث: أثر تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة، وفيه مطالب:

المطلب الأول: الهداية للتي هي أقوم .

المطلب الثاني: العدل والإنصاف .

المطلب الثالث: الوحدة والاتفاق .

المطلب الرابع: التمكين في الأرض .

المطلب الخامس: الأمان والطمأنينة .

المطلب السادس: السعادة الحقيقية .

هذا والله تعالى أسأل أن يكتب التوفيق لي، ويشرح صدري، وييسر أمري، ويجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، أجمعين، والحمد لله رب العالمين .

المبحث الأول

سبل تحقيق الهدايات القرآنية

إعداد

د . ياسين حافظ قاري

سبل تحقيق الهدايات القرآنية

المطلب الأول: الإيمان والإسلام:

لا تتحقق الهداية بالقرآن الكريم إلا إن آمن المرء بالله تعالى، وأسلم لرسوله ﷺ، وصدق بكتابه، ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تدلان على ذلك، وتبينان أن الإيمان والإسلام سبب للهداية لمن طلبها وأرادها .

وإن المتأمل لنصوص القرآن والسنة يجد أن الهداية تتحقق في فئتين من الناس بسبب الإيمان أو الإسلام:

الفئة الأولى: الكفار أو المشركون الذين أسلموا ودخلوا في الإيمان، والذي يقول الله تعالى في حقهم: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ﴾[البقرة: ١٣٧]، أي: فإن آمن أهل الكتاب وصدقوا بالله وما أنزل إليكم، وأقروا بذلك، مثلَ ما صدقتم أنتم به أيها المؤمنون وأقررتم، فقد وُفِّقوا ورَشِدوا، ولزموا طريق الحق واهتدوا(١) .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الرد على أهل الكتاب الذين زعموا أن اليهودية والنصرانية سبب للهداية، حيث قالوا كما حكى القرآن على لسانهم: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾[البقرة: ١٣٥]، فردّ الله تعالى عليهم بأن الهداية

---

(١) ينظر: جامع البيان (٣/ ١١٣) .

ليست كما زعموا، بل إنها في الإيمان بالله الواحد الأحد، واتباع ملل الأنبياء جميعًا، قال تعالى: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٥، ١٣٦]، " فإيمانهم اهتداءٌ، وليسوا قبل ذلك على هدىً خلافًا لزعمهم أنهم عليه .. فدل مفهوم الشرط على أنهم ليسوا على هدى، ما داموا غير مؤمنين بالإسلام"[(١)] .

يقول ابن كثير رحمه الله: " ﴿ فَإِنْ آمَنُوا ﴾ يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، ﴿ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ ﴾ يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم، فقد اهتدوا، أي: فقد أصابوا الحق، وأرشدوا إليه .. "[(٢)] .

ويقول السعدي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة: " أي: فإن آمن أهل الكتاب ﴿ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ ﴾ يا معشر المؤمنين من جميع الرسل، وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله ﴿ فَقَدِ اهْتَدَوا ﴾ للصراط المستقيم، الموصل لجنات النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية، إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: ﴿ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ فزعموا أن الهداية خاصة بما

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٤٠) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٢٢) .

كانوا عليه، و (الهدى) هو العلم بالحق، والعمل به، وضده الضلال عن العلم، والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا "[١] .

والآية الكريمة ذكرت " لهم الهداية بالإقرار والاعتقاد بدون سائر الطاعات، بيانًا لشرف الإيمان، وجلال قدره، وعلو أمره؛ فانه إذا قوى لم يبطله نفس المخالفات، بل هو الذي يغلب فيرد الى التوبة بعد التمادي في البطالات، وكما هدى اليوم الى الإيمان يهدى غداً الى الجنان "[٢] .

وفي سورة آل عمران يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يقول لأهل الكتاب وغيرهم من مشركي العرب: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ ﴾[آية: ٢٠]، " أمر أهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين، وجعلهم إذا أسلموا مهتدين، وإن لم يسلموا فقد قال: إنما عليك البلاغ، أي: تبلغهم رسالات ربك إليهم، والله هو الذي يحاسبهم، فدل بهذا كله على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام، كما يبلغ الأميين، وأن الله يحاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأميين "[٣] .

وهذه الآية الكريمة وردت في سياق مجادلة أهل الكتاب وغيرهم من مشركي العرب ومحاجتهم، وبيان أن الدين عند الله جل وعلا هو الإسلام لا غير، وأن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٨) .

(٢) روح البيان (١/ ٤٣) .

(٣) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (١/ ٣٣٧) .

من لم يسلم فلا سبيل له إلى الهداية والرشاد، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[آل عمران : ١٩، ٢٠]، فبين تعالى أنه لا دين مرضي عنده سوى الإسلام، وهو الشرع الذي بعث به الرسل، وأنزل من أجله الكتب[1]، كما قال المولى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران: ٨٥]، وعليه؛ فإن من يكفر بالله تعالى، ولم يسلم وجهه إليه تعالى فلن يصل إلى الهداية، مهما سعى، وعمل، واجتهد، وقد تعجب الله تعالى من قوم طلبوا الهداية في غير الإسلام ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[آل عمران : ٨٦] .

والإسلام ليس مجرد شعار يرفع، ونطق باللسان، بل هو تطبيق وسلوك وعمل، " فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه، فمن عبده، وعبد معه إلهًا آخر، لم يكن مسلمًا، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا، والإسلام هو الاستسلام لله، وهو الخضوع له، والعبودية

---

(١) أخرج الطبري في تفسيره (٦/ ٢٧٥)، عن قتادة رحمه الله أنه قال في قوله: ﴿ إنّ الدين عندَ الله الإسلام ﴾ الإسلام: شهادة أنّ لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه، وبعث به رسله، ودلّ عليه أولياءه، لا يقبل غيرَه ولا يجزى إلا به .

له "[١] .

وللشيخ الطاهر ابن عاشور رحمه الله كلام نفيس ولطيف في هذا الباب، أنقله بتمامه من تفسيره، حيث قال رحمه الله: " وإسلام النفس لله معناه: إسلامها لأجله، وصيرورتها مِلكًا له، بحيث يكون جميع أعمال النفس في مرضاة الله، وتحت هذا معان جمَّة هي جماع الإسلام، نحصرها في عشرة:

المعنى الأول: تمام العبودية لله تعالى، وذلك بألا يُعبد غير الله، وهذا إبطال للشرك؛ لأن المشرك بالله غير الله لم يُسلم نفسه لله، بل أسلم بعضها .

المعنى الثاني: إخلاص العمل لله تعالى، فلا يلحظُ في عمله غير الله تعالى، فلا يُرائي، ولا يصانع فيما لا يُرضي الله، ولا يقدِّم مرضاة غير الله تعالى على مرضاة الله .

الثالث: إخلاص القول لله تعالى، فلا يقول ما لا يَرضى به الله، ولا يصدر عنه قولٌ إلا فيما أذن الله في أن يقال، وفي هذا المعنى تجيء الصراحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، على حسب المقدرة والعلم، والتصدي للحجة لتأييد مراد الله تعالى، وهي صفة امتاز بها الإسلام، ويندفع بهذا المعنى النفاق، والملق، قال تعالى في ذكر رسوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[ص: ٨٦] .

الرابع: أن يكون ساعيًا لتعرُّف مراد الله تعالى من الناس، ليُجريَ أعماله على وفقه، وذلك بالإصغاء إلى دعوة الرسل المخبِرين بأنهم مرسلون من الله، وتلقيها بالمتأمل في وجود صدقها، والتمييز بينها وبين الدعاوى الباطلة، بدون تحفُّز

---

(١) الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ٢٠٧) .

للتكذيب، ولا مكابرة في تلقي الدعوة، ولا إعراضٍ عنها بداعي الهوى وهو الإفحام، بحيث يكون علمُه بمراد الله من الخلق هو ضالته المنشودة .

الخامس: امتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه، على لسان الرسل الصادقين، والمحافظة على اتباع ذلك، بدون تغيير ولا تحريف، وأن يذود عنه من يريد تغييَره .

السادس: ألا يجعل لنفسه حُكماً مع الله فيما حكم به، فلا يتصدى للتحكم في قبول بعض ما أمر الله به، ونبذ البعض، كما حكى الله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴾ [النور: ٤٨ ، ٤٩]، وقد وصف الله المسلمين بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ ﴾[الأحزاب: ٣٦]، فقد أعرض الكفار عن الإيمان بالبعث؛ لأنهم لم يشاهدوا ميّتا بُعث .

السابع: أن يكون متطلِّبًا لمراد الله مما أشكل عليه فيه، واحتاج إلى جرْيه فيه على مراد الله: بتطلبه من إلحاقه بنظائره التامة التنظير بها علم أنه مراد الله، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾[النساء:٨٣]، ولهذا أدخل علماء الإسلام حكم التفقه في الدين، والاجتهاد، تحت التقوى المأمور بها، في قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [التغابن : ١٦] .

الثامن: الإعراض عن الهوى المذموم في الدين، وعن القول فيه بغير سلطان: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ ﴾[القصص: ٥٠] .

التاسع: أن تكون معاملة أفراد الأمة بعضها بعضًا، وجماعاتها، ومعاملتها الأمم كذلك، جاريةً على مراد الله تعالى من تلك المعاملات .

العاشر: التصديق بما غُيب عنا، مما أنبأنا الله به: من صفاته، ومن القضاء والقدر، وأن الله هو المتصرف المطلق " انتهى[1] .

أقول: وقد بينت آية آل عمران أن إسلامهم سبب لهدايتهم، فإن هم أسلموا فقد " ظفروا بالهداية التي هي الحظ الأكبر، وفازوا بخيري الدنيا والآخرة "[2] .

" فالهدى يتمثل في صورة واحدة، هي صورة الإسلام، بحقيقته تلك وطبيعته، وليس هنالك صورة أخرى، ولا تصور آخر، ولا وضع آخر، ولا منهج آخر يتمثل فيه الاهتداء .. إنما هو الضلال والجاهلية والحيرة والزيغ والالتواء "[3] .

الفئة الثانية: المؤمنون أصلًا، الذين استجابوا لله والرسول، ودخلوا في الدين، وآمنوا بالله تعالى، وصدقوا رسوله ومصطفاه، ومن هذا الباب ما ورد من طلب الهداية في سورة الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة:٦]، فما المراد بالهداية هنا ؟

وقد اختلفت أقوال أهل التفسير - رحمهم الله - في المراد بالهداية هنا على أقوال، حاصلها:

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٠٣، ٢٠٤) .

(٢) فتح القدير (١/ ٣٧٤) .

(٣) في ظلال القرآن (١/ ٣٨١) .

القول الأول: الإلهام والتوفيق والثبات عليها، أي: وفقنا للثبات على الهداية، رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن جبريل عليه السلام قال لمحمد ﷺ: " قل يا محمد: اهدنا الصراط المستقيمَ " يقول: ألهمنا الطريق الهادي[(١)] .

ونقل السمرقندي رحمه الله في تفسيره[(٢)] عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ يعني: ثبتنا عليه .

وهذا المعنى ذهب إليه جماعة من المفسرين - رحمهم الله -[(٣)]: كالطبري، والزجاج، والنسفي، وابن عادل الحنبلي وآخرين .

واستشهد الطبري رحمه الله لمعنى التوفيق والإلهام بقول الشاعر:

لا تَحْرِمَنِّي هَـدَاكَ الله مَسْـألتِي   وَلا أكُونَنْ كمن أوْدَى به السَّفَرُ

يعني: وفقك الله لقضاء حاجتي .

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٦٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣٠)، وإسناده ضعيف؛ لعلتين: العلة الأولى: ضعف أحد الرواة، وهو: بشر بن عمارة الخثعمي الكوفي ضعفه البخاري، والنسائي، وابن حبان، وابن حجر، وقال عند الدارقطني: متروك .
انظر ترجمته في: التاريخ الكبير للبخاري (٢/ ٨٠)، وتهذيب الكمال (٤/ ١٣٧، ١٣٨)، والتقريب (ص:١٢٣) .
العلة الثانية: الانقطاع بين الضحاك بن مزاحم، وابن عباس .
قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٨) عندما ذكر هذا الإسناد قال: " فإن في إسناده ضعفًا وانقطاعًا " .

(٢) بحر العلوم (١/ ١٨) .

(٣) انظر: جامع البيان (١/ ١٦٦)، ومعاني القرآن للزجاج (١/ ٤٩)، ومدارك التنزيل (١/ ٣٢)، واللباب في علوم الكتاب (١/ ٢٠٣) .

القول الثاني: الدلالة والإرشاد، أي: " دلنا على الصراط المستقيم وأرشدنا إليه، وأرنا طريق هدايتك الموصِّلة إلى أنسك وقربك "(١).

وإليه ذهب السمرقندي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن وآخرون – رحمهم الله –(٢).

وجمع بينهما بعض المفسرين: " دُلَّنا عليه، واسلكْ بنا فيه وثبِّتنا عليه "(٣).

يقول ابن القيم رحمه الله في تفسير الآية الكريمة: " هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة.

ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه، وتزيينه في قلبه، وجعله مؤثرًا له، راضيًا به، راغبًا فيه.

هما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلًا وإجمالًا، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلق القدرة لنا على القيام لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هاهنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ١٤٧).

(٢) انظر: بحر العلوم (١/ ١٨)، ومعالم التنزيل (١/ ٥٤)، وتفسير السمعاني (١/ ٣٨)، والجامع لأحكام القرآن (١/ ١٤٧)، ولباب التأويل (١/ ٢٠).

(٣) المحرر الوجيز (١/ ٨٩)، وانظر: تفسير السمعاني (١/ ٣٨)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٥١)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٩).

وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلًا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته، ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوته الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة .

فمن كملت له هذه الأمور، كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام"[1].

القول الثالث: الزيادة، أي: زدنا هدىً، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾[محمد:٢٦]، أي: " وأما الذين وفَّقهم الله لاتباع الحقّ، وشرح صدورهم للإيمان به وبرسوله من الذين استمعوا إليك يا محمد، فإن ما تلوته عليهم، وسمعوه منك﴿ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ يقول: زادهم الله بذلك إيمانًا إلى إيمانهم، وبيانًا لحقيقة ما جئتهم به من عند الله إلى البيان الذي كان عندهم "[2] .

---

(١) التفسير القيم (ص :١٣)، ومدارج السالكين (١/ ٣٢) .

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ١٧٠)، وزيادة الإيمان ونقصانه وردت فيه نصوص كثيرة من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ ، ومن ذلك مثلًا: قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾[الفتح : ٤]، وقوله تعالى:﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾[المدثر : ٣١]، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[التوبة : ١٢٤، ١٢٥]، وقوله جل في علاه في وصف المؤمنين:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال : ٢] .

وفي الحديث المشهور الصحيح الثابت عن عدد من أصحاب النبي ﷺ كأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وأبي هريرة وغيرهم - رضوان الله عليهم- أن النبي ﷺ قال: " يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال حبة من إيمان " . حديث أنس: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، برقم: (٤٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة، برقم: (١٩٣)، وحديث جابر: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة، برقم: (١٩١)، وحديث أبي هريرة: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، برقم: (٦٥٧٣) ، وألفاظهم متقاربة .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن " أي: كامل الإيمان . رواه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب النهبى بغير إذن صاحبه، برقم: (٢٤٧٥)، ومسلم ، كتاب الإيمان، باب بيان نقص الإيمان بالمعاصي، برقم: (٧٥) .

قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (١٠/ ٣٤): " وحمل أهل السنة الإيمان هنا على الكامل؛ لأن العاصي يصير أنقص حالًا في الإيمان ممن لا يعصي "، إلى غيرها من النصوص الكثيرة في القرآن والسنة .

وهذه النصوص في مجملها تدل " بدلالة الالتزام على أنه ينقص أيضاً؛ لأن كل ما يزيد ينقص "، قال البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٦٠) بعد أن ذكر جملة من الآيات التي صرّحت بزيادة الإيمان: " فثبت بهذه الآيات أن الإيمان قابل للزيادة، وإذا كان قابلًا للزيادة فعدمت الزيادة كان عدمها نقصانًا " انتهى .

وهذا القول مروي عن أصحاب النبي ﷺ كأبي الدرداء، وأبي هريرة، وابن عباس .. وغيرهم، ولم يعرف فيهم خالف - كما قال شيخ الإسلام -، وهو مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة، وخالف في ذلك: المرجئة والمعتزلة والخوارج، الذين أنكروا الزيادة والنقصان معًا، وقالوا: النقص شك، والشك كفر، فلا يزيد ولا ينقص . انظر: كتاب الشريعة للآجري، باب ذكر ما دل على زيادة الإيمان

القول الرابع: سلوك طريق الجنة، أي: أسلكنا طريق الجنة يوم المعاد، ذكره الطبري رحمه الله[1] وتعقبه بأن الحجة من أهل التفسير مجمعون على خلافه.

والذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أنه لا تعارض بين ما ذكر من أقوال، فالآية تحتمل جميعها، ولا وجه لتخصيص وجه دون آخر.

ومن الآيات الدالة على هداية المؤمنين كذلك: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩]، حيث بينت الآية الكريمة أن من آمن بالله تعالى، وعمل صالحًا هداه الله بسبب إيمانه[2]، " والباء في ﴿ بِإِيمَٰنِهِمۡ ﴾ للسببية، بحيث إن الإيمان يكون سببًا في مضمون الخبر، وهو الهداية، فتكون الباء لتأكيد السببية المستفادة من التعريف بالموصولية "[3].

ونقصانه، (٢/ ٥٨٠)، وما بعدها، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، باب جماع الكلام في الإيمان (٤/ ٨٨٩) وما بعدها، وكتاب الإيمان لابن تيمية (ص:١٧٦ وما بعدها)، وروائع التفسير (الجامع لتفسير ابن رجب الحنبلي) (٢/ ٢٧٢)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٤٦، ١٤٧)، وأضواء البيان (٢/ ٥٠، ٥١)، وكتاب زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه للدكتور/ عبد الرزاق البدر (ص٥١ وما بعدها).

(١) جامع البيان (١/ ١٦٩).

(٢) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٤/ ٢١٨): " يحتمل أن تكون الباء ها هنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يَجُوزُه ويَخلصوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة ".

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٠١).

وقد اختلف العلماء - رحمهم الله - في بيان المراد من الهداية في هذه الآية كذلك على أقوال[(١)]:

القول الأول: الهداية إلى الجنة، أي: " كما هداهم اليوم إلى معرفته من غير ذريعة يهديهم غدًا إلى جنته ومثوبته من غير نصير من المخلوقين ولا وسيلة "[(٢)] .

روي عن مجاهد رحمه الله أنه قال في الآية: يكون لهم إيمانهم نورًا يمشون به[(٣)].

وقال ابن جريج رحمه الله: يَمْثُل له عمله في صورة حسنة، وريحٍ طيبة، يعارِض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك! فيجعل له نورًا من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله: ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ﴾، والكافر يَمْثل له عمله في صورة سيئة، وريح منتنة، فيلازم صاحبه ويُلازُّهُ حتى يقذفه في النار[(٤)] .

وإلى هذا المعنى ذهب كثير من المفسرين، بل عزاه الواحدي رحمه الله إلى قول

---

(١) انظر: النكت والعيون (٢/ ٤٢٣)، وزاد المسير (٢/ ٣١٨)، ومفاتيح الغيب (١٧/ ٢١٣)، ولباب التأويل (٢/ ٤٣٠) .

(٢) لطائف الإشارات (٢/ ٨١) .

(٣) تفسير مجاهد (ص:٣٧٩)، وأخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٢٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٩٢٩).

(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/ ٢٨) .

المفسرين[(١)]، ويشهد لهذا المعنى آيتان:

الأولى: قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[آية:٤٣]، أي: هدانا للجنة، بدلالة السياق؛ لأن الله تعالى أشار إلى دخول أهل الجنة الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٤٢ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ثم ذكر على لسانهم أنهم يحمدونه تعالى على هذه النعمة العظيمة والمنة الكبيرة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾[الحديد: ١٢].

القول الثاني: الهداية للدين، أي: بتصديقهم بهذا الدين هداهم الله[(٢)]، وقد أشار بعض المفسرين[(٣)] إلى أن هذا على معنى التقديم، ومعناه: إن الذين يهديهم ربهم بإيمانهم حتى آمنوا وعملوا الصالحات.

---

(١) الوسيط للواحدي(٢/ ٥٤٠)، وانظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٥/ ٣٢٢٣)، ولطائف الإشارات (٢/ ٨١)، ومفاتيح الغيب (١٧/ ٢١٣)، وتفسير القرآن للعز بن عبدالسلام (٢/ ٦٣)، والتسهيل (١/ ٣٥٣).

(٢) ذكره الطبري في تفسيره ولم يعزه لأحد (١٥/ ٢٨)، وكذا البغوي في تفسيره (٤/ ١٢٢).

تنبيه: ذكر الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه أن ما بعده سقط من المخطوط، ورجعت كذلك إلى نسخة (هجر) من تفسير الطبري فلم أجد كلامًا بعد هذا القول.

(٣) انظر: بحر العلوم (٢/ ١٠٥).

وهذا المعنى قدمه الزمخشري رحمه الله في تفسيره[١]، مجوّزًا القول السابق .

قال السعدي رحمه الله جامعًا بين القولين السابقين : " أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم " . انتهى[٢] .

القول الثالث: الدوام والثبات، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[محمد : ١٧]، وقوله تعالى عن أهل الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾[الكهف: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ ﴾ [النساء : ١٣٦]" فإنما معناه: اثبتوا "[٣] .

وهذا المعنى قدمه القرطبي[٤]، وجوّزه الخازن[٥] .

قال ابن القيم رحمه الله: "فهداهم أولًا للإيمان، فلما آمنوا هداهم للإيمان، هداية بعد هداية "[٦] .

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٣٠) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٥٨، ٣٥٩) .

(٣) قاله ابن عطية في تفسيره (٣/ ١٠٧) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣١٢) .

(٥) لباب التأويل (٢/ ٤٣٠) .

(٦) الفوائد (ص: ١٣٠) .

وقد يكون للهداية معنى آخر إضافي لما تقدم ذكره في حق المؤمنين، وهو: الرضا بما قسم الله تعالى، والتسليم لأمره تعالى، وهي هداية عملية: " هداية توفيق وإعانة على القيام بوظيفة الصبر عند حلول المصائب، إذا علم أنها من عند الله، فرضي وسلم وانقاد "(١)، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾[التغابن: ١١]، أي: " ومن يصدّق بالله، فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله، بذلك ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ يقول: يوفِّق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه "(٢)، " وهذا الخبر في قوله: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ إيماءٌ إلى الأمر بالثبات والصبر عند حلول المصائب؛ لأنه يلزم من هدي الله قلب المؤمن عند المصيبة: ترغيب المؤمنين في الثبات والتصبر عند حلول المصائب، فلذلك ذُيل بجملة: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فهو تذييل للجملة التي قبلها، واردٌ على مراعاة جميع ما تضمنته من أن المصائب بإذن الله، ومن أن الله يهدي قلوب المؤمنين للثبات عند حلول المصائب .. .

وفيه كناية عن مجازاة الصابرين بالثواب؛ لأن فائدة علم الله التي تُهِمُّ الناس هو: التخلق، ورجاء الثواب ورفع الدرجات "(٣) .

وأقوال أهل العلم والتفسير في تفسير الآية الكريمة تدور حول اليقين،

---

(١) تيسير اللطيف المنان (١/ ٤٩) .

(٢) جامع البيان (٢٣/ ٤٢١) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٨٠) .

والصبر، والرضا بما قسم الله[(١)]، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسير الآية: " يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه "[(٢)] .

وقال الأعمش رحمه الله: عن أبي ظبيان قال: كنا عند علقمة، فقرئ عنده هذه الآية، فسئل عن ذلك، فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم[(٣)]، وفي هذا المعنى حديث النبي ﷺ: " عَجَبًا لأمر الْمُؤْمِنِ، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء، شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر ، فكان خيرًا له "[(٤)] .

ويتلخص مما تقدم أن الهداية لا تتحقق إلا للمؤمن، وبعد إيمانه يطلب الهداية كذلك للثبات عليها، والزيادة منها، للوصول إلى المأمول، وهو: رضا رب العالمين، ودخول جنته .

---

(١) انظر: بحر العلوم (٣/ ٤٥٧)، والهداية إلى بلوغ النهاية (١٢/ ٧٥٠٨)، والوسيط للواحدي (٤/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ومعالم التنزيل (٨/ ١٤٢)، والمحرر الوجيز (٥/ ٣١٩)، وزاد المسير (٤/ ٢٩٣)، والجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٣٩)، وتفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦٢)، وفتح القدير (٥/ ٢٨٣)، وأضواء البيان (٨/ ٢٠٢) .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٤٢١)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ١٨٤) وعزاه كذلك إلى ابن المنذر .

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٤٢١) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، باب أمر المؤمن كله خير، من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه برقم: (٢٩٩٩) .

المطلب الثاني: تقوى الله تعالى والاستجابة لأوامره تعالى:

تقوى الله تعالى من أهم سبل تحقيق الهداية القرآنية، لذا أمر الله تعالى به في مواضع كثيرة من كتابه بلغت نيفًا وخمسين موضعًا، وهذا التكرار لا يدل إلا على فضل وأهمية تقوى الله جل وعلا، وأنها سبب الفلاح في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[آل عمران : ٢٠٠] .

يقول الإمام الطبري رحمه الله : " يعني تعالى ذكره بذلك: واتقوا الله أيها الناس، فاحذروه، وارهبوه بطاعته، فيما أمركم به من فرائضه، واجتناب ما نهاكم عنه؛ لتفلحوا فتنجحوا في طلباتكم لديه، وتدركوا به البقاءَ في جَنَّاته والخلودَ في نعيمه "[1] .

---

(١) جامع البيان (٣/ ٥١٦) . **فائدة:** ثلاث آيات كريمات من كتاب الله تعالى ربطت الفلاح بالتقوى، ولا شك أن في هذا دلالة على أهمية تقوى الله تعالى، وأنها سبب مهم من أسباب الهداية، والآيات هي:

١ / قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[البقرة : ١٨٩].

٢/ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[آل عمران: ١٣٠] .

٣/ الموضع الثالث هو المذكور في المتن .

وإن المتأمل في هذه المواضع يجدها جاءت بعد تشريع (أمر ونهي)، فالمؤمن الحق هو الذي يتق الله تعالى في هذه الأوامر فيأتي بها كما أمر الله، ويتق الله فيما نهى الله عنه فيجتنبها، يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٨٦): " اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه لعلكم تفلحون غدًا إذا وقفتم بين يديه، فيجازيكم على التمام والكمال " .

فالآية الكريمة فيها أمر من الله تعالى لعباده " بالصبر، وهو حال الصابر في نفسه .

والمصابرة: مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مفاعلة، تستدعي وقوفها بين اثنين، كالمشاتمة والمضاربة، فهي حال المؤمن في الصبر مع خصمه .

والمرابطة: وهي الثبات واللزوم، والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ولا يصابر، ويرابط من غير تعبد بالتقوى .

فأخبر تعالى أن ملاك ذلك كله: التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها "[(١)] .

فالفلاح سبب للنجاة يوم القيامة، ولا يكون ذلك إلا لمن اهتدى في الدنيا، لذا ربط الله تعالى بينهما في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة : ٥] أي: اهتدوا في الدنيا بهدي القرآن والسنة، فنجوا يوم القيامة وفلحوا وفازوا .

وعليه؛ فإن من اتقى الله تعالى، واتبع أوامره، واجتنب نواهيه، هداه الله تعالى بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[المائدة : ١٥ ، ١٦] .

فهذه الآية الكريمة أشارت إلى أن للقرآن الكريم الكثير من الفوائد، ومنها:

" **الفائدة الأولى: أنه يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام**، أي: إن من

---

(١) التفسير القيم (ص: ٢٢١) .

اتبع منهم ما يُرضيه تعالى بالإيمان بهذا النور، يهديه - هداية دلالة تصحبها العناية والإعانة – الطرق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة من كل ما يُرديه ويُشقيه، فيَقُوم في الدنيا بحقوق الله تعالى، وحقوق نفسه الروحية والجسدية، وحقوق الناس، فيكون متمتعاً بالطيبات، مجتنبًا للخبائث، تقيًّا مخلصًا، صالحًا مصلحًا، ويكون في الآخرة سعيداً مُنعمًا، جامعًا بين النعيم الحسي الجسدي، والنعيم الروحي العقلي ..

الفائدة الثانية: الإخراج من ظلمات الوثنية، والخرافات والأوهام التي أفسد بها الرؤساء جميع الأديان، واستعبدوا أهلها، إلى نور التوحيد الخالص الذي يُحرر صاحبه من رقِّ رؤساء الدين والدنيا، فيكون بين الخلق: حرًّا كريمًا، وبين يدي الخالق وحده عبدًا خاضعًا ...

الفائدة الثالثة: الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين، في أقرب وقت؛ لأنه طريق لا عوج فيه ولا انحراف، فيبطئ سالكه، أو يضلُّ في سيره، وهو أن يكون الاعتصام بالقرآن على الوجه الصحيح الذي أنزله الله تعالى لأجله .. "[1].

وعليه؛ فإن التقوى التي تنفع صاحبها، وتكون سببًا لفلاحه ونجاحه هي القائمة " على استحضار القلب لعظمة الله تعالى، واستشعار هيبته وجلاله وكبريائه، والخشية لمقامه، والخوف من حسابه وعقابه، وإذا كان هذا معنى التقوى، فإن نطاقها لا ينحصر في اجتناب الكبائر فحسب، بل إنه يمتد ليشمل

---

(١) تفسير المنار (٦/ ٢٥٣).

كل ما فيه معنى المخالفة لأوامر الله، حتى لو كان من اللمم أو الصغائر "(١) .

وأقوال العلماء في بيان المراد من التقوى تدور حول معنى: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، يقول ابن رجب الحنبلي رحمه الله: " وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه، أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه، من غضبه، وسخطه، وعقابه، وقاية تقيه من ذلك، وهو: فعل طاعته واجتناب معاصيه "(٢) .

وقيل: إن عمر بن الخطاب ﷺ سأل أبيَّ بن كعب ﷺ عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما عملت: قال: شمَّرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى(٣) .

وذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله(٤) أنّ ابن المعتز أخذ هذا المعنى فقال:

خـل الذنـوب صـغيرها وكـبيرها ذاك التـقى
واصـنع كمـاش فـوق أرض الشـوك يـحـذر ما يـرى
لا تـحـقـرنَّ صـغـيرةً إنَّ الـجِـبال مـن الـحصـى

---

(١) آيات التقوى في القرآن الكريم، للدكتور/ حسين علي خليف الجبوري (ص:١٠)، وهو بحث متعدد الأغراض في التقوى بمعانيها المختلفة كما وردت في القرآن الكريم، منشور على الشبكة العنكبوتية، في موقع صيد الفوائد ، على العنوان التالي :

http://www.saaid.net/book/open.php?cat=101&book=3733

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٨) .

(٣) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٥) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (الموضع السابق) .

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الحديد: ٢٨] فبينت الآية أن الله تعالى ضمن لهم " بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته، نصيبًا في الدنيا، ونصيبًا في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة ، فيصير نصيبين .

الثاني: أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات .

الثالث: مغفرة ذنوبهم .

وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سببًا لكل يسر، وترك التقوى سببًا لكل عسر "[1] .

وبنحو هذا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الأنفال : ٢٩]، فدلت الآية على أن المتقين " هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الكونية .

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق، فالمتقون حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها، ليست هداية حقيقية تامة "[2] .

وقد رتب الله تعالى على التقوى ثلاثة أمور[3]:

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص:٥٨) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٠) .

(٣) انظر: المصدر السابق (ص : ٣١٩) .

الأول: يجعل له فرقانًا، والفرقان هو: العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة .

الثاني: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب .

الثالث: الأجر العظيم، والثواب الجزيل، حيث ختمت الآية بـ: ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ . وكما أن التقوى نافعة للمرء في دينه ودنياه، فهي نافعة كذلك لذريته من بعده، فمن خاف على ذريته فخير ضمانة يحفظهم بها: أن يتقيَ الله تعالى ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[النساء : ٩] .

ويتلخص مما تقدم: أن التقوى من أهم الأسباب التي تؤدي إلى تحقيق الهداية في قلب المسلم، بل: " هي الزاد الدائم في الحياة، وهي قمة المكارم الأخلاقية، والفضائل الحسنة التي يتصف بها الإنسان؛ لأنه من خلالها تتشعب جميع الصفات المحمودة، فهذه الفضيلة أراد بها الله تعالى في القرآن أن تحكم علاقة الإنسان بهذا الوجود وما فيه، وبين الإنسان وخالقه، لذلك تدور هذه الكلمة ومشتقاتها في أكثر آيات القرآن الأخلاقية والاجتماعية، والمراد بها: أن يتقي الإنسان ما يغضب ربه، وما فيه ضرر لنفسه أو إضرار لغيره "(١) .

اللهم ارزقنا تقواك، وخشيتك في الغيب والشهادة ... .

---

(١) مقالة بعنوان: « التقوى طريق الله في الحياة الإنسانية » لـ د. ناصر الحق، نقلها عنه لـ د. حسين ابن علي خليف الجبوري، في بحث له بعنوان : « آيات التقوى في القرآن الكريم » (ص: ٥) .

المطلب الثالث: الاستجابة لرسول الله ﷺ واتباع هديه:

القرآن الكريم عندما ذكر الهداية مقرونة بالنبي ﷺ ذكرها من ناحيتين[(١)]:

الناحية الأولى: هداية النبي ﷺ للمدعوين:

وهذه الهداية أثبتها القرآن الكريم للنبي ﷺ في مواضع، ونفاها عنه في مواضع أخرى، فمن الهداية المثبتة: قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى: ٥٢] .

ومن الهداية المنفية: قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[القصص:٥٦]، وقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[البقرة:٢٧٢] .

وليس في هذه المواضع تعارض أو تنازع؛ لأنه تقدم معنا أن الهداية أنواع، فالهداية المنفية عن النبي ﷺ هي أحد أنواع الهداية، وهي: هداية التوفيق والإلهام، وهداية القلوب، وأما الهداية المثبتة فهي هداية الدلالة والإرشاد والبيان[(٢)] .

وقد أجمع المفسرون[(٣)] على أن قوله سبحانه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ

---

(١) أشار إليهما صاحب كتاب: الهداية في القرآن الكريم، لـ د. العباس بن الحازمي (ص: ١١٩).

(٢) انظر: الانتصار للقرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني (٢/ ٦٤٠)، وبدائع الفوائد (٢/ ٣٧)، وشفاء العليل (ص:٥٣)، وأضواء البيان (٦/ ١٥٤)، وتيسير الكريم الرحمن (ص:٦٢٠)، وتيسير اللطيف المنان (ص:٣١٢)، وتفسير الفاتحة والبقرة لابن عثيمين (١/ ٥٣)، وإعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (١/ ٢٥٨) .

(٣) كذا قال الزجاج في معانيه (٤/ ١٤٩) .

ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ نزلت في شأن عم رسول الله ﷺ أبي طالب، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ لعمه عند الموت: " قُلْ لا إِلَهَ إِلا الله، أَشْهَد لَكَ بِها يَوْمَ القِيامَةِ " قال: لولا أن تعيرني قريش لأقررت عينك، فأنزل الله الآية[(١)] .

وفي الصحيحين من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة، دخل عليه رسول الله ﷺ، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أميّة، فقال: " أي عم، قل معي: لا إله إلا الله، أحاجُّ لك بها عند الله "، فقال أبو جهل وابن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فلم يزالا يكلّمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم به: أنا على ملَّة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: " لأستغفرنّ لك ما لم أُنه عنك "، فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾ الآية [التوبة:١١٣]، ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾[(٢)] .

والآية وإن كانت نازلة في عم النبي ﷺ إلا أن لفظها دال على العموم[(٣)]، فهذا اللفظ " من العام النازل على سبب خاص ، فيعمُّه وغيرَه "[(٤)] .

ومثل هذا المعنى في القرآن الكريم كثير، كما جاء في قوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ:

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٥٩٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٩٩٤) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، برقم: (٣٨٨٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، برقم: (٣٩) .

(٣) انظر: التسهيل (٢/ ١١٦) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٤٧) .

﴿ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[يونس : ٤٣]، أي: " أفأنت يا محمد! تحدث لهؤلاء الذين ينظرون إليك وإلى أدلتك وحججك، فلا يوفَّقون للتصديق بك أبصارًا، لو كانوا عُمْيًا يهتدون بها ويبصرون؟ فكما أنك لا تطيق ذلك ولا تقدر عليه ولا غيرك، ولا يقدر عليه أحدٌ سواي، فكذلك لا تقدر على أن تبصِّرهم سبيلَ الرشاد، أنت ولا أحدٌ غيري، لأن ذلك بيدي وإليّ "[(١)] .

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾[الرعد : ٤٠]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾[النمل:٨١] .

وهذه الآيات ومثيلاتها توجب الإيمان الجازم بأن الله تعالى بيده مقاليد الأمور كلها، يفعل ما يشاء، ويختار من شاء، " وأن جميع الخلق مسخرون بإرادته وتدبيره، خاضعون لسننه وتقديره، لا يملك أحد منهم لنفسه ولا لغيره شيئًا إلا في دائرة الأسباب التي جعلها بينهم شرعًا، وأن الوساطة بين الله تعالى وعباده محصورة في تبليغ رسالته إليهم، دون تصرفه فيهم، وأن شفاعة الآخرة لله وحده، يأذن لمن شاء إذا شاء بما شاء من الدعاء لمن يشاء ممن ارتضى "[(٢)] سبحانه .

وصدق الله إذ يقول: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾[آل عمران :١٥٤]، ويقول تعالى مخاطبًا نبيه وخليله ﷺ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾[آل عمران : ١٢٨]، ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف : ١٨٨] .

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٩٦) .

(٢) تفسير المنار (٧/ ٣٤٣) .

فإذا كان حبيب الله وخليله ﷺ لا يملك النفع والضر إلا بإرادته سبحانه، فهل يملكه غيره؟

يقول ابن تيمية رحمه الله: " وهذا تحقيق التوحيد، مع أنه ﷺ أكرم الخلق على الله وأعلاهم منزلة عند الله "(١) .

الناحية الثانية: أن طاعة النبي ﷺ، والاستجابة له، ومتابعة هديه ﷺ سبب من أسباب الهداية، وفي تقرير هذا وردت نصوص عديدة في القرآن الكريم، إلا أن المتأمل لهذه النصوص يجد أنها سارت على اتجاهين:

الاتجاه الأول: تحقيق الهداية لمن أطاع النبي ﷺ، واتبع أوامره، ومما ورد في ذلك:

١/ قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[النور: ٥٤] دلت الآية على أن طاعة النبي ﷺ سبب للهداية التي يتحصل عليها المرء، فيفهم من هذا: أن من لم يطع النبي ﷺ حرمها، فجعل سبحانه الاهتداء مقرونًا بطاعته .

يقول الطبري رحمه الله: " وإن تطيعوا أيها الناس رسول الله ﷺ فيما يأمركم وينهاكم ترشدوا، وتصيبوا الحقّ في أموركم "(٢) .

والسياق القرآني لهذه الآية الكريمة يبين دلالة أكيدة أن الفلاح في الدنيا، والفوز والنجاة في الآخرة لا يكون إلا بطاعة النبي ﷺ، واتباع أوامره، والسير

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٣٠٣) .

(٢) جامع البيان (١/ ٢٠٧)، وانظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٨/ ٥١٤٠)، والجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٩٦) .

على منواله وطريقه، فقد جاءت عقب الحديث عن موقف طائفتين من طاعة النبي ﷺ: المنافقين، والمؤمنين.

ففي المنافقين يقول سبحانه مبينًا إعراضهم عن اتباع النبي ﷺ: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [النور: ٤٧ـ ٥٠].

وفي المؤمنين يقول تعالى تزكية في استجابتهم للرسول ﷺ واتباع أوامره: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النور: ٥١-٥٤).

روي عن بعض السلف أنه كان يقول: " مَنْ أمَّر السُّنَّة على نفسه قولًا وفعلًا، نطق بالحكمة، ومن أمّر البدعة الهوى على نفسه قولًا وفعلًا، نطق بالبدعة "[(١)].

٢/ قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٨] دلت الآية على أن الهداية متعلقة باتباع النبي ﷺ، فمن أرادها فعليه بالاتباع.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٠٣)، ونقله شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابيه: «الاستقامة» (١/ ٩٧)، و «الحسنة والسيئة» (ص:٢٦) عن أبي عثمان النيسابوري.

يقول الطبري رحمه الله: " فاهتدوا به أيها الناس، واعملوا بها أمركم أن تعملوا به من طاعة الله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ يقول: لكي تهتدوا فترشدوا وتصيبوا الحقّ في اتّباعكم إيّاه ".

وهذه الآية الكريمة جاءت في سياق الحديث عن قوم موسى عليه السلام، وموقفهم من نبيهم، وتكذيبهم إياه، بعد أن نجاهم الله على يديه من الطاغية فرعون، فاتخذوا العجل إلاها من دون الله وقت غياب نبيهم موسى عليه السلام، ثم يخبر القرآن بعد ذلك ما حصل عندما عاد موسى عليه السلام ورأى من قومه ما رأى وغضبه الشديد مما حصل منهم: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾[الأعراف: ١٥٠ – ١٥٢].

ثم لما هدأ موسى، وسكت عنه الغضب، لجأ إلى ربه ومولاه، طالبًا المغفرة والصفح عمن وقع في الظلم: ﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ الآيات .

ثم تبين الآيات أن موسى عليه السلام طلب من ربه الحسنة في الدنيا والآخرة ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ بين القرآن بعد

ذلك صفات عباده المستحقين لرحمته تبارك وتعالى، فذكر من صفاتهم:

أنهم المتقون، الذين يؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا۟ النُّورَ الَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦- ١٥٧].

ثم جاء الأمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٨].

فالمؤمنون بالله، المتبعون لهدي رسول الله هم المهتدون حقًّا.

ولسيد قطب رحمه الله كلام لطيف في ختام هذه الآيات، حيث يقول: " وهذا النداء الأخير في هذا التعقيب يتضمن لفتات دقيقة ينبغي أن نقف أمامها لحظات:

إنه يتضمن ابتداء ذلك الأمر بالإيمان بالله ورسوله .. وهو ما تتضمنه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، في صورة أخرى من صور هذا المضمون الذي لا يقوم بدونه إيمان ولا إسلام، ذلك أن هذا الأمر بالإيمان بالله سبقه في الآية التعريف بصفاته تعالى: ﴿ الَّذِي لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ

﴿وَيُمِيتُ﴾ فالأمر بالإيمان هو أمر بالإيمان بالله الذي هذه صفاته الحقة، كما سبقه التعريف برسالة النبي ﷺ إلى الناس جميعًا .

ثم يتضمن ثانية أن النبي الأمي صلوات الله وسلامه عليه يؤمن بالله وكلماته، ومع أن هذه بديهية، إلا أن هذه اللفتة لها مكانها ولها قيمتها، فالدعوة لا بد أن يسبقها إيمان الداعي بحقيقة ما يدعو إليه، ووضوحه في نفسه، ويقينه منه، لذلك يجيء وصف النبي، المرسل إلى الناس جميعًا بأنه: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾، وهو نفس ما يدعو الناس إليه ونصه .

ثم يتضمن أخيرًا لفتة إلى مقتضى هذا الإيمان الذي يدعوهم إليه، وهو اتباعه فيما يأمر به ويشرعه، واتباعه كذلك في سنته وعمله، وهو ما يقرره قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، فليس هناك رجاء في أن يهتدي الناس بما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ إلا باتباعه فيه، ولا يكفي أن يؤمنوا به في قلوبهم ما لم يتبع الإيمان الاتباع العملي، وهو الإسلام .

إن هذا الدين يعلن عن طبيعته وعن حقيقته في كل مناسبة، إنه ليس مجرد عقيدة تستكن في الضمير، كما أنه كذلك ليس مجرد شعائر تؤدى وطقوس، إنما هو الاتباع الكامل لرسول الله ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وفيما يشرعه ويسنه، والرسول لم يأمر الناس بالإيمان بالله ورسوله فحسب، ولم يأمرهم كذلك بالشعائر التعبدية فحسب، ولكنه أبلغهم شريعة الله في قوله وفعله .

ولا رجاء في أن يهتدي الناس إلا إذا اتبعوه في هذا كله، فهذا هو دين الله، وليس لهذا الدين من صورة أخرى إلا هذه الصورة التي تشير إليها هذه اللفتة:

﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾بعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله، ولو كان الأمر في هذا الدين أمر اعتقاد وكفى، لكان في قوله: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الكفاية "(١).

وقبل أن تمضي الآيات الكريمات، يقرر القرآن الكريم حقيقة مهمة عن قوم موسى ﷺ، وهي: أنهم لم يكونوا جميعًا ضالين، بل فيهم المتبع المهتدي: ﴿ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾ .

الاتجاه الثاني: نفي الهداية عمن أعرض عن الاستجابة لرسول الله ﷺ، وابتعد عن اتباع هديه ﷺ، يقول تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[القصص: ٥٠] .

ما سبق ذكره يبين ويوضح أن من أهم أسباب هداية الله تعالى لعباده: اتباع رسول الله ﷺ، وقد وقع ذلك صراحة في القرآن الكريم، كما تقدم بيانه، مما يدل بالمفهوم على أن من لم يستجب لرسول الله ﷺ، ورفض اتباعه وعصاه فقد حرم الهداية وكان من أصحاب الغواية والضلال .

وفي هذه الآية الكريمة يقرر القرآن أن من لم يستجب لرسول الله ﷺ فإنما يتبع هواه، ومن اتبع هواه أضله الله، وقرر ذلك على جهة البيـان، أي: لا أحد أضـل

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٨٣٠) .

منه[١]، والمعنى: " إن لم يستجيبوا لدعوتك، أي: إلى الدين بعد قيام الحجة عليهم بهذا التحدي، فاعلم أن استمرارهم على الكفر بعد ذلك، ما هو إلا اتباع للهوى، ولا شبهة لهم في دينهم "[٢].

يقول الطبري رحمه الله: " فإن لم يجبك هؤلاء القائلون للتوراة والإنجيل: سحران تظاهرا، الزاعمون أن الحقّ في غيرهما من اليهود يا محمد، إلى أن يأتوك بكتاب من عند الله، هو أهدى منهما، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، وأن الذي ينطقون به ويقولون في الكتابين، قول كذب وباطل، لا حقيقة له .. وَمَنْ أَضَلُّ عن طريق الرشاد، وسبيل السداد ممن اتبع هوى نفسه بغير بيان من عند الله، وعهد من الله، ويترك عهد الله الذي عهده إلى خلقه في وحيه وتنزيله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يقول تعالى ذكره: إن الله لا يوفق لإصابة الحقّ وسبيل الرشد القوم الذين خالفوا أمر الله وتركوا طاعته، وكذّبوا رسوله، وبدّلوا عهده، واتبعوا أهواء أنفسهم إيثارًا منهم لطاعة الشيطان على طاعة ربهم "[٣].

ويدخل في هذا كل " من اتبع ذوقًا أو وجدًا بغير هدى من الله، سواء كان ذلك عن حب أو بغض، فليس لأحد أن يتبع ما يُحبهُ فيأمر به ويتخذه دينًا،

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٤/ ٢٩١) . أشار أبو السعود في تفسيره إرشاد العقل السليم (٧/ ١٨) إلى أن قوله: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ ﴾ " استفهام إنكاري للنفي، أي: لا أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، أي: هو أضل من كل ضال، وإن كان ظاهرُ السبك لنفي الأصل، لا لنفي المساواة " . وانظر: محاسن التأويل (٧/ ٥٢٦)، وروح البيان (٦/ ٤١٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٣٩) .

(٣) جامع البيان (١٩/ ٥٢٩)، وانظر: تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢١٩) .

وينهى عمَّا يبغضه ويذمه، ويتخذ ذلك إلا بهدى من الله، وهو شريعة الله التي جعل عليها رسوله، ومن اتبع ما يهواه حبًّا وبغضًا بغير الشريعة فقد اتبع هواه بغير هدى من الله "(١).

فالله تعالى قسم الناس: " إلى مستجيبين للرسول، ومتبع هواه، فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة وعدل عنها إلى خلافها فقد اتبع هواه، وهذا أكثر من أن يذكر، والمقصود: أن الواجب على الخلق بعد وفاته، هو الواجب عليهم حياته سواء .. "(٢).

والآيات القرآنية في ذم اتباع الهوى كثيرة وعديدة، منها: قوله تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[المؤمنون:٧١]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾[المائدة: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴾[محمد: ١٤-١٦].

يقول الله تعالى مخاطبًا نبيه الكريم ﷺ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الجاثية : ١٨]، ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[الأنعام : ١٥٠].

---

(١) الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٢٥٤).

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية (٤/ ١٥٢٧)، وانظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين له كذلك (ص:٤٠٤، ٤٠٥).

ومثل هذا في القرآن الكريم كثير، وسيأتي مزيد إيضاح حول هذه المسألة إن شاء الله في موانع الهداية .

المطلب الرابع: اتباع أصحاب النبي ﷺ والاقتداء بهديهم:

الأسوة الحسنة في الإسلام، تحتل مكانة مرموقة وعالية، ولمكانتها البالغة، وأهميتها الكبرى، أمر الله نبيه ﷺ أن يتأسى ويقتدي بالأنبياء من قبله، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾[الأنعام : ٩٠] .

والأسوة اسم لما يؤتسى به، أي: يقتدى به، ويعمل مثل عمله[١]، والاقتداء: الاتباع، والسير على سنن من يُتخذ قدوة، أي: مثالًا يُتبع[٢] .

ولا شك أن حاجة الناس إلى القدوة والأسوة، مطلب غريزي لديهم، لذا أمر الله تعالى الناس أن يقتدوا بمن ينفعهم في دينهم ودنياهم، وعلى رأسهم سيد ولد آدم ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾(الأحزاب: ٢١).

فهذه الآية كما يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره: " أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله، وأفعاله، وأحواله "[٣]، وتقرر قاعدة منهجية: " ينبغي أن يسير عليها كل مسلم راغب في الخلق الفاضل، وفي الخير بعامّةٍ، وهي أن

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٠٢) .

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/ ٢٠٩٦)، وتفسير المنار(٧/ ٤٩٦)، والتحرير والتنوير (٧/ ٣٥٦) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥٠) .

يتأسى برسول الله ﷺ، ويقتدي به في كل شيء؛ لأنه هو المربي الكامل، وهو الأستاذ في الأخلاق والدين .

إن التأسي بالرسول الكريم يستطيعه كل أحد، الكبير والصغير، والعالم والمتعلم والجاهل، وضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ يتناول هؤلاء كلهم، ويشمل المسلمين جميعًا "[١] .

وتكمن أهمية القدوة الحسنة، من خلال ما تثيره في النفوس من إعجاب وانبهار، مما يؤدي إلى التقليد والتشبه بالشخص المقلَّد، وعليه فكلما كان الشخص المقلَّد زكيًّا نقيًّا كان المقلِّد كذلك، فيؤدي إلى تقويم السلوك، وتحسين الأخلاق والأعمال .

" والقدوة الحسنة لَهَا أعظم الأثر فِي النُّفُوس، وتأثيرها أعظم من تَأْثِير الْخطب، والمقالات، والكتابات، وَهَذَا مِمَّا يُثبتهُ الْوَاقِع، وتدركه الْعُقُول .

وَلِهَذَا كَانَ النَّبِي ﷺ يتَمَثَّل حَقِيقَة الإسلام بَين أَصْحَابه، فِي قدوة حَسَنَة، يقرن الْفِكر بِالْعَمَلِ، ويربط النظرية بالتطبيق، وَيقدم الْمَعَانِي حقائق حَيَّة، فيُهتدى بِعَمَلِهِ قبل قَوْله، وبفعله قبل علمه، وَيكون أَمَام أَصْحَابه تجسيدًا حَيًّا لدعوته، ومثلًا صَرِيحًا على مبادئه، وَكَانَ ﷺ يَأْمر الصَّحَابَة بالاقتداء بِهِ، فَيَقُول: " وصلّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي "[٢]، ويقول:" لتأخذوا مناسككم "[٣] بل إنه ﷺ تعمد مرة أن

---

(١) الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها، لعبد الله بن ضيف الله الرحيلي (ص:٤٥) .

(٢) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر ..، برقم: (٦٣١) .

(٣) رواه مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة راكبًا، برقم: (١٢٩٧) .

يصلِّي مرتفعًا ليراه أصحابه"[١]، فيتقدوا به ويتبعوه، ويسيروا على منواله وطريقته .

ويرجع عبد الرحمن الميداني أثر القدوة الحسنة في تقويم السلوك لأسباب ثلاثة، هي:

السبب الأول: أن في فطرة الإنسان ميلًا قويًّا للمحاكاة والتقليد، الأمر الذي يسهل عليه تعلم الأعمال الراقية، التي لم تصل إلى معرفتها الأجيال السابقة إلا بعد تطوير كثير، اعتمد على الاختبار، والتجربة، والتحسين، واختيار الأفضل .

السبب الثاني: أن المثال الحي، الذي يتحلى بجملة من الفضائل السلوكية، يعطي غيره قناعة بأن بلوغها من الأمور التي هي في متناول القدرات الإنسانية .

السبب الثالث: إن المثال الحي، المرتقي في درجات الكمال السلوكي، يثير في الأنفس الاستحسان والإعجاب . انتهى[٢] .

ولا أزكى وأنقى - بعد الأنبياء والمرسلين، الذين أمرنا باتباعهم، والتأسي بهم- ، من أصحاب النبي ﷺ، الذين خالطوا سيد المربين، وإمام المرسلين ﷺ، فصفت قلوبهم، وارتقت نفوسهم، وعلا شأنهم، رضي الله عنهم وأرضاهم، وزكاهم على الملأ: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا

(١) وقفات مع أحاديث تربية النبي ﷺ لصحابته، لعبد الرحمن بن عبد الكريم الزيد، ضمن منشورات مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة السادسة والثلاثون، العدد: (١١٢) عام ١٤٢٤هـ (ص:١٣٠) .

(٢) باختصار من كتاب: الحضارة الإسلامية أسسها ورسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها، ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، لعبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني (ص:٨٤ ، ٨٥) .

﴿فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح : ١٨]، فوصفهم الله تعالى بأحسن الصفات، وذكرهم بأفضل الخلال، وأحسن الأخلاق، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٨، ٩] .

وفي قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل: ٥٩] بيان من الله تعالى أن هؤلاء القوم اصطفاهم الله تعالى لنبيه، واجتباهم لخليله، " فجعلهم أصحابه ووزراءه على الدِّين الذي بعثه بالدعاء إليه "(١)، فهم أكمل الخلق بعد أنبياء الله ورسله، وأرشدهم سلوكًا، وأحسنهم طريقًا .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ، ثم قلنا: لو جلسنا حتى نُصليَ معه العشاء، قال: فجلسنا، فخرج علينا، فقال: " ما زلتم هاهنا؟ " قلنا: يا رسول الله! صلينا معك المغرب، ثم قلنا نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: " أحسنتم، أو أصبتم "، قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيرًا مما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: " النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى

(١) جامع البيان (١٩/ ٤٨٢) .

أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ"[١].

لذا جاء في القرآن الكريم ما يرشد الناس إلى الاقتداء بهم، والتأسي بسيرهم، ومن فعل ذلك فطريقه الهداية، ومن لم يسلك مسلكهم، ويسير على طريقهم ومنوالهم فقد ضلوا وهلكوا، قال الله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[البقرة: ١٣٧].

يقول الطبري رحمه الله: " فإن صدّق اليهود والنصارى بالله، وما أنزل إليكم، وما أنزل إلى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى، وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، وأقروا بذلك، مثل ما صدقتم أنتم به أيها المؤمنون وأقررتم، فقد وُفقوا ورَشِدوا، ولزموا طريق الحق واهتدوا "[٢].

ويقول ابن كثير رحمه الله: "﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ ﴾: يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، ﴿ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾ أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه .. "[٣].

وأما إن كان التقليد والتأسي منبعه الهوى، والتقليد الأعمى البعيد عن الحجة

---

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب أن بقاء النبي صلى الله عليه وسلم أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة، ح:٢٥٣١، (٤/ ١٩٦١).

(٢) جامع البيان (٣/ ١١٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٢٢)، وانظر: تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٨).

والاستدلال، فهو الفساد الكبير، والخطأ الجسيم، المؤدي إلى الهلاك والضلال، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[القصص: ٥٠]، أي: لا أحد أضل من هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم، ويسيرون على غير مرضاة الله تعالى، وقد تقدم الحديث عن هذه الآية في المطلب السابق، إلا أن الحديث هنا عن هذه الآية من باب التقليد المبني على الهوى .

يقول فخر الدين الرازي رحمه الله: " وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد، وأنه لا بد من الحجة والاستدلال"[1]، ونحو هذا قاله الفخر الرازي عند آيات عديدة، ومنها:

قوله تعالى: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾[2] [آل عمران:١٥١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾[3] [طه: ١٥، ١٦] .

وفي قصة إبراهيم عليه السلام من سورة الشعراء عندما حاج أباه وقومه في آلهتهم

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤ / ٦٠٦)، وانظر: محاسن التأويل (٧/ ٥٢٦) .

(٢) قال رحمه الله في تفسيره (٩/ ٣٨٥): " هذه الآية دالة على فساد التقليد، وذلك لأن الآية دالةٌ على أن الشرك لا دليل عليه فوجب أن يكون القول به باطلًا .. " .

(٣) حيث قال رحمه الله في تفسيره (٢٢/ ٢٣): " أما قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾فالمعنى: أن منكر البعث إنما أنكره اتباعًا للهوى لا لدليل، وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد؛ لأن المقلد متبع للهوى لا الحجة " .

التي يعبدونها من دون الله، لم يجدوا جوابًا إلا أن يقولوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[1] [الشعراء : ٧٤] .

فالقدوة قد تكون صالحة فتصبح سببًا للهداية، وقد تكون سيئة فتصبح سببًا للغواية .

فنسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يرزقنا حسن الاقتداء، بأهل الخير، والبر، والإحسان .. وأن يعيذنا من الاقتداء بأهل الغواية، والشر، والطغيان .

---

(١) قال الفخر الرازي عند تفسير هذه الآيات من سورة الشعراء (٢٤/ ٥١٠): " فعند هذه الحجة القاهرة لم يجد أبوه وقومه ما يدفعون به هذه الحجة، فعدلوا إلى أن قالوا: وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد، ووجوب التمسك بالاستدلال، إذ لو قلبنا الأمر فمدحنا التقليد، وذممنا الاستدلال؛ لكان ذلك مدحاً لطريقة الكفار التي ذمها الله تعالى ، وذمًّا لطريقة إبراهيم عليه السلام التي مدحها الله تعالى " .

المطلب الخامس: الدعاء بطلب الهداية والثبات عليها:

فضل الدعاء عظيم، وأثره كبير، لذا حث الله عباده المؤمنين بملازمته في كافة شؤون حياتهم، وحض عليه النبي ﷺ أمته، فالدعاء هو العبادة[(١)]، لذا كان " أولى ما انصرفت إلى حفظه عناية ذوي الهمم، وأحق ما اهتدي بأنواره في غياهب الظُّلَم، وأنفع ما استدرت به صنوف النعم، وأمنع ما استدرئت به صروف النقم، ما كان بفضل الله تعالى لأبواب الخير مفتاحًا، وبنص رسول الله ﷺ للمؤمنين سلاحًا، وذلك التحميد والثناء، والتمجيد والدعاء، أمر الله تعالى به في كتابه، وفيه رغب رسوله الكريم، وإليه جنح المرسلون والأنبياء، وعليه عول الصالحون والأولياء .. "[(٢)].

وما من شك أن أسمى المطالب التي يسعى العبد إليه، ويحرص على تحقيقه هو الاهتداء بالقرآن الكريم، والوصول إلى مرضاة رب العالمين، وهذا مما لا يمكن تحقيقه إلا بإرادته سبحانه ومشيئته: ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

---

(١) كما صح ذلك عن النبي ﷺ من حديث النعمان بن بشير ﷺ، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠] قال: " الدعاء هو العبادة " . رواه ابن ماجه في سننه، أبواب الدعاء، باب فضل الدعاء، برقم: (٣٨٢٨)، والترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب: ومن سورة البقرة، برقم: (٢٩٦٩)، وقال: " هذا حديث حسن صحيح "، وأبو داود في سننه، باب تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، برقم: (١٤٧٩)، وصححه الألباني في صحيح السنن .

(٢) مقدمة كتاب سلاح المؤمن في الدعاء والذكر، لمحمد بن محمد بن همام، المعروف بابن الإمام، بتحقيق: محيي الدين مستو (ص:٢٥) .

مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة:٢١٣]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ [الحج:١٦].

وعليه؛ فإن من أهم أسباب تحقيق الهداية هو سؤال رب العالمين، والتضرع إليه، واللجوء إليه سبحانه حتى يصل بأمره تعالى إلى تحقيق الهداية في حياته، وقد بين القرآن الكريم أن طلب الهداية من الله تعالى من صفات عباده المؤمنين وأوليائه المتقين، قال تعالى على لسانهم: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة:٦] وهذا الطلب في مفتتح سور القرآن الكريم الذي ضمن الله تعالى لمن طلبه خالصًا خاشعًا الاستجابة له وتحقيق الهداية في قلبه، فقال تعالى في الحديث القدسي: " هذا لعبدي ولعبدي ما سأل "(١)، وعند مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضًا فوقه، فرفع رأسه فقال جبريل عليه السلام: " هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم " فنزل منه ملك ، فقال: " هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم " فسلم، وقال: " أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته "(٢) .

وقد جاء الوعد في القرآن الكريم من ربٍّ رحيم، بأن من اجتهد، وجاهد، وصابر، في طلب الهداية وغيرها، فإن الله تعالى " لا يحرمه منها، بل يعينه

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ، كتاب الصلاة، باب قراءة الفاتحة في كل ركعة، برقم: (٣٩٥) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، برقم: (٨٠٦) .

عليها "[١]، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[العنكبوت : ٦٩]، والجهاد: مبالغة في الجَهْدِ، إذا جد في عمله، وتكلف فيه تعبًا، ويجوز أن يكون المراد به هنا: قتال المشركين، كما ذكر ذلك جماعة من المفسرين[٢]، إلا أن الأظهر -والله تعالى أعلم - أن الجهاد هو: الصبر على الفتن والأذى، ومدافعة كيد العدو، وهو الذي ذُكر في أول هذه السورة المكية: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ ﴾ [العنكبوت : ٦] "إذ لم يكن يومئذ جهاد القتال "[٣].

والآية الكريمة عامة في كل من اجتهد في طلب الحق، وسعى للوصول إلى مرضاة الرب، واتخذ السبل والوسائل الشرعية لتحقيق ذلك، ومن ضمن هذه الوسائل: الدعاء، فإن الله تعالى سيجزيه على حسن طلبه، بتحقيق مراده بإذنه ومشيئته، حتى يدخل الاطمئنان قلب " كل من يتجه إلى هدى الله، أن مشيئة الله ستقسم له الهدى، وتؤتيه الحكمة، وتمنحه ذلك الخير الكثير"[٤].

فإذا كان ذلك كذلك كان الاعتصام بالله تعالى، واللجوء إليه سبحانه من أهم وأعظم الأسباب، لتحقيق الهداية بهذا الكتاب، للوصول إلى مرضاة رب

(١) في ظلال القرآن (١/ ٣١٢).

(٢) انظر: جامع البيان (٢٠/ ٦٣)، والهداية إلى بلوغ النهاية (٩/ ٥٦٥٠)، والوجيز للواحدي (ص: ٨٣٧)، وضعفه ابن جزي في التسهيل (٢/ ١٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٦،٣٧)، وانظر: بحر العلوم (٢/ ٦٤١)، ومعالم التنزيل (٦/ ٢٥٦)، والجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣٦٤).

(٤) في ظلال القرآن (الموضع السابق).

الأرباب ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[آل عمران: ١٠١] .

روي عن قتادة رحمه الله أنه قال في تفسير الآية: علَمان بيِّنان: وُجْدان نبي الله ﷺ، وكتابُ الله، فأما نبيّ الله فمضى ﷺ، وأما كتاب الله فأبقاه الله بين أظهُركم، رحمة من الله ونعمة، فيه حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته[(١)] .

حتى إذا ما تحققت الهداية في قلب المؤمن، تضرع إلى ربه سبحانه، واجتهد في طلب الثبات على الهدى، وعدم الرجوع والانتكاس، كما بينه القرآن الكريم فذكر أن من صفات أولي الألباب والعقول والأفهام: التضرع إلى الله تعالى بأن يثبت قلوبهم، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[آل عمران: ١٨] .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: " يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم "[(٢)]، أي: اطلبوا مني الهداية أهدكم[(٣)]، " وهذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئًا من ذلك كله، وأن من يتفضل الله عليه بالهدى والرزق فإنه

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٦١)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٨٠)، وعزاه كذلك إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم .

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم: (٢٥٧٧) .

(٣) انظر: شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص:٨٨)، وشرح الأربعين لابن عثيمين (ص: ٢٣٩) .

يُحرمهما في الدنيا، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه، أوبقته خطاياه في الآخرة "(١).

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة واقتداء، فقد كان ﷺ - مع اصطفاء الله له واجتبائه - يستفتح صلاته في قيام الليل بطلب الهداية، كما صح ذلك من حديث عائشة بأنها قالت: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: " اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "(٢).

وعند النسائي وغيره من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا استفتَح الصلاة كبَّر، ثم قال: " إنَّ صَلاتي ونُسكي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لله ربِّ العَالمين، لا شريكَ لهُ، وَبِذَلك أُمرتُ وأنا أَوَّلُ المُسلمين، اللهم اهْدِنِي لأحْسَنِ الأعْمَالِ، وأحسنِ الأخْلاقِ، لا يَهْدي لأحْسَنِها إلاَّ أنْتَ، وَقِنِي سَيِّئَ الأَعْمَالِ وَسَيِّئَ الْأَخْلَاقِ لاَ يَقِي سَيِّئَهَا إلاَّ أَنْتَ "(٣).

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٣٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم: (٧٧٠).

(٣) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الافتتاح، باب الدعاء بين التكبير والقراءة، برقم: (٨٩٦)، وإسناده صحيح، فقد قواه الذهبي في تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق (١/ ١٤٢)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٢٦٠)، وفي الباب عن علي بن أبي طالب ﷺ مرفوعاً بلفظ أطول منه، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم: (٧٧١).

ومن جهة أخرى فإن الله تعالى ذم من لم يتخذ الدعاء وسيلة للنجاة، وطريقًا إلى مرضاته تعالى، فقال سبحانه بعد أن أمر عباده بالدعاء ووعد بالإجابة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠]، وفي ختام الآيات التي تحدثت عن عباد الرحمن وصفاتهم في سورة الفرقان، ختم الله تعالى تلك الآيات كذلك بالوعيد الشديد لمن ترك الدعاء، فقال سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[الفرقان: ٧٧] .

فنسالك اللهم بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى الهداية والثبات عليها حتى المات، اللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ..

المطلب السادس: التوبة والإنابة إليه سبحانه وتعالى:

يقول ابن القيم رحمه الله: " التّوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدّين كلّه داخل في مسمّى التّوبة، وبهذا استحقّ التائب أن يكون حبيب الله، فإنّ الله يحبّ التّوّابين ويحبّ المتطهّرين، وإنّما يحبّ الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه .

فإذًا التّوبة هي الرّجوع عمّا يكرهه الله ظاهرا وباطنا إلى ما يحبّه ظاهرًا وباطنًا، ويدخل في مسمّاها الإسلام، والإيمان، والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كلّ مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، وهي الغاية الّتي وجد لأجلها الخلق، والأمر والتّوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الّذي عليه بناؤها ..

ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم[١]، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها "[٢] .

هذا الاستهلال لهذا المطلب من كلام ابن القيم رحمه الله يبين أهمية التوبة والإنابة، فهما أساس كل خير، ومنبع كل هداية، فمن أراد الهداية وسعى إليها فأول الطرق وأقصر السبل إلى تحقيقها الرجوع إلى الله تعالى، والإنابة إليه

---

(١) إشارة إلى حديث: " لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة، ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عنده "، أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، برقم: (٦٣٠٨)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، برقم: (٢٧٤٤) .

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣١٣) .

سبحانه، والتوبة من كبائر الذنوب وصغائرها، يقول تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[الزمر: ٥٣، ٥٤] .

قال ابن كثير رحمه الله: " وهذه الآية التي في سورة تنزيل مشروطة بالتوبة، فمن تاب من أي ذنب، وإن تكرر منه، تاب الله عليه، ولهذا قال: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾أي: بشرط التوبة، ولو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه، ولا يصحُّ ذلك؛ لأنه تعالى قد حكم هاهنا[١] بأنه لا يغفر الشرك، وحكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء، أي: وإن لم يتب صاحبه، فهذه أرجى من تلك[٢] من هذا الوجه -والله أعلم- "[٣] .

وقال كذلك عند تفسير هذه الآيات الكريمات: " هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة، من الكفرة وغيرهم، إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة؛ لأن الشرك لا يُغفر لمن لم يتب منه "، ثم أعقب ذلك بذكر عدة أحاديث دالة على هذا المعنى، ثم قال

---

(١) يشير إلى آية النساء رقم: (٤٨) وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾الآية .

(٢) يقصد أن آية النساء أرجى من آية الزمر من هذا الوجه، والله تعالى أعلم .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٩١) .

رحمه الله: " فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفرُ جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطَنَّ عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾[التوبة: ١٠٤] " انتهى(١).

وقد دلت نصوص القرآن الكريم على أن التوبة والإنابة من أسباب الهداية، فإن من تاب إلى الله وأناب إليه سبحانه فقد هدي إلى الصراط المستقيم، وكان مصيره الفلاح والنجاة يوم لقاء رب العالمين، بإذن المولى الكريم، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾[الرعد: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[الشورى : ١٣]، وقال عزّ وجلّ: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[النور : ٣١].

وإن المتأمل لهذه النصوص يجد أن بعضها جاءت بلفظ الإنابة، وبعضها بلفظ التوبة، فهل يفرق بينهما أم هما بمعنى واحد؟

قبل الحديث عن الفرق بينهما يجدر بنا معرفة أصل كلتا الكلمتين في لسان العرب:

فالتوبة في اللغة: مصدر مشتق من آب يؤوب إذا رجع أو عاد، قال ابن فارس رحمه الله: " التاء والواو والباء كلمة واحدة تدل على الرجوع، يقال: تاب من ذنبه، أي: رجع عنه، يتوب إلى الله توبة ومتابًا، فهو تائب، والتوب التوبة"(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٩٥، ٩٦).

(٢) معجم مقاييس اللغة (١/ ٣٥٧)، وانظر: الصحاح (١/ ٩٢)، ولسان العرب (١/ ٢٣٣).

أما في الاصطلاح فقد اختلفت ألفاظ العلماء مع تقاربها:

فعرفها الإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله بقوله: " ترك الذّنب لقبحه، والنّدم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال بالإعادة "[(١)] .

وأما الجرجاني رحمه الله فعرف التوبة بأنها هي: " الرجوع إلى الله بحلّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب "[(٢)] .

وعرفها ابن القيم رحمه الله بقوله: " الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يُحبُّ، وترك ما يكره "[(٣)] .

وأما الإنابة فأصلها النوب، والنون والواو والباء أصل واحد، تدل على اعتياد مكان، والرجوع إليه، كما قال ابن فارس في معجمه .

يقال: ناب إلى الله تعالى: إذا أقبل، وتاب، ورجع إلى الطاعة، وأناب: تاب ورجع[(٤)] .

قال الجرجاني رحمه الله: " الإنابة: إخراج القلب من ظلمات الشبهات، وقيل: الإنابة: الرجوع من الكل إلى من له الكل، وقيل: الإنابة الرجوع من الغفلة إلى الذكر، ومن الوحشة إلى الأنس "[(٥)] .

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص:١٦٩) .

(٢) التعريفات (ص:٧٠) .

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣١٣) .

(٤) انظر: مقاييس اللغة (٥/ ٣٦٧)، والصحاح (١/ ٢٢٩)، وتاج العروس (٤/ ٣١٥) .

(٥) التعريفات (ص:٣٧) .

مما تقدم ذكره يتبين - والله أعلم - أن الإنابة أعلى درجة من التوبة، فالتوبة هي الرجوع من الذنب إلى الطاعة، أما الإنابة فتتضمن ذلك وأكثر، وهذا ما يفهم من كلام ابن القيم رحمه الله: " قد علمت أن من نزل من منزل التوبة، وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام، فإن التوبة الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها، ولكن لا بد من إفرادها بالذكر والتفصيل، تبيينًا لحقائقها وخواصها وشروطها.

فإذا استقرت قدمه في منزل التوبة نزل بعده منزل الإنابة، وقد أمر الله تعالى بها في كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾[الزمر: ٥٤]، وقال: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴾ [هود : ٧٥]، وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة، فقال: ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ إلى أن قال:﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾[ق:٦-٨].. " الخ[1] .

وجاء في كتاب: « نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم » في بيان الفرق بينهما: بأن التوبة تقال لمن خاف العقاب، ولمن يتوب بطمع الثواب يقال عنه صاحب إنابة .

" فالتّوبة صفة عامّة المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور:٣١]، والإنابة صفة الأولياء والمقرّبين الذين يخشون ربهم بالغيب، قال تعالى: ﴿ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴾[ق:٣٣]"[2] .

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٣٢) .

(٢) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٤/ ١٢٦٩-١٢٧٢) .

وما تقدم ذكره من حديث عن الإنابة، فإنما يعود على إنابة الأولياء والصالحين؛ لأن الإنابة إنابتان: " إنابة لربوبيته، وهي: إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾[الروم : ٣٣]، فهذا عام في حق كل داع أصابه ضرٌّ، كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تُجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم ... لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٣-٣٤]، فهذا حالهم بعد إنابتهم .

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة .

وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع .. "[١]، وهذه هي الإنابة النافعة التي تحقق الهداية بأمر الله تعالى .

والناس في الإنابة لربهم على درجات[٢]:

فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي .

ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات .

فنسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يرزقنا توبة نصوحًا قبل الممات، وأن يجعلنا من عباده المنيبين المتقين، وأن يكتبنا في جملة المهتدين .

---

(١) مدراج السالكين (٤/ ٤٣٣) .

(٢) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم (ص: ١٧٣)، والهداية في القرآن للحازمي (ص: ١٢٩،١٣٠) .

المطلب السابع: تلاوة القرآن الكريم وتدبره:

القرآن الكريم في ذاته كتاب هداية، هداية الخالق سبحانه لإصلاح الخلق، أنزله المولى تعالى؛ ليهتدي الناس به إلى الطريق القويم، والصراط المستقيم، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩]، ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ٢] .

فهذه النصوص القطعية، وغيرها، من كتاب الله تعالى، تؤكد هذه الحقيقة وتبينها أوضح بيان، ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٣]، فمن أهم أسباب تحقيق الهداية في قلب المؤمن: القرآن الكريم، ولا يتم ذلك إلا من خلال: كثرة قراءته، وتدبر آياته، واتباع أوامره، واجتناب نواهيه، فـ " من تمسك بالقرآن الكريم في جميع شؤونه، فقد اهتدى كل الهدى، ومن اهتدى بهدى الله فقد فاز في دنياه وأخراه "(١) .

والله تعالى قد سمى كتابه نورًا: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[المائدة: ١٥]؛ " لأنّ القلوب لا تضيء ولا تشرق إلا بتلاوة القرآن والعمل به "(٢)، فإذا فعل المرء ذلك وصل للهداية التي كتبها الله تعالى ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة:١٦]، فإذا أشرق نور

(١) التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلمين، للشيخ الدكتور/ عبد الله بن عمر الشنقيطي (ص: ١٧) .

(٢) موسوعة الأخلاق، لخالد بن جمعة الخراز (ص:٨٤) .

القرآن في القلب، وذلك بكثرة تلاوته، وتدبره، حصلت الهداية بأمر الله تعالى، وتحقق موعود الله جل وعلا .

يقول سيد قطب رحمه الله: " لا بد لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن أن يجيء إليه بقلب سليم، بقلب خالص، ثم أن يجيء إليه بقلب يخشى ويتوقى، ويحذر أن يكون على ضلالة، أو أن تستهويه ضلالة، وعندئذ يتفتح القرآن عن أسراره وأنواره، ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه متقيًا، خائفًا، حساسًا، مهيئًا للتلقي .. "[(١)] .

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ إشارة إلى أن هذا القرآن هو هدى وشفاء للمؤمنين، يجدون ذلك في آياته وكلماته، وكلما أكثر المرء من تلاوة القرآن بتدبر وتعقل كان ذلك أدعى لتحقيق الهداية في قلبه، وزيادة إيمانه[(٢)] .

والله سبحانه يقرّر هذا على لسان الحبيب المصطفى ﷺ، فيقول تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾[سبأ: ٥٠] أي: إن استقمت على الحق والهدى، فبوحي الله الذي يوحِي إلي من آياته، وتوفيقه للاستقامة على محجة الحق وطريق الهدى[(٣)] ، فالقرآن الكريم هو: " مادة هدايتي، كما هو مادة هداية غيري "[(٤)] .

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٣٩) .

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، لعبد لكريم يونس الخطيب (١٢/ ١٣٣١) .

(٣) انظر: جامع الطبري (٢٠/ ٤٢٠)، بحر العلوم (٣/ ٩٦)، والهداية إلى بلوغ النهاية (٩/ ٥٩٣٩)، وتفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٦٦) .

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٨٣) .

وفي سؤال للشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله حول أسباب تحقيق الهداية، أجاب بقوله: " الهداية لها أسباب، منها: سؤال الله والضراعة إليه في طلب الهداية وطلب التوفيق، وانشراح الصدر للحق ..، ومن أسباب الهداية: الإكثار من قراءة القرآن وتدبر معانيه، فإن الله جعله سبب الهداية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾، ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ فالإكثار من قراءة القرآن بالتدبر والتعقل والإقبال بالقلب عليه من أسباب الهداية .. "[1] .

فنسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وذهاب همومنا وغمومنا، وأن يرزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيه عنا .. اللهم آمين .

(١) الموقع الرسمي للشيخ/ عبد العزيز بن باز رحمه الله على الشبكة العنكبوتية:
http://www.binbaz.org.sa/mat/17379

المطلب الثامن: العلم والعمل:

العلم فضله عظيم، وأمره جليل، فضله الله تعالى على كل شيء، وقدمه حتى على القول والعمل[(١)]، قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾[محمد: ١٩]، وذلك أن العلم الحقيقي، المبني على كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ[(٢)] نور وضياء؛ فالعالم يستنير بنور القرآن، ويستضيء بضياء

---

(١) بوب البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾، فبدأ بالعلم، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقًا يطلب به علمًا، سهل الله له طريقًا إلى الجنة .

(٢) ابن عبد البر رحمه الله بوب في كتابه القيم « جامع بيان العلم وفضله » (١/ ٧٥١ – ٧٨٥) باب بعنوان: باب معرفة أصول العلم وحقيقته، وما الذي يقع عليه اسم الفقه والعلم مطلقًا، وأورد تحت هذا الباب جملة من الأحاديث الدالة على فضل العلم وأهله، ثم ذكر جملة من آثار السلف عن ماهية العلم المرادة هنا في هذا الباب، ومن ذلك مثلًا:

ـ قول الشافعي رحمه الله: ليس لأحد أن يقول في شيء حلال ولا حرام إلا من جهة العلم، وجهة العلم ما نصَّ في الكتاب أو في السنة، أو في الأجماع، فإن لم يوجد في ذلك ، فالقياس على هذه الأصول ما كان في معناها .

ـ قال بقية بن الوليد رحمه الله: قال لي الأوزاعي يومًا: يا بقية! العلم ما جاء على أصحاب محمد ﷺ، وما لم يجئ عن أصحاب محمد ﷺ فليس بعلم، يا بقية! لا تذكر أحدًا من أصحاب محمد نبيك ﷺ إلا بخير، ولا أحدًا من أمتك، وإذا سمعت أحدًا يقع في غيره فاعلم أنه إنما يقول: أنا خير منه . وغيرها من النقولات الكثيرة، التي ختمها ابن عبد البر بقوله: "وأما أصول العلم:فالكتاب والسنة"، وانظر: إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، لصالح العمري، المعروف بالفُلاني المالكي (ص:٢٥،٢٦)، وكتاب الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام للألباني (ص: ٧٩) .

سنة المصطفى العدنان، فيعبد الله تعالى على بينة وهدى وبصيرة، كما هي عادة وسنة الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾[يوسف:١٠٨]، أي: أنا وأتباعي على بصيرة، " فأهل العلم هم أهل البصيرة الذين نوَّر الله قلوبهم فميزوا الحق من الباطل "[(١)].

والبصيرة هي: العلم واليقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية، والدليل الواضح الذي لا لبس في الحق معه، والمعرفة التي تميز فيها بين الحق والباطل[(٢)]، " فبصيرته ﷺ مقتبسة من نور القرآن، تلقاه هو من وحي الله، وتلقيناه نحن من تبليغه من ربه وربنا، مؤيَّدًا بالحجة والبرهان، وإنما المحروم من نوره من يتلقى عقيدته، وعبادته من غيره "[(٣)].

فالعلماء هم ورثة الأنبياء، كما صحَّ النبي ﷺ أنه قال: " من سلك طريقًا يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ

---

(١) بصائر في الفتن، لمحمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم (ص:٢٦) .

(٢) انظر: جامع البيان (١٦/ ٢٩١)، ومعالم التنزيل (٤/ ٢٨٤)، ومدارج السالكين (٢/ ٤٥١)، وتيسير الكريم الرحمن (ص:٤٠٦)، وأضواء البيان (١/ ٤٦٣) .

(٣) تفسير المنار (١٢/ ١٩١) .

بحظ وافر"[(١)] .

ولمكانة العلم العالية في الإسلام قرنه الله تعالى بالإيمان، ورتب عليه الأجر ورفعة الدرجات في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[المجادلة:١١]، أي: يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين،على الذين لم يؤتوا العلم درجات،كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)] .

وهذا المعنى محمول على أن قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾صفة لـ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾أي: يرفع الله المؤمنين العلماء درجات .

ويحتمل أن تكون جملة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ في محل نصب مفعول به ثان لـ: ﴿يَرْفَعِ﴾، أي: يرفع الله المؤمنين، ويرفع الذين أوتوا العلم، يقول ابن جزي المالكي: " يرفع الله المؤمنين والعلماء الصنفين جميعًا درجات .

فالدرجات على الأول للمؤمنين بشرط أن يكونوا علماء، وعلى الثاني للمؤمنين الذين ليسوا علماء، وللعلماء أيضًا، ولكن بين درجات العلماء وغيرهم تفاوت يوجد في موضع آخر، كقوله ﷺ: " فضل العالم على العابد كفضل القمر

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، برقم: (٢٦٨٢)، وأبو داوود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، برقم: (٣٦٤١)، وابن ماجه في سننه، كتاب الإيمان، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم: (٢٢٣)، وأحمد في مسنده (٣٦/ ٤٥-٤٦)، برقم: (٢١٧١٥)، كلهم من حديث أبي الدرداء ﷺ، وصححه الألباني في صحيح السنن .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٤٤)، برقم: (١٨٨٤٧)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٨٣) وعزاه أيضًا إلى: سعيد بن منصور، وابن المنذر .

ليلة البدر على سائر الكواكب"(١)، وقوله ﷺ: " فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلًا "(٢).

فإذا كان لهم فضل على العابدين والشهداء، فما ظنك بفضلهم على سائر المؤمنين "(٣).

ومع هذا الفضل العظيم للعلم، إلا أن هذا الفضل لا يتحقق بكماله إلا إذا جاء بلازمه، وهو العمل، فثمرة العلم العمل الصالح، والعلم الشرعي يقتضي العمل به، وقد كان أصحاب النبي ﷺ يحرصون على العلم والعمل معًا، فقد روي عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا: يقترؤون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل(٤).

وأخرج ابن عبد البر عن معاذ بن جبل ﷺ قال: " اعلموا ما شئتم أن تعلَموا،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، برقم: (٢٦٨٥)، وأحمد في مسنده (٣٦/ ٤٨)، برقم: (٢١٧١٦) كلاهما من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ.

والحديث حسنه الترمذي، والألباني في صحيح الترغيب والترغيب، برقم: (١/ ١٩)، (٨١).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٥٤).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب فضائل القرآن، في تعليم القرآن كم آية (١٠/ ٤٦٠)، وعبدالرزاق في المصنف بنحوه، كتاب فضائل القرآن، باب تعليم القرآن وفضله (٣/ ٣٨٠)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٦٥)، باب السؤال عن الفقه، رواه أحمد، وفيه عطاء بن السائب اختلط في آخر عمره، وصححه أحمد شاكر.

فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا "[١]، والمقصود: " أن العمل بالعلم هو المطلوب من العباد، النافع عند قيام الأشهاد، ومتى تخلف العمل عن العلم كان حجة على صاحبه، وخزيًا وندامة يوم القيامة "[٢].

ويُروى أن سفيان الثوري رحمه الله كان ينشد متمثلًا:

إذا العلمُ لمْ تَعْمَلْ بِهِ كَانَ حجَّةً ... عَليكَ وَلم تُعذرْ بِمَا أنتَ جاهِلُهْ

فَإِن كُنتَ قَدْ أوتيتَ عِلمًا فَإِنَّمَا ... يُصدِّقُ قولُ المَرْءِ ما هو فَاعِلُهْ[٣]

وما أحسن ما قاله علي بن أبي طالب ﷺ: " هتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل "[٤].

فالعمل الصالح يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٩٣)، وأخرجه الشجري في الأمالي مرفوعًا، كما في ترتيب الأمالي للقاضي العبشمي (١/ ٨٣)، وقد رواه كذلك ابن عبد البر (١/ ٦٩٤) مرفوعًا عن النبي ﷺ من حديث عبد الرحمن بن غنم، وإسناده ضعيف، كما قال الشيخ الألباني في ضعيف الجامع الصغير (١/ ٣٦١)، برقم: (٢٤٥٣)، إلا أن الموقوف أصح من المرفوع، كما قال ابن عبد البر (الموضع السابق)، ونقل المناوي في كتابه: فيض القدير (٣/ ٢٥٣) عن الحافظ العراقي قوله: " ورواه الدرامي موقوفا على معاذ بسند صحيح ".

(٢) قاله العلائي، نقله عنه المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/ ٢٥٣).

(٣) ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ٦٩٨)، ونسبه إلى سابق البربري في شعر له مطول من البحر الطويل.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، ح٣٨، (١/ ٦٥).

﴿الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر:١٠] .

والآيات الدالة على اقتران العمل بالعمل، وأنهما سبب للهداية كثيرة في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾[يونس: ٩]، حيث قرن الله تعالى بين العلم والإيمان، ورتب عليهما الهداية .

وقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[النحل: ٩٧]، وفي سورة العصر يقول عزّ وجلّ: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ .. ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾[فصلت : ٣٠]، وبمعناه حديث النبي ﷺ: " قل آمنت بالله فاستقم "[(١)] .

وعليه فإن العلم إذا صاحبه العمل نفع وأثمر وأينع، فالعلماء الربانيون العاملون هم المهتدون؛ لأنهم أشد الناس خشية من الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر : ٢٨]، أي: لا يخشى الله تعالى إلا عالم؛ لأنهم علموا حقيقة الإيمان بالله، وتيقنوا من موعود الله، فأخلصوا لله العمل، وجدوا في سبيل مرضاة الله، واجتهدوا في الإتيان بأوامر الله، وترك نواهيه سبحانه، وقد قيل للشعبي رحمه الله: " أيها العالم، فقال: لسنا بعلماء، إنما العالم من يخشى الله "[(٢)] .

وعن ابن مسعود ﷺ قال: " ليس العلم عن كثرة الحديث، إنما العلم خشية

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل (ص:٣٥)، وابن عساكر في ذم من لا يعمل بعلمه (ص:٣٨) .

(٢) ذكره ابن القيم في كتابه: شفاء العليل (ص:١٧٢) .

الله "(١).

يقول ابن القيم رحمه الله: " وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالمًا إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم .. "(٢) .

فالخشية من أهم سمات العلماء وصفاتهم، لكن ينبغي التنبه إلى أن مقام الخشية جامع لمقام المحبة والرجاء، كما قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾فدلت الآية على أن " الخشية أبدًا متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قُنوطًا، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله "(٣) .

وعليه فإن العلماء العاملون هم المهتدون حقًّا؛ لأنهم يرون صدق ما أنزل، فيعملون بمقتضاه، فمن صدَّق عمل، ومن عمل آمن، ومن آمن اهتدى، يقول سبحانه: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[سبأ:٦]، فالقرآن الكريم يهدي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، والعلماء به هم المستفيدون؛ لأنهم يؤمنون حق الإيمان بهذا الكتاب،

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٥٨) .

(٢) شفاء العليل (١/ ١٧٢) .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٧/ ٢١) .

وأنه منزل من الله تعالى، فيسلكون سبيله، ويأتمرون بأوامره، ويجتنبون نواهيه، فتحصل لهم الهداية بأمر الله تعالى .

يقول السعدي رحمه الله: " لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموفقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق، أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه، فإنه باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين .

ويرون أيضا أنه في أوامره ونواهيه ﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾، وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق من أخبر به، ومن جهة موافقته للأمور الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها، التي تقع عيانًا، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها، في الآفاق، وفي أنفسهم، ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى، وأوصافه .

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره، كالصدق، والإخلاص، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك، وتنهى عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر، من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال، والأعراض .

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علمًا

وتصديقًا بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، وعمل بمتضى علمه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها "[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الحج : ٥٤] ما يؤكد أهمية العلم في تحقيق الهداية، حتى في حال بث الشبه من شياطين الإنس والجن، فإنهم يردونها بما أودع الله تعالى في قلوبهم من العلم، فيزداد إيمانهم، وتخضع قلوبهم .

وهذه الآية جاءت عقب الحديث عن وسوسة الشياطين، وزرع الشكوك في نفوس المدعوين، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ أي: أن الأنبياء والرسل يرجون اهتداء قومهم، فيبلغونهم ما ينزل إليهم من الله سبحانه، ويعظونهم بآياته، ويدعونهم بالحجة والمجادلة الحسنة، فيأتي الشيطان فيدخل في نفوس الأقوام ضلالات تفسد ما قاله الأنبياء من الإرشاد والهدى والحق والنور، فيلقي وساوسه، ويروج

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٧٥) . **تنبيه** : ذهب جماعة من المفسرين إلى أن المراد من أهل العلم في الآية الكريمة: هم مؤمنوا أهل الكتاب، أو هم أصحاب النبي ﷺ، وهذا وإن كان حقًّا إلا أن الآية أعم وأشمل، وهو ما يفهم من كلام الشيخ السعدي رحمه الله المتقدم، وغيره من أقوال المفسرين، كابن عطية في المحرر الوجيز (٤/ ٤٠٦)، والقرطبي في جامعه (١٤/ ٢٦١)، والنسفي في مدارك التنزيل (٣/ ٥٣)، وابن كثير في تفسيره (٦/ ٤٣٧) .. وغيرهم .

الشبهات والتخيلات بإلقاء الشكوك على أوليائه التي تصرف نظر العقل عن تذكر البرهان، فيجادلوه بالباطل، ويردوا ما جاء به، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٢١]، ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ أي: فيبطل الله ما يلقيه الشيطان من الشبه في نفوس الناس، بفضح وساوسه، وسوء فعله(١)، ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان(٢)، " فالله بهديه وبيانه ينسخ ما يلقي الشيطان، أي: يزيل الشبهات التي يلقيها الشيطان ببيان الله

---

(١) بتصرف من: التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٨ – ٣٠٢)، والتفسير الوسيط لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر (٦/ ١٢٣٨) .

تنبيه : أغلب كتب التفسير أوردت قصة ذكروا أنها سبب نزول هذه الآية، وهي القصة المشهورة بـ (قصة الغرانيق) وما ورد فيها من زيادة بعض الكلمات فيما تلاه النبي ﷺ من قرآن، " تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى " وسجود مشركي قريش .. إلى آخر ما ورد فيها .

وهذه القصة برواياتها المختلفة، وطرقها المتعددة لم تثبت بوجه صحيح، كما قال ذلك أهل العلم، يقول الإمام ابن خزيمة: " إن هذه القصة من وضع الزنادقة "، نقله عنه غير واحد . ويقول القاضي عياض في « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » (٢/ ١٢٥): " إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم " . ويقول الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/ ٣٩٠): " قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظنًّا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم ".

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص:٥٤٢) .

الواضح، ويزيد آيات دعوة رسله بيانًا، وذلك هو إحكام آياته، أي: تحقيقها، وتثبيت مدلولها وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلا لمن رين على قلبه "[١].

وختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: "واسع العلم، فلا يخفى عليه ما يصدر من الشيطان وأوليائه، بليغ الحكمة في رد شبهاتهم ونصر رسله وأنبيائه "[٢].

عندها بينت الآيات أن الناس ينقسمون إلى: مكذب، ومصدق .

فالمكذبون هم: مرضى القلوب، وظالموا أنفسهم ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾، فما يلقيه الشيطان، يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم، من الخبث الكامن فيها[٣] .

وأما المصدقون فهم: أهل العلم والبصيرة والنور والهدى ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية، " لأنّ الله منحهم من العلم، ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين، الحق المستقر، الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله، بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم، يقيض بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كمائن النفوس الخيرة والشريرة، ﴿ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٩) .

(٢) التفسير الوسيط (٦/ ١٢٣٩) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٤٢) .

والشبه، ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ ﴾ أي: تخشع وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم،﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾بسبب إيمانهم ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذا النوع من تثبيت الله لعبده "(١) .

وفي سورة الفاتحة يقول الله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ، فطريق الذين أنعم الله عليهم، هو طريق العلماء الربانيين، من الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وأما العلم بلا عمل، أو العمل بلا علم، فإنه يؤدي بصاحبه إلى التهلكة، وإلى سلوك سبيل غير المؤمنين، من الذين غضب الله تعالى عليهم، وأضلهم .

يقول ابن كثير رحمه الله: " والمعنى: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم: أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسله، وامتثال أوامره، وترك نواهيه وزواجره، غيرِ صراط المغضوب عليهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق .. "(٢) .

فالمغضوب عليهم: اليهود الذين وصفهم الله تعالى في كتابه بقوله:

---

(١) المصدر السابق، وانظر: تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٩٠) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٤) .

﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٦١ ، وآل عمران : ١٢]، وقوله: ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾[الفتح: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[المائدة : ٦٠]، وصفوا كذلك؛ لأنهم علموا الحق ولم يعملوا به، وبلغهم شرع الله ودينه، فرفضوه، ولم يتقبلوه؛ انصرافًا عن الدليل، ورضاءً بما ورثوه من القيل، ووقوفًا عند التقليد، وعكوفًا على هدى غير رشيد .

والضالون: النصارى الذين وصفهم الله تعالى في كتابه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[المائدة : ٧٧]، وصفوا كذلك لأنهم عملوا بلا علم، فضلوا وأضلوا .

وقد صحَّ عن النبي ﷺ تفسير الآية بما تقدم ذكره، فقد أخرج الشيخان من حديث عدي ابن حاتم ﷺ .. الحديث .

والآية وإن فسرت باليهود والنصارى - كما تقدم - إلا أن الغضب ليس خاصاً باليهود، والضلال كذلك ليس خاصًّا بالنصارى، بل كلا الفريقين ضلال مغضوب عليهم، لكن كل فريق اختص بما تميز به، وإن كان له من صفات الذم ما للآخر، ومن جانب آخر فالغضب والضلال ليس خاصًّا فقط باليهود والنصارى، بل هو عام في كل اتصف بالعمل بلا عمل، أو العلم بلا عمل[1] .

فنسألك اللهم بأن ترزقنا العلم النافع ، والعمل الصالح ...

---

(١) انظر: جامع البيان (١/ ١٨٥-١٩٥)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٥٥)، وتفسير المنار (١/ ٥٧، ٥٨)، وتفسير الشيخ ابن عثيمين لسورتي الفاتحة والبقرة (١/ ١٧) .

المبحث الثاني

موانع تحقيق الهدايات القرآنية

إعداد

د . ياسين حافظ قاري

موانع تحقيق الهدايات القرآنية

تمهيد:

فكما هو معلوم من الدين بالضرورة، أن الله تعالى لم يترك الناس هملًا، بل أرسل لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وأقام الحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة الضلال إلى نور الهداية واليقين.

فوفق الله تعالى طائفة من عباده، فاستجابوا لدعوته، واهتدوا بهديه، وضلت طائفة من الناس، فآثرت الضلال على الهدى، والغواية على الهداية، وما ذلك إلا لمانع في قلوبهم، وعائق في نفوسهم، تمكن منهم فلم يهتدوا.

والله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ بيّن هذه الموانع حق بيان، وأوضح العوائق التي تمنع صاحبها من الهداية، وتجعله يسلك سبيل الغواية.

لكن لا بد أن يُعلم: أن الهداية المنفية هي الهداية إلى الحق التي بمعنى: التوفيق والإلهام، والهداية إلى جنة الرحمن، أما الهداية التي بمعنى: الدلالة والبيان، فهي عامة لجميع الخلق، مؤمنهم وكافرهم.

وهذه الموانع تتلخص في: الكفر، والظلم، والفسق، والخيانة، وحب الدنيا وكراهية الموت، واتباع الهوى، والكذب، والكبر، والحسد.

وهذه الموانع وغيرها هي موضوع هذا المبحث إن شاء الله، حيث سأفرد كل مانع في مطلب مستقل، أجمع ما يتعلق به من نصوص القرآن والسنة، وأدرسها دراسة تفسيرية تحليلية، مبينًا وجه كونها مانعًا من موانع الهداية .

سائلًا المولى تعالى التوفيق والسداد، والبر والرشاد، اللهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي .. اللهم آمين .

المطلب الأول: الكفر:

الكفر في اللغة: يرجع إلى الستر، وتغطية ما حقه الإظهار .

قال ابن فارس رحمه الله في معجمه: " الكاف والفاء والراء: أصل صحيح يدل عل معنى واحد، وهو: الستر والتغطية، يقال لمن غطَّى درعه بثوب: قد كَفَر درعه، والمكفِّرُ: الرجل المتغطِّي بسلاحه "[(١)] .

وأما في الاصطلاح فاختلفت أقوال العلماء، وتنوعت ألفاظهم، لكنها تدور حول معنى: المضادة للإيمان بالله تعالى، ورسوله ﷺ، والجحود بما جاء به الله تعالى، ورسوله ﷺ .

يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله: " الكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة، أو ثلاثتها "[(٢)] .

ويعرفه ابن القيم رحمه الله بقوله: " الكفر جحد ما علم أن الرسول ﷺ جاء به"[(٣)] .

والكفر كما يقول أهل العلم كفران: كفر أصغر، غير مخرج من الملة: وهو ما لا يناقض أصل الإيمان، بل يضعفه وينقصه، ولهذا الكفر أنواع، ليس هذا مجال الحديث عنها .

---

(١) مقاييس اللغة (٥/ ١٩١)، وانظر: تهذيب اللغة (٥١١٠- ١١٦)، ولسان العرب (٥/ ١٤٤ – ١٤٩)، والتوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٨٢) .

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص:٧١٥) .

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (ص:٥٩٦) .

وكفر أكبر: وهو المخرج من الملة، وهذا النوع هو المقصود بنفي الهداية عن صاحبه، وله عدة أنواع بينها أهل العلم، مجملها تسعة:

كفر الإنكار، وكفر الجحود، وكفر العناد، وكفر النفاق، وكفر التكذيب، وكفر الاستكبار، وكفر الإعراض، وكفر الشك، وكفر الجهل(١) .

وعلى كلٍّ؛ فإن الكفر الأكبر وإن كان هو الضلال بعينه، إلا أن الكافر عندما رغب عن الحق بالضلال، وبالغواية عن الهداية، استحق عقوبة الله سبحانه جل وعلا بأن ران على قلبه، فلم يعرف معروفًا، ولم ينكر منكرًا، وضل عن سواء الصراط، ولم يهتد إلى الحق المبين، يقول الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[المطففين : ١٤] .

وقد تقرر في كتاب الله تعالى - كما جاء بيانه سابقًا - أن الهداية لا تتحقق إلّا

(١) ذكر بعض العلماء أن الكفر أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق، وممن ذهب إلى هذا: الأزهري في تهذيب اللغة، والبغوي في التفسير، وابن الأثير في النهاية وغيرهم، وذهب آخرون إلى أنها خمسة أنواع، هي: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر نفاق، وممن ذهب إلى هذا: ابن القيم، والشيخ محمد بن عبدالوهاب، وحافظ حكمي .. وغيرهم . وللمزيد حول هذه التقسيمات وأنواعها، ينظر: تهذيب اللغة (٥/ ١١٠،١١١)، ومعالم التنزيل (١/ ٦٤)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٨٦)، والرسالة المفيدة للشيخ محمد بن عبدالوهاب (ص:٤٥، ٤٦)، ومعارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول لحافظ بن أحمد الحكمي (٣/ ٥٩٤،٥٩٣)، وكتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة لنخبة من العلماء، وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية (ص:٦٥، ٦٦)، وكتاب التكفير وضوابطه للشيخ إبراهيم الحربي (ص:٩٣ - ١٠٥).

لمن آمن بالله تعالى، وصدّق برسولهﷺ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة:٢]، فإذا كان ذلك كذلك علم أن الكفر بالله وبرسوله ﷺ من أعظم موانع الهداية العامة والخاصة، وقد نفى الله تعالى الهداية عن الكافرين في آيات كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٦٤، التوبة : ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[المائدة : ٦٧] أي: إن الله تعالى لا يوفق هؤلاء الكفار ولا يسددهم لإصابة الحق والهدى في فعلهم وقولهم بسبب أعمالهم[1]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[الزمر:٣].

فائدة وتنبيه: جملة:﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ذيلت بها آيتان من كتاب الله تعالى، كلتاهما وردتا في سياق الحديث عن بعض أحوال الكفار، وتحذير المؤمنين منها:

الآية الأولى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ﴾[البقرة : ٢٦٤]، وهذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المرائي، وعمل المان المؤذي، يري الناس في الظاهر أن له عملًا، كما يرى التراب على هذا الحجر الأملس الذي لا ينبت عليه شيء، فإذا كان يوم القيامة بطل عمله، لأنه لم يكن لله، كما أذهب المطر ما كان على الحجر من التراب، فلا يقدر أحد على ذلك التراب الذي أزاله المطر عن الحجر، فهم

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج (١/ ٣٤٧)، وبحر العلوم (١/ ١٧٦، ٢/ ٥٧)، والهداية إلى بلوغ النهاية (١/ ٨٨٦).

بالتالي لا يؤجرون على ما أنفقوا، ولا يجدون ثواب ما عملوا؛ لأنهم لم يخلصوا لله العمل، ولم يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر .

ثم ذيلت الآية الكريمة بجملة: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾، أي: أن الله تعالى لا يوفق هؤلاء الكفار لإصابة الحق في نفقاتهم؛ لأنهم آثروا الرياء على ابتغاء مرضاة الله، فتركهم في ضلالهم يعمهون، " وهذا التذييل مسوق لتحذير المؤمنين، عن تسرب أحوال الكافرين إلى أعمالهم، فإن من أحوالهم المن على من ينفقون وأذاه "(١)، ففي هذه الآية إذًا تعريض " بأن الرياء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار، ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها "(٢)، وفيها كذلك بيان أن الله تعالى قد " مضت سنتُه، بأن الإيمان هو الذي يهدي قلب صاحبه إلى الإخلاص، ووضع النفقات في مواضعها، والاحتراس من الإتيان بما يَذهب بفائدتها بعد وجودها، فكان الكافر بمقتضى هذه السُّنَّة محرومًا من هذه الهداية، التي تجمع لصاحبها بين صلاح القلب والعمل، وسعادة الدنيا والآخرة "(٣) .

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥٠)، وانظر: جامع البيان (٥/ ٥٢١-٥٣٨)، وبحر العلوم (١/ ١٧٦)، والوسيط للواحدي (١/ ٣٧٨)، والجامع لأحكام القرآن (٣/ ٣١٢)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٥٣٣)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث بالأزهر (١/ ٤٥٤) .

(٢) أنوار التنزيل (١/ ١٥٨)، وانظر: روح المعاني (٢/ ٣٥) .

(٣) تفسير المنار (٣/ ٥٦) .

حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾[التوبة : ٣٧]، والنسيء: تأخير شهر حرام، فيجعل حلالًا، وتحريم شهر آخر، من الأشهر الحلال عوضًا عنه(١)، وهذا " مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله، وتحريمهم ما أحل الله "(٢)، ثم ذيلت بنفي الهداية عنهم؛ للدلالة على أن الله تعالى " أمسك عنهم اللطف والتوفيق، اللذّين بهما يتفطنُ الضال لضلاله فيقلع عنه، جزاءً لهم على ما أسلفوه من الكفر، فلم يزالوا في دركات الضلال إلى أقصى غاية "(٣) .

فائدة: قال ابن عثيمين رحمه الله عند تفسير آية البقرة: " ومن فوائد الآية: أن من قضى الله عليه بالكفر لا تمكن هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾.

فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين الواقع، من أن الله تعالى هدى قومًا كافرين كثيرين؟ فالجواب: أن من هدى الله لم تكن حقت عليهم كلمة الله؛ فأما من حقت عليه كلمة الله فلن يُهْدى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] "(٤) .

---

(١) انظر: معاني القرآن للأخفش (١/ ٣٥٧)، ومعاني القرآن للزجاج (٢/ ٤٤٧)، وأحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٥٠١)، والجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٣٨) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٣٢) .

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ١٩٥) .

(٤) تفسير الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٢٤) .

وأما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فقد ذيلت بها آية البلاغ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ فالله تعالى أمر نبيه ﷺ بتبليغ الدعوة، وإيصالها إلى الناس، وطمأنه سبحانه بأنه سيحفظه ويرعاه، فالبلاغ مهمته، والحفظ من الله، والهداية موكولة إليه تعالى، لذا ذيلت الآية الكريمة بهذه الجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾؛ للدلالة على أن الهدى هدى الله، فهو سبحانه الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فلا يوفق للرشد من حاد عن سبيل الحق، وجار عن قصد السبيل، وجحد ما جاء به من عند الله، فلم يأتمر بأمره، ولم ينته عن نهيه[(١)]، كما قال تعالى: ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ ﴾[البقرة : ٢٧٢]، وقال: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴾[الرعد : ٤٠].

وآية الزمر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾[الزمر:٣] تقرّر هذا المعنى وتؤكده، فالله تعالى " لا يهدي إلى الحق ودينه الإسلام، والإقرار بوحدانيته فيوفقه له ﴿ مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ ﴾ مفتر على الله، يتقول عليه الباطل، ويضيف إليه ما ليس من صفته، ويزعم أنه له ولدًا افتراءً عليه، كفار لنعمه، جحودًا

---

(١) جامع البيان (١٠/ ٤٧٢) ، وانظر: الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٤٤)، وتفسير القرآن العظيم (٣/ ١٤٠)، وتيسير الكريم الرحمن (ص:٢٣٩)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٢/١١١٩).

لربوبيته "(١)، فمن كان هذا صفته فـ " أنى له الهدى، وقد سدّ على نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله على قلبه، فهو لا يؤمن ؟"(٢)، كما قال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ﴾[آل عمران: ٨٦] .

فالكافر عندما سلك طريق الكفر واختاره على الإيمان، ورضي على نفسه الضلال إصرارًا، وابتعد عن الهداية عنادًا، وصد عن سبيل الله تعالى ظلمًا وعدوانًا، اتباعًا لهواه وتزيين الشيطان له عمله، كما قال تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[النمل : ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[التوبة:] وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[فاطر : ٨]، فالآيات الثلاث تقرر أن الشياطين زينت للكافرين أعمالهم السيئة، فرأوها حسنة، ومن كان هذا حاله فلا يمكن أن يتغير؛ لأن أول مراحل التغيير الاعتراف بالخطأ والتقصير، فلما لم يقر هذا الكافر بعمله السيء ويعترف به، فلا مجال عنده للتغيير والاهتداء، لذا نفى الله تعالى عنهم الهداية ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ ، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾، وهذه الجملة معطوفة على جملة ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ ﴾ " فهي مشمولة لمعنى

---

(١) جامع البيان (٢١/ ٢٥٢)، وانظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٢٩٧)، ومعالم التنزيل (٤/ ١٠٨)، وتفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٥) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧١٧) .

الاستئناف البياني، المراد منه التعليل لتلك الحالة الغريبة؛ لأن التعجيب من تلك الحالة يستلزم التعجيب من دوامهم على ضلالهم، وعدم اهتدائهم إلى ما في صنيعهم من الاضطراب، حتى يُقلعوا عن ضلالهم، فبعد أن أُفيدَ السائلُ بأن سبب ذلك الاضطراب هو تزيين الشيطان لهم سوء أعمالهم، أفيد بأن دوامهم عليه لأن الله أمسك عنهم اللطف والتوفيق، الّذين بهما يتفطن الضال لضلاله، فيقلع عنه، جزاءً لهم على ما أسلفوه من الكفر، فلم يزالوا في دركات الضلال إلى أقصى غاية .

والإظهار في مقام الإضمار بقوله: ﴿ ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ لقصد إفادة التعميم الذين يشملهم وغيرَهم، أي: هذا شأن الله مع جميع الكافرين "[1] .

فمن كان هذا وصفه، وهذا حاله كيف يهديه تعالى بعد ذلك، وقد أصم أذنه، وأغلق قلبه فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي ما يفيده[2]، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾[النساء: ١٦٧ – ١٦٩]، أي: إن الذين كفروا " في أنفسهم، فلم يتبعوا الحق، وسعوا في صد الناس عن اتباعه والاقتداء به، قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه، وبعُدوا منه بُعدًا عظيمًا شاسعًا، ثم أخبر تعالى عن حُكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك، وبالصد عن سبيله، وارتكاب مآثمه، وانتهاك محارمه، بأنه لا

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ١٩٤، ١٩٥) .

(٢) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر (٢/ ٩٨٢) .

يَغفر لهم ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ أي: سبيلًا إلى الخير ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾.."[(١)]، وهذا الجزاء الذي استحقوه، والعقوبة التي كتبها الله لهم، من تعذر المغفرة والهداية لهم "؛ لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم، فطبع على قلوبهم، وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[فصلت: ٤٦]"[(٢)].

فنسألك اللهم بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى الثبات في الأمر، العزيمة على الرشد، ونسألك اللهم موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والفوز بالجنة، والنجاة من النار .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٢١، ٤٢٢) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٢١٥) .

المطلب الثاني: الظلم:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " والجهل والظلم: هما أصل كل شر، كما قال تعالى: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢] "[١] .

والظلم هو الجَورُ، ومجاوزة الحد في الأذى، والميل عن القصد[٢]، **وله أنواع ثلاثة**[٣]**، ذكرت في القرآن الكريم:**

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٤٨) .

(٢) انظر: مقاييس اللغة (٣/ ٤٦٨)، ولسان العرب (١٢/ ٣٧٣ – ٣٧٩) .

(٣) انظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٧٠) ، ومجموع فتاوى الشيخ ابن باز (٢/ ٢٦٥)، وإعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد للشيخ صالح الفوزان (١/ ٥٧)، والتمهيد لشرح كتاب التوحيد للشيخ صالح آل الشيخ (ص:٢٤) .

وهذه الأنواع الثلاثة جاء ذكرها في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: " الدواوين عند الله ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وديوان لا يغفره الله، فأما الديوان الذي لا يغفره الله: فالشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾[المائدة:٧٢]، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئًا: فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها، فإن الله تعالى يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء الله، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئًا: فظلم العباد بعضهم بعضًا، القصاص لا محالة " . أخرجه أحمد في مسنده (٤٣/ ١٥٥)، برقم: (٢٦٠٣١)، وهذا لفظه، والحاكم في المستدرك (٤/ ٦١٩)، برقم: (٨٧١٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٥٤٠) برقم: (٧٠٦٩)، قال عنه الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: صدقة ضعفوه، وابن بابنوس فيه جهالة، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: " أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة، وفيه صدقة بن موسى الدقيقي، ضعفه ابن معين وغيره، وله شاهد من حديث سلمان، رواه الطبراني "، وكذا ضعفه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٤١٩)، وضعيف الجامع الصغير وزيادته (١/ ٤٤٣) .

النوع الأول: ظلم الشرك، وهو أقبح الظلم وأعظمه: ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان : ١٣]، عن ابن مسعود ﷺ قال: لما نزلت: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾[الأنعام : ٨٢] شق ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله! أينا لا يظلم نفسه؟ قال: " ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان: ١٣] "(١) .

النوع الثاني: ظلم المعاصي، فكل من خرج عن طاعة الله، وتعدَّ حدود الله فقد وقع في الظلم: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[البقرة : ٢٢٩]، ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ ﴾[الطلاق : ١] .

فمن أظلم نفسه بالشرك، أو أظلم نفسه بالوقوع فيما حرم الله فهو لا يظلم إلا نفسه، ولا يضر إلا ذاته، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[البقرة : ٥٧]، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[يونس : ٤٤]، " والمقصود من هذا التذييل: التعريض بالوعيد، بأن سينالهم ما نال جميع الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسل الله .. وهذا الاستدراك أشعر بكلام مطوي بعد نفي الظلم عن الله، وهو أن الله لا يظلم الناس بعقابه من لم يستوجب العقاب، ولكن الناس يظلمون فيستحقون العقاب، فصار المعنى: أن الله لا يظلم الناس بالعقاب، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالاعتداء على ما أراد منهم، فيعاقبهم عدلًا؛ لأنهم ظلموا فاستوجبوا

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ برقم: (٣٤٢٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، برقم: (١٢٤) .

العقاب "[١] .

النوع الثالث: ظلم العباد بعضهم بعضًا في أنفسهم، أو أموالهم، أو أعراضهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الشورى:٤٠]، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[الشورى : ٤٢] .

وهذا الظلم هو الذي حرمه الله تعالى على عباده، ونهاهم عن ظلم بعضهم بعضًا، كما في الحديث القدسي: " يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا .. " الحديث[٢] .

وهو الذي حذر منه سيد البشر ﷺ فقال : " اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.. " الحديث[٣] .

وهذا الظلم صوره متعددة، وفروعه متنوعة كثيرة، وهو: " لا ينحصر في صور معدودة، بل كل تعدٍّ على مصالحهم، أو تقصير في حقوقهم؛ فإنه يعد ظلمًا

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٨٠) .

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم: (٢٥٧٧) .

(٣) أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم: (٢٥٨٧) .

لهم، سواء كان ذلك بالقول أو بالفعل"[١]، ومن ذلك على سبيل المثال:

- السخرية والاستهزاء بالآخرين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

- الاحتقار والخذلان: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذُله، ولا يحقره .. " الحديث[٢].

وغيرها من أنواع الظلم ..

ورأس الظلم وأقبحه: الكفر بالله تعالى، حيث سمى الله الشرك ظلمًا، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾[الأنعام:٨٢] فمن اتصف بالإيمان، ولم يشرك بالله جل في علاه فقد رُزق الهداية، ومن تلبس بشرك حرمها.

وعلى كلٍّ؛ فإن الظلم بأنواعه من أشد المعاصي خطرًا على المرء، فعاقبته وخيمة، وعقوبته شديدة أليمة، في الدنيا قبل الآخرة، يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾[هود: ١٠٢]، ويقول سبحانه:

---

(١) مقالة بعنوان: حقيقة الظلم: معناه، أنواعه، صوره، عاقبته للشيخ الدكتور/ عبد العزيز بن فوزان الفوزان، منشور على الشبكة العنكبوتية في موقع: شبكة النور، على العنوان التالي: http://islamselect.net/mat/7623

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم واحتقاره، برقم: (٢٥٦٤).

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾[الأنبياء: ١١]، وفي الحديث: " ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم "(١)، ويقول تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: ٣٧]، ويقول ﷺ: " إن الله تعالى ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته "(٢) .

وما أشد الوعيد الذي توعد الله تعالى به الظالم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾[إبراهيم:٤٢-٤٣] وعيد " تنخلع له القلوب الحية، وتقشعر له الجلود المؤمنة " .

وإضافة إلى هذا كله: فإن الظلم يعد أحد أهم موانع الهداية، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾، أي: لا يوفقهم للهداية، ولا ييسر لهم أسبابها .

يقول ابن باز رحمه الله: " فإذا سلم العبد من أنواع الظلم: ظلم الشرك،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/ ٣٩، ٤٠)، برقم: (٢٠٣٩٨) ، والترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، برقم: (٢٥١١) وابن ماجه، أبواب الزهد، باب البغي، برقم: (٤٢١١)، كلهم من حديث أبي بكرة ﷺ بإسناد صحيح، قال الترمذي: هذا حديث صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٥٨٨)، برقم: (٩١٨) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ﴾، برقم: (٤٦٨٦) .

وظلم المعاصي، وظلم العباد في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم، إذا سلم من هذه الأنواع الثلاثة حصل له الأمن الكامل، والاهتداء الكامل في الدنيا والآخرة.

أما إن سلم من الظلم الأكبر وهو الشرك، ولكن بقي معه شيء من الظلم الأصغر، وهو ظلم العباد، وظلمه لنفسه بالانغماس في المعاصي، فإن هذا يكون معه أصل الأمن، ومعه أصل الهداية، وأصل النجاة من الخلود في النار، ولكنه على خطر في دنياه وفي أخراه، على خطر من العقوبات في الدنيا وفي الآخرة، فليس له أمن كامل، ولا اهتداء كامل بسبب ما معه من أنواع المعاصي، وظلم العباد "(١).

وعليه؛ فإن من وقع في الظلم عاقبه الله تعالى بحرمانه من الهداية، إلا إن استغفر وتاب، وعاد إلى رشده وأناب، وإن المتأمل للنصوص القرآنية التي نفت الهداية عن الظالمين، والتي ذيلت بها بعض آي القرآن الكريم، يجد أنها سيقت في مقام التنبيه والتحذير عن بعض الذنوب والمعاصي التي تعد من أنواع الظلم، نفى الله تعالى عن صاحبها الهداية:

فأولها: موالاة غير المؤمنين، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١]، فالله تعالى " لا يُوَفِّق من وضع الولاية في غير موضعها، فوالى اليهود

(١) مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله (٢/ ٢٦٥).

والنصارى مع عداوتهم لله ورسوله "[1] .

وثانيها: الافتراء على الله تعالى لإضلال الناس وإبعادهم عن الهداية، يقول تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[الأنعام : ١٤٤]، أي: " لا أحد أشد ظلمًا ممن اختلق الكذب على الله تعالى، فنسب إليه تحريم ما لم يحرم، ليوقع الناس بجهله في الضلال والبعد عن المنهج القويم، الذي شرعه الله لعباده "[2]، فمن اتصف بهذه الصفة لا يهديه الله تعالى، فالله تعالى لا يوفق للرشد من افترى عليه سبحانه، وقال عليه الزور والكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرم، كفرًا بالله سبحانه، وجحودًا لنبوة نبيه محمد ﷺ ظلمًا وعدوانًا[3] .

ويقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[الصف:٧] استفهام إنكاري والمقصود: لا أحد أظلم من هؤلاء، " وإنما كانوا أظلم الناس لأنهم ظلموا الرسول ﷺ بنسبته إلى ما ليس فيه، إذ قالوا: هو ساحر، وظلموا أنفسهم إذ لم يتوخوا لها النجاة .. وظلموا ربهم إذ نسبوا ما جاءهم من هديه وحجج رسوله ﷺ إلى ما ليس منه، فسموا الآيات والحجج سحرًا، وظلموا الناس بحملهم على التكذيب، وظلموهم بإخفاء

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/ ١٧٧٨) .

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر (٣/ ١٣٤٧) .

(٣) جامع البيان (١٢/ ١٩٠) .

الأخبار التي جاءت في التوراة والإنجيل مثبتة صدق رسول الإسلام ﷺ"[1]، فاستحقوا عقاب الله تعالى .

وثالثها: اتباع الهوى[2]: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠]، أي: لا أحد أضل ممن اتبع هواه، ولم يستجب لدعوة الحق، فهؤلاء ظلموا أنفسهم باتباعهم الهوى كما قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[الروم : ٢٩]، " فمن يسدّد للصواب من الطرق، يعني بذلك من يوفق للإسلام مَن أضلّ الله عن الاستقامة والرشاد ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ يقول: وما لمن أضلّ الله من ناصرين ينصرونه، فينقذونه من الضلال الذي يبتليه به تعالى ذكره "[3] .

ورابعها: الكفر بالقرآن الكريم: يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأحقاف:١٠] يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يقول للمشركين الذين أنكروا كلامه ولم يؤمنوا به، قل لهم: " أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتم به، أي: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزل عليَّ لأبلِّغكموه، وقد كفرتم به وكذبتموه .. وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٨٨) .

(٢) سيأتي الحديث عن اتباع الهوى بالتفصيل إن شاء الله تعالى .

(٣) جامع البيان (٢٠/ ٩٧) .

المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي(١)، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به"(٢).

ففي الكلام حذف لعلم السامع به، والمعنى: أليس قد غررتم، وأتيتم أمرًا قبيحًا، واجترأتم عليه(٣)، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾" يقول: إن الله لا يوفق لإصابة الحق، وهدى الصراط المستقيم، القوم الكافرين الذين ظلموا أنفسهم، بإيجابهم لها سخط الله بكفرهم به "(٤).

ويقول سبحانه عن اليهود: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الجمعة:٥]، شبه الله تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين

---

(١) هذا المعنى على قول من قال: أن المراد من الشاهد في الآية: نبي الله موسى عليه السلام، وهو قول مسروق بن الأجدع، والشعبي .. وغيرهما، وفي الآية قول آخر عن السلف، وهو: أن الشاهد هو عبد الله بن سلام، وهو مروي عن سعد بن ابي وقاص، وابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة .. وغيرهم . انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٤/ ١٠٥)، ومفهوم علم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، للدكتور/ مساعد بن ناصر الطيار (ص: ١١٨)، وذهب الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٥٥) وغيره إلى أن الشاهد يحتمل كلا القولين، فهو اسم جنس، يعم عبد الله بن سلام وغيره، والله تعالى أعلم بالصواب .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٤٥)، وانظر: جامع البيان (٢٢/ ١٠٨)، والهداية إلى بلوغ النهاية (١١/ ٦٨٢٣،٦٨٢٢)، والتفسير الوسيط للواحدي (٤/ ١٠٤،١٠٣)، معالم التنزيل (٧/ ٢٥٤)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٧٩).

(٣) انظر: معاني القرآن للنحاس (٦/ ٤٤٢).

(٤) جامع البيان (٢٢/ ١٠٨).

أوتوا التوراة وأمروا بالعمل بها وبما جاء فيها، ومنها صدق نبوة محمد ﷺ، لكنهم لم يعملوا بما فيها، وكذبوا بالنبي محمد ﷺ، شبههم الله بالحمار الذي يحمل على ظهره كتبًا وصحفًا فيها العلم الكثير، لكنه لا ينتفع به؛ لأنه لا يعقل ما فيها، ومن كان هذا حاله، وهذه صفته فقد ظلم نفسه ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] .

وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه، ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء .

يقول ابن القيم رحمه الله: " فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن، فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته "[2] .

وخامسها: الجدال بالباطل، يقول الله تعالى عن محاجة إبراهيم للنمروذ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة:٢٥٨] يحكي الله تعالى في هذه الآية قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام مع عدو الله النمروذ، الذي ادعى الربوبية، فحاجه إبراهيم بما ذكر القرآن، فبهت هذا الكافر فانقطعت

---

(١) انظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٧٧)، وبحر العلوم (٣/ ٤٤٧)، والتسهيل (٢٣٧٣)، وتفسير القرآن العظيم (٨/ ١٤٣) .

(٢) التفسير القيم (ص:٥٤٣)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٩٤) .

حجته الواهية، وبطلت استدلالاته الواهنة، فحرمه الله تعالى الهداية بسبب ظلمه وطغيانه ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

ونفي الهداية في الآية هنا عن القوم الظالمين يحتمل أن يراد به نفي خاص، وهو نفي الهداية إلى الحجة، التي يدحضون بها حجة أهل الحق، عند المخاصمة والمجادلة، فظاهره العموم، ومعناه الخصوص[(١)] .

ويحتمل أن يكون المراد به العموم، والمعنى: أن الله تعالى لا يهديهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلالة إلى الهداية[(٢)]، قال رشيد رضا نقلًا عن أستاذه محمد عبده - رحمهما الله -: " قال الأستاذ الإمام: هذا ترشيح للكلام، والمراد بالظلم في هذا المقام : الإعراض عن النور الإلهي، وهو نور العقل الذي يسير به المرء في طريق الدين، فمن ظلم نفسه بإطفاء هذا المصباح، فصار يتخبط في الظلمات، فإنه لا يهتدي في سيره إلى الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة، بل يضل عنه حتى يهلك دون الغاية .. "[(٣)] .

أقول: يظهر لي - والله أعلم - أنه لا تعارض بين القولين، فإن من لم يهده الله تعالى إلى الحجة والصواب، وجادل بالباطل والحجة الفاسدة، فقد وقع في الظلم الذي يبعده عن الهداية إلى الحق والصراط المستقيم؛ " لأن الظلم حائل بين

(١) قاله الطبري في تفسيره (٥/ ٤٣٢)، وانظر: بحر العلوم (١/ ١٧٠)، والمحرر الوجيز (١/ ٣٤٥)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٥٢٥) .

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١/ ٢٥٣)، وتيسير الكريم الرحمن (ص:١١١) .

(٣) تفسير المنار (٣/ ٣٧، ٣٨) .

صاحبه وبين التنازل إلى التأمل من الحجج وإعمال النظر فيما فيه النفع؛ إذ الذهن في شاغل عن ذلك بزهوه وغروره "(١).

ومن فوائد هذه الآية المتعلقة بالهداية ما قاله ابن عثيمين رحمه الله: " أنه كلما كان الإنسان أظلم، كان عن الهداية أبعد؛ لأن الله علق نفي الهداية بالظلم، وتعليق الحكم بالظلم يدل على عليته، وكلما قويت العلة قوي الحكم المعلق عليه.

ومنها: أن من أخذ بالعدل كان حريًا بالهداية ؛ لمفهوم المخالفة في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ، فإذا كان الظالم لا يهديه الله، فصاحب العدل حري بأن يهديه الله سبحانه؛ فإن الإنسان الذي يريد الحق ويتبع الحق -والحق هو العدل - غالبًا يُهدى، ويوفّق للهداية؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية عبارة من أحسن العبارات؛ قال: "من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبين له طريق الحق"؛ وهذه كلمة مأخوذة من القرآن منطوقًا، ومفهومًا "(٢).

وسادسها: الكفر بعد الإيمان، والضلالة بعد الهداية ﴿ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[آل عمران:٨٦]، ذكر جماعة من المفسرين أن هذه الآية

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٣١).

(٢) تفسير الفاتحة والبقرة لابن عثيمين (٢/ ٢٧٩، ٢٨٠).

نزلت في أشخاص أسلموا[١]، ثم ارتدوا بعد إيمانهم، ثم أرادوا الرجوع إلى الإسلام ونيتهم الكفر، فأعلم الله تعالى أنه لا جهة لهدايتهم، إذ كيف يستحق هؤلاء الهداية بعدما قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول ﷺ، ووضح لهم الأمر، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشكر فظلموا أنفسهم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[٢] " فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلمًا وبغيًا واتباعًا لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي يرجى أن يهتدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحري أن ييسر الله له أسباب الهداية ويصونه من

(١) ذكر أهل التفسير ثلاثة أقوال فيمن نزلت فيهم هذه الآية: الأول: أنه رجل من الأنصار، أسلم ثم ارتد فرجع إلى الكفار، وهو مروي عن ابن عباس، ومجاهد، والسدي، الثاني: أنها نزلت في عشرة رهط، أسلموا ثم ارتدوا، وهو مروي عن ابن عباس كذلك، وبه قال مقاتل، الثالث: أنها نزلت في أهل الكتاب، عرفوا النبي ﷺ ثم لم يؤمنوا به، وهو مروي عن الحسن البصري . انظر: جامع الطبري (٦/ ٥٧٢ - ٥٧٦)، وزاد المسير (١/ ٣٠١)، واللباب لابن عادل الحنبلي (٥/ ٣٧٥)، قال الطبري بعدما ذكر الروايات العديدة: " وأشبه القولين بظاهر التنزيل ما قال الحسن، منْ أنّ هذه الآية معنيٌّ بها أهل الكتاب على ما قال، غيرَ أنّ الأخبار بالقول الآخر أكثر، والقائلين به أعلم، بتأويل القرآن، وجائز أن يكون الله تعالى أنزل هذه الآيات بسبب القوم الذين ذُكر أنهم كانوا ارتدّوا عن الإسلام، فجمع قصّتهم وقصة من كان سبيله سبيلهم في ارتداده عن الإيمان بمحمد ﷺ في هذه الآيات، ثم عرّف عباده سُنته فيهم، فيكون داخلًا في ذلك كلّ من كان مؤمنًا بمحمد ﷺ قبل أنْ يبعث، ثم كفر به بعد أن بُعث، وكلّ من كان كافرًا ثم أسلم على عهده ﷺ ثم ارتد وهو حيٌّ عن إسلامه، فيكون معنيًّا بالآية جميعُ هذين الصنفين وغيرُهما ممن كان بمثل معناهما، بل ذلك كذلك إن شاء الله " .

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج (١/ ٤٢٩)، وتفسير القرآن العظيم (٢/ ٦١) .

أسباب الغواية "[١].

وسابعها: محاربة الله ورسوله، والتفريق بين المؤمنين، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[التوبة:١٠٧ – ١٠٩]، فالكافر حتى وإن قدم أعمالًا صالحة فإنها لا تقبل منه؛ لأن أهم شروط قبول العمل: الإخلاص لله تعالى وتوحيده، يقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ فمن الظلم والإجحاف مساواة من قدم بعض هذه الأعمال- وإن كانت صالحة في ذاتها - مع بقائه على الكفر والشرك، مع من آمن بالله وضحى بنفسه وماله في سبيل الله ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[التوبة:١٨، ١٩].

يقول الطاهر ابن عاشور رحمه الله: " وإنما انتفى هدي الله للقوم الظالمين؛ لأن الظلم حائل بين صاحبه وبين التنازل إلى التأمل من الحجج ، وإعمال النظر

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:١٢٧).

فيما فيه النفع، إذ الذهن في شاغل عن ذلك بزهوه وغروره " انتهى[١] .

اللهم طهر قلوبنا، وتقبل توبتنا، وارزقنا حسن الختام يا رب العالمين ..

المطلب الثالث: الفسق:

الفسق تكرّر ذكره في القرآن الكريم في كونه أحد موانع الهداية الربانية، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[المائدة:١٠٨]، وقبل الشروع في الحديث عن نفي الهداية عن الفاسقين، يجدر بنا أن نعرف معنى الفسق في لسان العرب، وعند أهل العلم والشرع .

فالفسق في اللغة يطلق على: خروج الشيء من الشيء، والميل إلى المعصية، وقد يطلق الفسق ويراد به الخروج من الدين، إما نفاقًا أو كفرًا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[التوبة : ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[البقرة : ٩٩][٢] .

فمن خلال ما تقدم يظهر أن كلمة الفسق قد يراد به الخروج من الدين بالكلية، أو الخروج من الطاعة إلى المعصية، وهو أكثر ما يطلق عليه الفسق، فقد يكون شركًا وقد يكون إثمًا، فالفسق أعم من الكفر، وكما قال الراغب: كل كفر فسق، وليس كل فسق كفرًا[٣] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٣٤) .

(٢) انظر: مقاييس اللغة (٤/ ٥٠٢)، والمفردات في غريب القرآن (ص:٦٣٦،٦٣٧)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤٤٦)، ولسان العرب (١٠/ ٣٠٨) .

(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ١٣٠) .

يقول ابن القيم رحمه الله: " وأما الفسوق فهو في كتاب الله نوعان: مفرد مطلق، ومقرون بالعصيان، والمفرد نوعان أيضًا: فسوق كفر يخرج عن الإسلام، وفسوقٌ لا يخرج عن الإسلام "(١) .

وهذا المعنى هو ما سار عليه كثير من العلماء في تعريف الفسق شرعًا:

يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله في حديثه عن الفسق: " وهو أعمّ من الكفر، والفِسْقُ يقع بالقليل من الذّنوب وبالكثير، لكن تعورف فيما كان كثيرًا، وأكثر ما يقال الفَاسِقُ لمن التزم حكم الشّرع وأقرّ به، ثمّ أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصليّ: فَاسِقٌ، فلأنّه أخلّ بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة، قال الله تعالى: ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾[الكهف:٥٠] "(٢) .

فالفسق إذًا إذا أطلق يشمل الكافر وغير الكافر، والسياق هو الذي يحدد المفهوم منه، وعلى كلٍّ فإن الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه بين نفي الهداية عن القوم الفاسقين، وهذا يشمل كلا النوعين، وإن كان التفاوت في نفي الهداية بينهما واضح، فإن كان المقصود بالفسق الكفر المخرج من الملة فنفي الهداية من أصله، وإن كان اقل من ذلك فالمنفي عنه بقدر فسقه كمًّا وكيفًا، قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[المائدة: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[المنافقون:٦] .

والمتأمل لكتاب الله تعالى يجد أن هذه الجمل قد ذيل الله تعالى بها عدة آيات

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٦٧) .

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص:٦٣٦) .

من القرآن الكريم، تضمنت بعض المعاصي التي خرج أصحابها عن الحق وطاعة الله، راضية بها نفوسهم، مطمئنة بها قلوبهم، فعاقبهم الله تعالى بنفي الهداية عنهم، وسماهم بالفاسقين، وهذه المعاصي تنوعت بين الكفر بالله تعالى، وبين ما هو دونه:

فأولها: الكفر بالله تعالى، والخروج من طاعته سبحانه، إلى معصيته وعدم الإيمان به، وإنكار ما جاء به رسوله ومصطفاه ﷺ، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[البقرة: ٢٦]، تبين الآية الكريمة أن المثل الذي يضربه الله تعالى قد يكون سبب هدايةٍ لقوم فهموه، أو أن يكون سبب ضلالٍ لقوم لم يفهموا الحكمة منه[(١)]، فإضلال " من ضل ليس لمجرد المشيئة، بل لوجود العلة التي كانت سببًا في إضلال الله العبد "[(٢)].

وقد استعمل القرآن هنا أسلوب الحصر، فجملة ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ نفي وإثبات، وهذا يفيد الحصر، أي: أن الضلال محصور في الفاسقين "، فكأنه قيل: هؤلاء فاسقون، وما من فاسق إلا وهو ضال، فما ثبت الضلال إلا بثبوت الفسق"[(٣)].

---

(١) أضواء القرآن (٢/ ٢٤٦).

(٢) تفسير الفاتحة والبقرة لابن عثيمين (١/ ١٠١).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٦٦).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[البقرة: ٩٩] تأكيد لمعنى أنه لا يكفر بآيات القرآن إلا الفاسقون .

وثانيها: النفاق، وهو: إظهار الإسلام وإبطان الكفر، قال تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة:٨٠]، وقال تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المنافقون:٦] .

الآيتان السابقتان تحدثتا عن المنافقين، ففي الآية الأولى خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يدور فحواه على التأييس من مغفرة الله للمنافقين، فالكلام – كما يقول أهل التفسير – وإن خرج مخرج الأمر، إلا أن تأويله الخبر، ومعناه: استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم، حتى وإن استغفرت لهم سبعين مرة، وذلك للمبالغة في اليأس على طمع المغفرة، فإنه سبحانه لن يغفر لهم، بسبب أنهم جحدوا توحيد الله ورسالة رسوله ﷺ، فخرجوا بذلك عن الهدي السوي والصراط المستقيم، والله تعالى لا يهدي القوم الفاسقين، أي: لا يوفقهم للإيمان به وبرسوله ﷺ ما داموا راضين بأعمالهم، وثابتين على نفاقهم، واختاروا الكفر على الإيمان، وخرجوا عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ .

وهذا المعنى ذهب إليه كثير من المفسرين – رحمهم الله –، وعزاه ابن الجوزي

رحمه الله إلى المحققين[(١)].

ويحتمل أن يكون اللفظ على الأمر كما ورد، فيكون من باب التخيير، أي: إن شئت فاستغفر، وإن شئت لا تستغفر، ثم أعلمه الله تعالى أنه لا يغفر لهم حتى وإن استغفر سبعين مرة.

وهذا المعنى صححه ابن عطية، والثعالبي، وقواه ابن العربي، ورجحه ابن جزي - رحمهم الله -، محتجين بقول النبي ﷺ عندما صلى على عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين في المدينة، فراجعه عمر بن الخطاب ﷺ في ذلك، فقال ﷺ: " أَخِّر عني يا عمر! إني خُيرت فاخترت، ولو علمت أني إذا زدت على السبعين يغفر له لزدت " قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآية من براءة ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[التوبة:٨٤] الحديث[(٢)].

---

(١) انظر: جامع البيان (١٤/ ٣٩٤)، وبحر العلوم (٢/ ٧٦)، وأحكام القرآن للجصاص (٣/ ١٨٥)، ومعالم التنزيل (٤/ ٧٩)، وزاد المسير (٢/ ٢٨٤)، وتيسير الكريم الرحمن (ص:٣٤٦)، والتحرير والتنوير (١٠/ ٢٧٧).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٦٤)، والجواهر الحسان (٣/ ٢٠١)، وأحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٥٥٦)، والتسهيل (١/ ٣٤٤)، وهذا المعنى ذكره القرطبي في جامعه (٨/ ٢٢٠) وعزاه إلى الحسن وقتادة وعروة بن الزبير.

والحديث أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين، برقم: (١٣٦٦)، وبلفظ مقارب كذلك من حديث عمر بن الخطاب ﷺ أخرجه الشيخان: البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم .. ﴾، برقم: (٤٦٧٠)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر بن الخطاب، برقم: (٢٤٠٠).

أقول: سواء كان هذا أو ذاك، فإن الله تعالى بين في الآيتين السابقتين بأن صدور الاستغفار منه ﷺ للمنافقين لن ينفعهم، وذلك لأنهم ليسوا بأهل لاستغفاره ﷺ، ولا للمغفرة منه سبحانه لهم[1]، لذا ذيل كلتا الآيتين ببيان أنه لا يهدي القوم الفاسقين، وهذا التذييل يدل على أن النفاق فسوق، كما صرّح القرآن بذلك في ذات السياق من سورة التوبة، حيث قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[التوبة:٨٤]، فدل ذلك على أن الفسق صار للمنافقين وصفًا، " بحيث لا يختارون عليه سواه، ولا يبغون به بدلًا، يأتيهم الحق الواضح فيردونه، فيعاقبهم الله تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك "[2] .

وثالثها: أذية أنبياء الله تعالى ورسله – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين –، والخروج عن اتّباعهم وطاعتهم إلى معصيتهم والزيغ عن هديهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[الصف:٥]، فقوم موسى

(١) فتح القدير (٢/ ٤٤١) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٤٦) .

عليه السلام آذوا نبيهم(١) مع علمهم بأنه نبي الله حقًّا، وهذا العلم موجب للتبجيل والتعظيم، إلا أن هذا لم يردعهم، فمالوا عن الحق والصواب، ووقعوا في الفسوق والعصيان، فعاقبهم الله تعالى بعدم التوفيق للهداية .

يقول السعدي رحمه الله: " وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده، ليس ظلمًا منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال، والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب، عقوبة لهم وعدلا منه بهم "(٢) .

---

(١) ذكر الله تعالى في القرآن الكريم صورًا مما وقع فيه قوم موسى عليه السلام من أذية نبيهم، ومن ذلك:
١/ اتهامه بالأدرة والبرص.. وغيرها، أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " إن موسى كان رجلًا حييًا ستيرًا، لا يُرى من جلده شيء استحياءً منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده: إما برص وإما أدرة وإما آفة .. فذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ ﴾ (الأحزاب :٦٩) " . أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، برقم: (٣٤٠٤)، ومسلم، كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانًا في الخلوة، برقم: (٣٣٩) .
٢/ طلبهم آلهة يعبدونها من دون الله ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾[الأعراف: ١٣٨] .
٣ / عدم استجابتهم لنبيهم موسى عليه السلام في الدخول إلى الأرض المقدسة، فآذوه بالعصيان والتهكم والسخرية، فقالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾[المائدة:٢٤] . انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢٥٠ و٧/ ٢٧٣ و٦/ ١٢٨ و١٨/ ٨٢)، والتحرير والتنوير (٢٢/ ١٢٠) .
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٥٨) .

وهذه الآية تسلية للنبي ﷺ فيما أصابه من الكفار، وأمر له بالصبر، وتعريض بمن يؤذيه ﷺ، وقد حذر الله تعالى عباده من مشابهة قوم موسى عليه السلام في هذا الشأن، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾[الأحزاب:٦٩]، "وفي هذا تنبيه على عظيم إيذاء الرسول ﷺ، حتى إنه يؤدي إلى الكفر، وزيغ القلوب عن الهدى "(١) .

ورابعها: الاعتداء في الشهادة، والخروج بها عن وجهها الصحيح إلى الزور والكذب والبهتان، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[المائدة: ١٠٦ – ١٠٨] .

في هذه الآيات خبر من الله تعالى يتضمن الأمر بإشهاد اثنين على الوصية، إذا حضر المسلم مقدمات الموت وعلاماته، فينبغي عليه أن يكتب وصيته، ويشهد عليها رجلان مسلمان ذوا عدل، فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين جاز له أن يوصي إليهما .

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٥٢٨)، وانظر: تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٣٥) .

وأمر الله تعالى أولياء الموصي إن ارتابوا في حال الشاهدين أن يحلفوهما بأنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غيرا، ولا بدلا، فيبرآن بذلك، فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين، فإن شاء أولياء الميت فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله: إن شهادتنا أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما خانا وكذبا(١) .

وبين الله تعالى أن هذا الإجراء من باب حفظ حقوق الموصِّي، وعدم تضييع الأمانة، ومن ضيع الأمانة فهو فاسق يستحق العقوبة والعذاب، لذا ذيل الله تعالى الآية بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾؛ للدلالة على أن من غير الوصية وبدل فيها فهو موصوف بالفسق، والفاسق لا يوفقه الله تعالى للهداية .

يقول ابن عاشور رحمه الله في تفسيره: " وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ تحريض على التقوى والطاعة لله فيما أمر، ونهي وتحذير من مخالفة ذلك؛ لأن في اتباع أمر الله هدىً، وفي الإعراض فسقًا، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي: المعرضين عن أمر الله، فإن ذلك لا يُستهان به؛ لأنه يؤدي إلى الرين على القلب، فلا يَنفُذ إليه الهدى من بعد، فلا تكونوهم، وكونوا من المهتدين"(٢) .

وخامسها: حب الدنيا وإيثار ما فيها من الآباء والذرية والإخوة والأزواج والعشيرة، على حب الله ورسوله، والجهاد في سبيله، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٤٦) بتصرف .

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٩٤) .

﴿فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[التوبة: ٢٤]، ففي الآية أمرٌ من الله تعالى عباده بتقديم محبة الأهل والولد على محبة الله تعالى ورسوله، ونهاهم عن موالاتهم ان استحبوا الكفر على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾[المجادلة: ٢٢]، فمن فعل ذلك فقد وقع في الوعيد الشديد والعذاب الأكيد[1]، وخرج عن طاعة الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: أن الله تعالى " لا يوفق إلى الرشد القوم الخارجين عن طاعته فيما أمرهم به، من ترك موالاة أقاربهم الكافرين، والهجرة لإعزاز الدين، والجهاد لحماية الإسلام والمسلمين .

وقد استفيد من الآية الكريمة: وجوب أن يكون الله ورسوله ﷺ أحب إلى المسلم مما سواهما، وأن يكون لهذا الحب أثره من طاعة الله ورسوله ﷺ فيما أمر به الله أو نهى عنه، أخرج الإمام أحمد بسنده عن زهرة بن معد عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ﷺ، قال: والله لأَنت يا رسول الله أَحب إِلَيَّ من كل شيء إِلا من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: " لا يؤمن أَحدكم حتى أكون أَحب إِليه من نفسه "، فقال عمر: فأَنت الآن والله أَحب إِلَيَّ من نفسي

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٨) .

فقال رسول الله ﷺ: " الآن يا عمر "[(١)]"[(٢)].

يقول ابن القيم رحمه الله: " فكل من قدم طاعة أحدٍ من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قولَ أحدٍ منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاةَ أحدٍ منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوفَ أحدٍ منهم ورجاءَه والتوكلَ عليه، على خوف الله ورجائه والتوكيل عليه، أو معاملة أحدهم على معاملة الله فهو ممن ليس الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبارٌ بخلاف ما هو عليه، وكذلك من قدَّم حكم على أحد حكم الله ورسوله، فذلك المقدَّمُ عنده أحبُّ إليه من الله ورسوله.. "[(٣)].

فبهذا يظهر جليًّا أن الفسق بنوعيه يعد مانعًا مهمًّا من موانع الهداية، وذلك لأن الفاسق نقض عهد الله تعالى، وارتكب ما حرم الله، واستمراره على الوقوع في الحرام، وترك ما أمر الله تعالى به يؤدي إلى الرين، فإذا ران على قلبه لا يعي

---

(١) الحديث بطوله بالإسناد المذكور أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، برقم: (٦٦٣٢)، وعند الشيخين من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين " . صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، برقم: (١٥)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ، برقم: (٤٤) .

(٢) التفسير الوسيط، مجمع البحوث بالأزهر(٣/ ١٦٧٦)، وانظر: جامع البيان (١٤/ ١٧٧)، والهداية إلى بلوغ النهاية (٤/ ٢٩٥٦) برقم: (٢٩٥٧)، ومعالم التنزيل (٤/ ٢٥)، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٩٥)، فتح القدير (٢/ ٣٩٥، ٩٦)، وتيسير الكريم الرحمن (ص:٣٣٢) .

(٣) مدارج السالكين (١/ ١٢٠) .

معروفًا ولا ينكر منكرًا، ويبين ابن عاشور رحمه الله " أن للفسق تأثيرًا في زيادة الضلال؛ لأن الفسق يرين على القلوب، ويُكسب النفوس ظلمة، فتتساقط في الضلال ، المرة بعد الأخرى على التعاقب، حتى يصير لها دُربة .. "[١] .

ويقول الشعراوي رحمه الله في حديثه عن الفسق مبينًا وجه كونه سبب الضلال: " ومن هم الفاسقون؟ هم الذين ينقضون عهد الله، أول شيء في الفسق أن ينقض الفاسق عهده .

ويقال: فسقت الرطبة أي: بعدت القشرة عن الثمر، فعندما تكون الثمرة أو البلحة حمراء تكون القشرة ملتصقة بالثمرة بحيث لا تستطيع أن تنزعها منها، فإذا أصبحت الثمرة أو البلحة رطبًا تسود قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة، هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله، ينسلخ عنه بسهولة ويسر، لأنه غير ملتصق به، وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه .. "[٢] .

فنسألك اللهم أن تصلح أحوالنا، وتعيذنا من مضلات الفتن، ما ظهر منها وما بطن، وتعصمنا من الزلل، والوقوع في الخلل .. اللهم آمين .

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٦٦) .

(٢) تفسير الشعراوي (١/ ٢١١) .

المطلب الرابع: الخيانة:

الخيانة خلق ذميم، وضرره جسيم، ذمه الشارع الحكيم، وبيّن خطره النص القاطع المبين، من اتصف بهذه الصفة وقع في سخط الله وغضبه، والبعد عن محبته ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾[النساء:١٠٧]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[الأنفال:٥٨].

والخيانة تطلق في اللسان العربي على نقيض الأمانة، أصله: خون، يقال: خانه يخونه خونًا، وهو: التنقص والغدر وعدم النصح[١].

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: " معنى الخون: النقص، كما أن معنى الوفاء التمام، ومنه: تخوّنه، إذا تنقصه، ثم استعمل في ضدّ الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه "[٢].

وقال الراغب الأصفهاني رحمه الله: " الخيانة والنفاق واحد، إلا أنّ الخيانة تقال اعتبارًا بالعهد والأمانة، والنّفاق يقال اعتبارًا بالدّين، ثم يتداخلان، فالخيانة: مخالفة الحقّ بنقض العهد في السّر "[٣]، ويشهد لهذا ما صح عن النبي ﷺ أنه قال: " آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٢/ ٢٣١)، ولسان العرب (١٣/ ١٤٤)، والقاموس المحيط (ص:١١٩٤).

(٢) الكشاف (٢/ ٢١٣).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٠٥)، وبنحوه قال الكفوي في الكليات (ص:٤٣٤).

خان "[(١)] .

يقول القتبي رحمه الله: " الخيانة أن يؤتمن على شيء فلا يؤدي إليه، ثم سمّى العاصي من المسلمين خائنًا، لأنه قد ائتمن على دينه فخان "[(٢)] .

ويقول الطاهر ابن عاشور رحمه الله: " وحقيقة الخيانة: عملُ من اؤتمن على شيء بضدِّ ما اؤتمن لأجله بدون علم صاحب الأمانة، ومن ذلك: نقض العهد بدون إعلانٍ بنبذه "[(٣)] .

ولعظم خطر الخيانة على المرء وعلى المجتمع نهى الله تعالى عباده منها، وحذر من الوقوع فيها، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الأنفال : ٢٧]، ذكر المفسرون أقوالًا عديدة في تخصيص نزول هذه الآية على أناس معينين، إلا أن الأولى أن يقال - والله تعالى أعلم بالصواب -: " هذا خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، وهو يجمع أنواع الخيانات كلها قليلها وكثيرها "[(٤)] .

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: " قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صحَّ أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ: فأخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق برقم: (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم: (٥٩) .

(٢) نقله عنه السمرقندي في تفسيره (٢/ ١٦) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ١١٦) .

(٤) المحرر الوجيز (٢/ ٥١٧) .

الجماهير من العلماء، والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار ، اللازمة والمتعدية "[١] .

ويقول القاسمي رحمه الله: " ويدخل في خيانة الله: تعطيل فرائضه، ومجاوزة حدوده .

وفي خيانة رسوله: رفض سنته، وإفشاء سره للمشركين .

وفي خيانة أمانتهم: الغلول في المغانم، أي السرقة منها، وخيانة كل ما يؤتمن عليه الناس من مال أو أهل أو سر، وكل ما تعبدوا به .

وقد روي في نزول الآية شيء مما ذكرنا، ولفظ الآية مطلق يتناوله وغيره"[٢] .

فالخيانة يظهر مما تقدم أنها تشمل جميع شرائع الدين، وقد ذكر يحيى بن سلام أن الخيانة تأتي في القرآن على خمسة وجوه:

الأول: الذنب في الإسلام، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ ﴾[غافر:١٩]، أي: النظرة في المعصية .

الثاني: خيانة الأمانة، ومنه قوله: ﴿ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴾[النساء:١٠٥] .

الثالث: نقض العهد، ومنه قوله: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾[الأنفال:٥٨] .

الرابع: الخلاف في الدين، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾[التحريم:١٠] .

الخامس: الزنا، ومنه قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٦) .

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٢٧٩) .

﴿ لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾[يوسف:٥٣][1] .

وهذه الآية الأخيرة فيها التصريح البين أن أحد موانع الهداية: الخيانة، حيث إنها ختمت بنفي الهداية عن كيد الخائنين: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ .

وأما معنى الآية فقد اختلف فيه أهل التفسير بناءً على اختلافهم في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ ﴾ هو مِن قول مَن؟:

فذهب جمهور المفسرين[2] إلى أنه من قول يوسف عليه السلام، والمعنى على هذا: أن يوسف عليه السلام عندما اعترفت امرأة العزيز بفعلتها، وأنها هي التي راودته عن نفسها، فلما بلغه خبر اعترافها قال حينها: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي: أن ما فعلته من ردّي رسول الملك إليه، وتركي إجابته والخروج إليه، وطلبي منه أن يسأل النسوة اللاتي قطعن أيديهن عن شأنهن لم فعلن ذلك، كل ذلك إنما فعلته ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته، ولم أرتكب معها فاحشة في حال غيبته عني،

---

(١) التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، تحقيق: هند شلبي (ص: ١٧٧- ١٧٨)، وانظر: اللباب في علوم الكتاب (٩/ ٤٩٧)، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/ ١٥٢) .

(٢) عزاه السمعاني في تفسيره (٣/ ٣٩)، إلى الأكثرين، ونسبه إلى الجمهور: الفخر الرازي في تفسيره (١٨/ ٤٦٨)، والشوكاني في فتح القدير (٢/ ٤١)، ورشيد رضا في المنار (١٢/ ٢٦٥) معقبًا عليه بقوله: " اتباعاً للروايات الخادعة " .

ومن باب أولى في حال حضوره وشهوده[١].

ثم ختمت الآية الكريمة بنفي الهداية عن الخائنين ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾، " فأطلقت الهداية التي هي الإرشاد إلى الطريق الموصلة على تيسير الوصول ، وأُطلق نفيُها على نفي ذلك التيسير، أي: إن سنة الله في الكون جرت على أن فنون الباطل وإن راجب أوائلها، لا تلبث أن تنقشع "[٢].

وذهب جماعة من المفسرين[٣] إلى أن هذه المقولة من كلام امرأة العزيز، وهذا هو الأنسب للسياق القرآني، ولحفظ مقام نبي الله تعالى يوسف ﷺ.

والمعنى على هذا: أن ذلك الإقرار الذي أقررت به من مراودة يوسف عن

(١) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٤٧)، وجامع البيان (١٦/ ١٤٠)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ١١٥)، وبحر العلوم (٢/ ١٩٧)، وتفسير القرآن لابن أبي زمنين (٢/ ٣٣٠)، والهداية إلى بلوغ النهاية (٥/ ٣٥٧٩)، ومعالم التنزيل (٤/ ٢٤٨، ٢٤٩)، والكشاف (٢/ ٤٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٩٣).

(٣) هذا القول نسبه الشوكاني في تفسيره (٢/ ٤١)، وابن عاشور في التحرير (١٢/ ٢٩٣) إلى الأقلين من المفسرين، ورجحه: القرطبي في جامعه (٩/ ٣٠٩)، وكذا شيخ الإسلام ابن تيمية في دقائق التفسير (٢/ ٢٧٣)، وابن القيم في التفسير القيم (ص:٣٣١،٣٣٠) وفي روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٣٢٠،٣١٩)، وابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٣٨)، وأظهره أبو حيان في البحر (٦/ ٢٨٨)، وابن عادل الحنبلي في اللباب (١١/ ١٢٩)، وأيده بشدة السيد رشد رضا في المنار (١٢/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ومحمد أبو شهبة في كتابه : الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (ص:٢٢٥، ٢٢٦)، ولم يذكر السعدي في تفسيره غيره (ص:٤٠٠)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " وقد قال كثير من المفسرين إن هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو قول في غاية الفساد، ولا دليل عليه، بل الأدلة تدل على نقيضه ".

نفسه، من أجل أن يعلم أني لم أخنه بالغيب، والضمير في ﴿ أَخُنْهُ ﴾ يحتمل أن يرجع إلى زوجها، أي: لم أفسد عليه فراشه، ولم يحصل مني إلا مجرد المراودة ويحتمل أن يرجع إلى يوسف ﷺ، أي: ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا راودته عنه، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ فالخيانة لا بد أن تعود على صاحبها، ولا بد أن يتبين أمره[١] .

وعلى كل فإن الله تعالى ختم الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ فسواء كان من كلام يوسف ﷺ، أو من كلام امرأة العزيز، إلا أن المراد بها العموم - والله أعلم -، فالله تعالى نفى الهداية عن الذين يخونون العهود والمواثيق والأمانات، ولا شك أن من أعظم الخيانات خيانة الزنا، ورتب على الخيانة العقاب الأليم، والعذاب الشديد .

يقول ابن القيم رحمه الله: " وعاقب كل خائن بأنه يضل كيده ويبطله، ولا يهديه لمقصوده وإن نال بعضه، فالذي ناله سبب لزيادة عقوبته وخيبته ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ "[٢] .

ويقول الذهبي رحمه الله: " لا يرشد كيد من خان أمانته، يعني: أنه يفتضح في العاقبة بحرمان الهداية "[٣] .

ويقول ابن حجر الهيتمي رحمه الله في بيان معنى الآية: " لا يرشد كيد من خان

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة .

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٣٥٩) .

(٣) الكبائر (١٤٩)، وانظر: الوجيز للواحدي (ص:٥٥٠) .

أمانته، بل يحرمه هدايته في الدنيا ، ويفضحه على رءوس الأشهاد في العقبى، فالخيانة قبيحة في كل شيء، لكن بعضها أشد وأقبح من بعض، إذ من خانك في فَلْس ليس كمن خانك في أهلك .. "[١] .

فالخيانة خبيثة في كل شيء، وعاقبتها وخيمة في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا: عدم التوفيق للهداية والطاعة، وفي الآخرة العذاب الشديد، والفضيحة الكبرى، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: " إن الغادر يرفع له لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان "[٢] .

اللهم إنا نسألك العافية والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة .

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٤٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم، برقم: (٦١٧٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، برقم: (١٧٣٥)، ولفظه: " إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء .. " الحديث، كلاهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه .

المطلب الخامس: حب الدنيا وكراهية الموت:

حب الدنيا وكراهية الموت مرض خطير من أمراض القلوب التي تؤدي إلى الهلاك والفساد، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا "(١)، وهذا الداء الخطير إذا سيطر على قلب الإنسان، حتى تصير الدنيا همه الأكبر، وشغله الشاغل، عاقبه الله تعالى بضد ما أراد، فأبعده عن كل مرغوب يقرب إلى مرضاة الله تعالى، وقربه من كل مكروه يبعده عن طاعة الله تعالى، فعند ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " من كانت الدنيا همَه، فرق الله عليه أمرَه، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة "(٢) .

فحب الدنيا وكراهية الموت سبب خراب المجتمعات، وتسلط الأعداء،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، برقم: (١١٨) .

(٢) رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، برقم: (٤١٠٥)، والطبراني في الأوسط (٦/ ١٢٣) برقم: (٥٩٩٠)، بسند صحيح، قال البوصيري في المصباح (٤/ ٢١٢): " هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات "، وكذا قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٦٣٤)، برقم: (٩٥٠).

وفساد الأمم، بل هو رأس كل خطيئة[١]، يقول النبي ﷺ: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها "، فقالوا: ومن قلة نحن يومئذ؟ فقال ﷺ: " بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن "، فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال: "حب الدنيا وكراهية الموت "[٢] .

يقول الفضيل بن عياض: " إنما أُتي الناس من خصلتين: حب الدنيا، وطول

---

(١) وردت هذه العبارة على لسان جماعة من أهل العلم . انظر: التنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني (١/ ٥٤٩)، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (٦/ ٨٣)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للملا علي القاري (١/ ١٤٤)، وقد ورد في هذا المعنى " حب الدنيا رأس كل خطيئة " حديث ضعيف عن النبي ﷺ، أخرجه البيهقي في الشعب عن الحسن البصري مرسلًا، وهو من كلام مالك بن دينار، رواه عنه ابن أبي الدنيا، كذا قال الزركشي في اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة (ص:١٢٢)، وانظر: المقاصد الحسنة للسخاوي (ص:٢٩٦)، والدرر المنتثرة في الأحاديث المنتشرة للسيوطي (ص:١٠٥)،وعند أبي نعيم في الحلية (٦/ ٣٨٨)، والبيهقي في الشعب (١٣/ ٧٤) برقم: (٩٩٧٤)، عن سفيان الثوري أنه قال: كان عيسى عليه السلام يقول: " حب الدنيا أصل كل خطيئة .. " .

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، برقم: (٤٢٩٧)، وأحمد في مسنده (٣٧/ ٨٢)، برقم: (٢٢٣٩٧)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٤٤) برقم: (٦٠٠)، ثلاثتهم من حديث ثوبان رضي الله عنه بسند جيد ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٨٧): " رواه أحمد والطبراني في الأوسط بنحوه، وإسناد أحمد جيد "، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٤٧٤)، برقم: (٥٣٦٩)، وجوده في السلسلة الصحيحة (٢/ ٦٤٧)، برقم: (٩٥٨).

الأمل "[١].

والمقصود بكراهية الموت بينه النبي المصطفى ﷺ كما في حديث عبادة بن الصامت ﷺ: " من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه " فقالت عائشة رضي الله عنها أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت، فقال ﷺ: " ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضر، بُشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكرهَ إليه مما أمامه، كره لقاء الله وكره الله لقاءه "[٢]، فيفهم من هذا الحديث أن اللقاء غير الموت، فالمراد " باللقاء: المصير إلى الدار الآخرة، وطلب ما عند الله، وليس الغرض به الموت؛ لأن كلًّا يكرهه، فمن ترك الدنيا وأبغضها، أحب لقاء الله، ومن آثرها وركن إليها، كره لقاء الله؛ لأنه إنما يصل إليه بالموت "[٣].

وقال أبو عبيد رحمه الله في معنى الحديث: " ليس وجهه عندي أن يكون يكره عَلَزَ الموت وشدته؛ لأن هذا لا يكاد يخلو منه أحد، نبي ولا غيره، ولكن المكروه من ذلك: إيثار الدنيا والركون إليها، والكراهة أن يصير إلى الله والدار الآخرة، ويؤثر المقام في الدنيا .. "[٤].

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٩٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، برقم: (٦٥٠٧) وهذا لفظه، ومسلم مختصرًا، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار برقم: (٢٦٨٣).

(٣) الكاشف عن حقائق السنن لشرف الدين الطيبي (٤/ ١٣٦٣).

(٤) نقله عنه ابن عبد البر في التمهيد لما في الموطأ في المعاني والأسانيد (١٨/ ٢٤، ٢٥).

ولما في حب الدنيا من أضرار جسام، وأخطار عظام، ورد عن السلف -رحمهم الله تعالى- ذمه، والتحذير منه .

يقول أبو الدرداء ﷺ: " كفى به ذنبًا لا يُستغفر منه: حب الدنيا "(١) .

وكان من كلام جندب بن عبد الله ﷺ: " حب الدنيا راس كل خطيئة "(٢) .

وكان مالك بن دينار رحمه الله يقول: " إن البدن إذا سقم، لم ينجع في طعام، ولا شراب، ولا نوم، ولا راحة، وكذلك القلب إذا علِقه حب الدنيا لم تنجع فيه الموعظة "(٣) .

وقال الحسن البصري رحمه الله: " من أحب الدنيا وسرَّته خرج حبُّ الآخرة من قلبه "(٤).

وهذا يبين خطر حب الدنيا على الإنسان في الدنيا والآخرة، لكن أشد ما يلحق من قَدَّم دنياه على آخرته، وآثر حب الدنيا على حب الله: حرمانه من الهداية، فقد أخبر القرآن الكريم أن من أهم أسباب كفر الكافرين هو حب الدنيا؛ لذلك استحقوا عقاب الله تعالى لهم بأن حرمهم الهداية، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل:١٠٧]، فهذه الجملة واقعة موقع التعليل، واسم

---

(١) كتاب الزهد لأبي داوود السجستاني (ص: ٢١٨)، برقم: (٢٤٤) .

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٠٣) .

(٣) حلية الأولياء (٢/ ٣٦٣) .

(٤) جامع العلوم والحكم (الموضع المتقدم) .

الإشارة هنا عائد إلى ما مضمون قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[آية:١٠٦] أي: أن ما حل بهؤلاء المشركين من غضب الله، وبما وجب لهم العذاب العظيم، فذلك من أجل إيثارهم الحياة الدنيا وزينتها، وتلقهم بها وبمطامعها ومفاتنها، على نعيم الآخرة، فآثروا العاجل الفاني على النعيم الباقي، فلما اختاروا الكفر على الإيمان، منعهم الله الهداية، والله تعالى: ﴿ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، أي: "لا يوفق القوم الذين يجحدون آياته، مع إصرارهم على جحودها "[1]، لذلك عقب بقوله سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[آية: ١٠٨، ١٠٩] فهذه هي نتيجة حرمان الهداية، " فطبع على قلوبهم ، فهم لا يعقلون بها شيئًا ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئًا، فهم غافلون عما يراد بهم "[2].

---

(١) انظر: جامع البيان (١٧/ ٣٠٥)، والهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤٠٩٦)، وتفسير السمعاني (٣/ ٢٠٤)، والمحرر الوجيز (٣/ ٤٢٤، ٤٢٥)، والجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٩٢)، والتسهيل (٣/ ٢٤٢)، وتيسير الكريم الرحمن (ص:٤٥٠)، والتحرير والتنوير (١٤/ ٢٩٦)، والتفسير الوسيط بمجمع البحوث بالأزهر (٥/ ٦٨٤) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٢٠) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: " والله تعالى جعل استحباب الدنيا على الآخرة هو الأصل الموجب للخسران، واستحباب الدنيا على الآخرة قد يكون مع العلم والتصديق بأن الكفر يضرُّ في الآخرة، وبأنه ما له في الآخرة من خلاق "[1].

اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين ..

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٦٠).

المطلب السادس: اتباع الهوى:

اتباع الهوى أساس كل بلاء، ومصدر كل شر، ومنبع كل فتنة، وفيه من " شدة الضرر، وقبح الأثر، وكثرة الإجرام، وتراكم الآثار "[1] ما الله به عليم .

يقول ابن القيم رحمه الله: " أصل كل شر: البدع، واتباع الهوى"[2] .

ثم قال رحمه الله: "والمقصود: أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق، وبين الخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به، وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب، وهو الاستمتاع بالخلاق، فالأول: البدع، والثاني: اتباع الهوى .

وهذان هما أصل كل شر، وفتنة، وبلاء، وبها كُذِّبت الرسل، وعُصي الرب، ودُخلت النار، وحَلَت العقوبات، فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات، ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى، فتنته هواه، وصاحب دنيا ، أعجبته دنياه .

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم .. "[3] .

والهوى: هو ميل النفس إلى الشهوة، وسمّي بذلك لأنّه يَهْوِي بصاحبه في

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (فصل في الهوى، ص:٢٩) .

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٠٦) عقد فصلًا بهذا العنوان، ثم بعد ذلك بين المقصود بكلامه .

(٣) الموضع السابق .

الدّنيا إلى كلّ داهية، وفي الآخرة إلى الهَاوِيَةِ[١].

وهو: " كناية عن الباطل، والجَور، والظلم، لما هو متعارف من الملازمة بين هذه الأمور وبين هوى النفوس "[٢].

فصاحب الهوى مجرد عن العقل، لا يفكر في عواقب الأمور، مما يؤدي إلى السوء والشرور، يقول الشاعر[٣]:

إذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال

فالهوى أحد أهم الأمراض والأدواء التي تؤدي إلى هلاك الإنسان، وفساد سريرته، وسوء طويته، وخبث نيته؛ لأن: " اتباع الهوى يعمي عن الرشد، ويطيل عن الحق، ويطيل المكث في العمى "[٤]، ويؤدي بصاحبه إلى الذل والهوان .

يقول ابن القيم رحمه الله: " لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوى، كانت نهايته الذل، والصغار، والحرمان، والبلاء المتبوع "[٥]، وقد أخبر النبي ﷺ أنها أحد المهلكات، كما في حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: " ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات؛ فأما المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضى والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات:

(١) قاله الراغب الأصفهاني في « المفردات » (ص:٨٤٩)، وبنحوه ذكر الجرجاني في « التعريفات » (ص:٢٥٧)، والفيروز آبادي (٥/ ٣٥٩)، وابن القيم في روضة المحبين (ص:٤٠٢،٤٠١) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٤٢) .

(٣) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق، ونسبه إلى هشام بن عبد الملك (٧٤/ ٢٧) .

(٤) موارد الظمآن لدروس الزمان، للشيخ / عبدالمحسن السلمان (٢/ ٤١٦) .

(٥) روضة المحبين (ص:٤٨٣) .

فهوى متبع، وشحٌّ مطاع، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن "[1].

وقد نظم بعضهم جملة المهلكات وجعلها في أربعة، فقال[2]:

إني بُليت بأربعٍ ما سُلِّطوا إلا لأجل شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي

واتباع الهوى ذمه الله تعالى في كتابه، وحذر منه رسوله ﷺ في سنته، يقول الشعبي رحمه الله: ما ذكر الله لفظ الهوى في القرآن إلا ذمه، ويقول أبو عبيدة رحمه الله: لم نجد الهوى يوضع إلا في موضع الشر، لا يقال: فلان يهوى الخير، إنما يقال: يريد الخير ويحبه[3].

يقول الله تعالى ذاماً أتباع الهوى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩/ ٣٩٦)، برقم: (٦٨٦٥)، والشجري في «ترتيب الأمالي الخميسية» (٢/ ٣٠٢)، برقم: (٢٥٢٧)، والتيمي الأصبهاني في الترغيب والترهيب (١/ ٢٤٠)، برقم: (٣٥٣)، ثلاثتهم من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا، بسند ضعيف، كما قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ١١٤٥)، إلا أن في الباب عن أنس بن مالك، وابن عمر .. وغيرهما . انظر: كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني (٢/ ٣٤٨)، لذا حسنه لشواهده الشيخ الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٣/ ١٤١٦).

(٢) أنشدهما جماعة من العلماء دون نسبة، وممن ذكرهما: ابن الجوزي في بحر الدموع (ص:٨٢)، والقرطبي في التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:٨٨٠) .. وغيرهم .

(٣) ذكرهما الفخر الرازي في تفسيره (١٢/ ٤١١)، وابن عادل الحنبلي في اللباب (٧/ ٤٦٧) .

﴿ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾[الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، فالآية الكريمة شبهت من اتبع هواه بعد أن جاءته البينات ولم يؤمن، شبهته بالكلب اللاهث، الذي لا ينفك عن لهثه بحال، يلهث في حال تعبه وفي حال دعته وراحته[١]، وقد تضمنت الآية ذم المشركين من عدة وجوه:

الأول: أنه ضل بعد العلم ، واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلًا .

الثاني: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة، كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها .

الثالث: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال تعالى:

---

(١) اللهث: الإعياء والتعب، ولهث الكلب: دلع لسانه من شدة العطش والحر . لسان العرب (٢/ ١٨٤)، يقول ابن قتيبة: " كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الري، وحال العطش، فضربه الله مثلًا لهذا الكافر فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، كالكلب إنه طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث "، نقله ابن القيم في الفوائد (ص:١٠٢)، ويقول ابن عاشور في التحرير والتنوير (٩/ ١٧٨، ١٧٧): " وليس لشيء من الحيوان حالة تصلح للتشبيه بها في الحالتين غير حالة الكلب اللاهث؛ لأنه يلهث إذا أتعب وإذا كان في دعة، فاللهث في أصل خلقته، وهذا التمثيل من مبتكرات القرآن، فإن اللهث حالة تؤذن بحرج الكلب من جرَّاء عسر تنفسه عن اضطراب باطنه، وإن لم يكن لاضطراب باطنه سببٌ آت من غيره .. "، وذكر ابن القيم في روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص:٤٧٥): " أن الله سبحانه شبه أتباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى، فشبههم بالكلب تارة، كما في الآية هنا، وشبههم بالحمر تارة أخرى، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[المدثر: ٥٠-٥١]، وقلب صورهم إلى صورة القردة والخنازير تارة أخرى " .

﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وهو أبلغ من (تبعه) لفظًا ومعنًى؛ لأنها تتضمن معنى الإدراك واللحوق .

الرابع: أنه غوي بعد الرشد .

الخامس: أنه تعالى لم يشأ أنه يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه؛ لأنه لم يرفع به، فصار وبالًا عليه، فلو لم يكن عالمًا كان خيرًا له وأخف لعذابه .

السادس: أنه سبحانه أخبر عن خسّة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى .

السابع: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض، وميل بكليته .

الثامن: أنه رغب عن هداه، واتبع هواه، فجعل هواه إمامًا له يَقتدي به ويتبعه .

التاسع: أنه شبهه بالكلب، الذي هو أخس الحيوانات همة، وأسقطها نفسًا، وأبخلها وأشدها كلبًا .

العاشر: أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها، وجزعه لفقدها، وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه، والحمل عليه بالطرد، وهكذا هذا: إن ترك فهو لهثان على الدنيا، وإن وُعظ وزجر فهو كذلك، فاللهث لا يفارقه في كل حال ، كلهث الكلب . اهـ[1] .

واتباع الهوى هو الطريق الموصل إلى غضب الله وسخطه، عذابه وجحيمه،

---

(١) بتصرف من كتاب الفوائد لابن القيم (ص:١٠٢،١٠١) .

وفي مقابل ذلك جعل الله تعالى طريق الجنة: الخوف منه تعالى، ومخالفة الهوى، كما قال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[النازعات:٣٧- ٤١] .

يقول ابن القيم رحمه الله: " هو العبد يهوى المعصية، فيذكر مقام ربه عليه في الدنيا، ومقامه بين يديه في الآخرة فيتركها لله "[(١)] .

وأهل الشرك لم يشركوا مع الله تعالى غيره إلا اتباعًا لأهوائهم الفاسدة، وظنونهم الباطلة، قال تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[النجم: ٢٣]، فهؤلاء القوم من كفار قريش أشركوا مع الله تعالى غيره، واتخذوا آلهة عبدوها من دون الله، وهي: اللات، والعزة، ومناة، وهذا مما " ليس لهم فيه مستند، إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم في رئاستهم، وتعظيم آبائهم الأقدمين"[(٢)]، ومع أن الله تعالى أرسل إليهم الرسل بالحجج الباهرة، والأدلة القاطعة، إلا أنهم لم يتبعوا ما جاءوهم به، ولا انقادوا لهم، " فلا حجة ولا علم ولا يقين، إنما هو الظن يقيمون عليه العقيدة، والهوى يستمدون منه الدليل، والعقيدة لا مجال فيها للظن والهوى، ولا بد فيها من اليقين القاطع، والتجرد من الهوى والغرض، وهم لم يتبعوا الظن والهوى ولهم

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص:٤٠١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٢٥) .

عذر أو علة: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾فانقطع العذر وبطل التعلل "[1].

وفي الآية وجه بلاغي جميل، حيث التفت من الخطاب ﴿ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾إلى الغيبة ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾وفي ذلك إعراض عنهم، وتحقيرٌ لشأنهم[2]، كما جيء بالمضارع في: ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾" للدلالة على أنهم سيستمرون على اتباع الظن، وما تهواه نفوسهم، وذلك يدلُّ على أنهم اتبعوا ذلك من قبل، بدلالة لحن الخطاب أو فحواه "[3].

فإذا كان الشرك في مكة سببه اتباع الهوى، كذلك كان النفاق في المدينة، فالمنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، لم يمنعهم من الدين الحق، واتباع سيد الخلق إلا اتباعهم الهوى، يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[محمد:١٦]، يخبر الله تعالى في الآية الكريمة عن المنافقين (في بلادتهم وقلة فهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ، ويستمعون كلامه، فلا يفهمون منه شيئًا، فإذا خرجوا من عنده قالوا للذين أوتوا العلم من الصحابة رضي الله عنهم: ماذا قال آنفًا، أي: الساعة "يقولون ذلك سخرية واستهزاء) لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون له - كأنه كلام لا ينهض إلى درجة الفهم، أو لا ينبغي سماعه فضلًا عن فهمه -، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾،

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٢٤٠٨) .

(٢) انظر : فتح القدير (٥/ ١٢٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٠٩) .

أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح "[١].

وأهل الهوى ضلالهم ليس قاصراً على أنفسهم، بل هم قد ضلوا أنفسهم وأضلوا غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[الأنعام: ١١٩]، أي: " وإن كثيرًا من الناس الذين يجادلونكم في أكل ما حرم الله عليكم، أيها المؤمنون بالله، من الميتة، ليُضلون أتباعهم بأهوائهم من غير علم منهم بصحة ما يقولون، ولا برهان عندهم بما فيه يجادلون، إلا ركوبًا منهم لأهوائهم، واتباعًا منهم لدواعي نفوسهم، اعتداءً وخلافًا لأمر الله ونهيه، وطاعة للشياطين "[٢].

لذا حذر سلف هذه الأمة من الهوى واتباعه، موضحين خطره وضرره، روي عن علي ابن أبي طالب ﷺ أنه قال: " إن أخوف ما أتخوف عليكم اثنتين: اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة .. "[٣].

وقال بشر الحافي رحمه الله : " البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٩١)، وما بين القوسين من التفسير الوسيط، مجمع البحوث بالأزهر (٩/ ٩٥٩).

(٢) جامع البيان (١٢/ ٧١)، وانظر: معاني القرآن للزجاج (٢/ ٢٨٧)، ولباب التأويل (٢/ ١٥١)، وتفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٨٩)، فتح القدير (٢/ ١٧٨)، وتيسير الكريم الرحمن (ص:٢٧١)، والتفسير الوسيط، مجمع البحوث بالأزهر (٣/ ١٣١٧).

(٣) أخرجه الموصلي في الزهد (ص:٢٠٤)، برقم: (٢٢٠)، ووكيع في الزهد (ص:٤٣٩)، برقم: (١٩١)، وأحمد بن حنبل في الزهد (ص: ١٠٧)، برقم: (٦٩٣).

إياه "[١].

وعندما سئل الحسن البصري رحمه الله: أي الجهاد أفضل؟ قال: جهادك هواك[٢].

يقول ابن القيم رحمه الله: " وسمعت شيخنا - يعني ابن تيمية رحمه الله - يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولًا، حتى يخرج إليهم "[٣].

وما أحسن ما قاله الشاعر[٤]:

إذا ما رأيت المرءَ يعتاده الهوى	فقد ثكلته عند ذاكَ ثواكلُهْ
وقد أشْمَتَ الأعداءَ جهلًا بنفسه	وقد وَجَدَتْ فيه مقالًا عواذِلُهْ
وما يردعُ النفسَ اللجوج عن الهوى	من الناس إلا حازمُ الرأي كاملُه

فظهر مما تقدم ذكره: أن اتباع الهوى ضرره عظيم، وخطره جسيم[٥]، ومن أشد أضراره كما بينه القرآن: حرمان صاحبه من الهداية؛ لأن صاحب الهوى قلبه

(١) روضة المحبين (ص:٤٧٨) .

(٢) المصدر السابق، وهو عند الماوردي في « أدب الدنيا والدين » (ص:٢٩) بلفظ: أفضل الجهاد: جهاد الهوى .

(٣) روضة المحبين (الموضع السابق) .

(٤) أخرج أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٧٦) عن حكيم بن أبجَر المكي: أن سفيان بن عيينة كان يتمثل هذه الأبيات، ولم ينسبها لأحد، وقد ذكر هذه الأبيات الماوردي في « أدب الدنيا والدين » (ص:٣٠)، وأبو إسحاق الوطواط في « غرر الخصائص الواضحة » (ص:١١٨) .

(٥) ذكره الماوردي في « أدب الدنيا والدين » (ص:٢٩) ولم ينسبه لأحد .

منغلق عن قبول الحق وإن كان واضحًا وضوح الشمس في رابعة النهار .

ولما كان اتباع الهوى متشعب الأنواع، مترامي الأطراف، يدخل فيه كل صاحب خلق دنيء، وعمل رديء؛ كالجور، والظلم، والكذب، حتى الكفر - والعياذ بالله -، كان لكل منهم نصيب من الحرمان حسب ابتلائه كَمًّا وكيفًا[1].

فأهل الهوى عمومًا هم أشد الناس ضلالًا وبعدًا عن الهداية، كما قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[القصص: ٥٠]، فبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن الناس بالنسبة إلى ما بعث الله به نبيه محمدًا ﷺ من الهدى ودين الحق قسمان لا ثالث لهما: " إما الاستجابة لله والرسول ﷺ وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى"[2]، فإن كان من القسم الأول كان مهتديًا، لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وإن كان من القسم الثاني - عافانا الله والمسلمين - كان أشد الناس ضلالة، يعيش شقيًا، ويبعث محرومًا، مصداقًا لقوله تعالى مخاطبًا آدم وزوجه: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[طه: ١٢٣، ١٢٤]، روي عن ابن عباس بأنه قال: " لا يضل

---

(١) انظر: الهداية في القرآن (ص:١٦٣) .

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٣٧)، وانظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص:٤٧٥)، ومجموع فتاوى الشيخ ابن باز (٢٦/ ١٩٥) .

في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة "[١] .

وأما من أعرض عن ذكر الله تعالى، وخالف أوامره، وما أنزل على رسوله ﷺ أعرض عنه الله تعالى وتناساه، وأخذ من غيره هداه، وعاش حياة ضنكًا في الدنيا " فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرَجٌ لضلاله، وإن تنعم ظاهره وليس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يَخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة "[٢] .

ويقول ابن عاشور رحمه الله: "والمعنى: أن مجامع همه، ومطامح نظره تكون إلى التحيُّل في إيجاد الأسباب والوسائل لمطالبه، فهو متهالك على الازدياد، خائف على الانتقاص، غير مُلتفت إلى الكمالات، ولا مأنوسٌ بما يسعى إليه من الفضائل، يجعله الله في تلك الحالة وهو لا يشعر، وبعضهم يبدو للناس في حالة حسنة، ورفاهية عيش، ولكن نفسَه غيرُ مطمئنة "[٣] .

وقوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾: " قال مجاهد[٤]، وأبو صالح[٥]،

---

(١) أخرجه الثوري في تفسيره (ص:١٩٧) من طريق الشعبي، وعبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (٢/ ٣٧٩) من طريق عطاء بن السائب، والطبري في تفسيره (١٨/ ٣٨٩) ثلاثتهم عن ابن عباس، بألفاظ متقاربة .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٨٣) .

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢٩) .

(٤) أخرجه مجاهد في تفسيره (ص: ٤٦٧) بلفظ: أعمى عن الحجة .

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٣٩٥) .

والسدي: لا حجة له، وقال عكرمة: عُمي عليه كل شيء إلا جهنم، ويحتمل أن يكون المراد: أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضًا، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧]"[١].

وفي قصة داوود عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [ص:٢٦]، ففي الآية الكريمة خطاب منه تعالى لنبيه داوود عليه السلام يأمره فيه بأن يحكم بين الناس بالعدل والإنصاف، وهو الذي آتاه الله إياه، وينهاه عن اتباع الهوى، وإيثاره في القضاء بين الناس؛ لأن اتباعًا الهوى يؤدي إلى الجور والحيف، وهذا يؤدي إلى الضلال، ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾، أي: يميل بك اتباعك هواك في قضائك على العدل والعمل بالحق، عن طريق الله الذي جعله لأهل الإيمان فيه، فتكون من الهالكين بضلالك عن سبيل الله، فاتباع الهوى علة للضلال عن سبيل الله؛ لأن الفاء تدل على العِلّية.

وللتنبيه على شناعة الضلال، وقبح اتباع الهوى قال الله تعالى عقب ذلك:

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٨٤).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾[1]، " فهذا نص في أن اتباع الهوى سببٌ للضلال عن سبيل الله "[2] .

فإذا كان النهي عن اتباع الهوى في الحكم بين الناس في حق نبي من الأنبياء، فمن باب أولى لمن هو دونه، ولا يعني ذلك بحال أن داوود عليه السلام أجحف في حكمه ، وظلم في قضائه ؛ لأنه نبي من أنبياء الله ورسله، ولا خلاف بين العلماء المحققين من السلف والخلف على أن الأنبياء كلهم معصومون مؤيدون من الله تعالى، فتوجيه الله تعالى لأنبيائه ورسوله بأمر، أو نهي، أو إرشاد، أو نصح، لا يقدح في عصمتهم، ولا ينال من رسالهم، ولا يعيب في نبوتهم، فإن هذا قد يكون من باب التذكير، أو من باب التشريع لأمته، ونبينا ﷺ قد خاطبه الله تعالى بمثل ما خاطب به نبيه داوود عليه السلام في آيات كثيرة من كتابه، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾[المائدة:٤٢]، وكقوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[المائدة: ٤٩]، وكقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾[الأحزاب: ١، و٤٨]، وكقوله: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ

---

(١) انظر: جامع البيان (٢١/ ١٨٨)، وتفسير القرآن العظيم (٧/ ٥٣)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٧١١)، وأضواء البيان (٦/ ٣٣٩)، والتفسير الوسيط بمجمع بحوث الأزهر (٨/ ٤٩٤).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٣٨).

﴿ فُرُطًا ﴾[الكهف: ٢٨] .. وغيرها من الآيات(١) .

ومتبع الهوى وصل إلى هذه الدرجة الدنيا، وانحط إلى هذا المستوى الرديء؛ لأنه باتباعه لهواه أشرك مع الله، فصار كمن إلـهه هواه، فاستحق حرمان الهداية، كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[الجاثية:٢٣]، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده(٢) .

وفي الحديث: " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به"(٣) .

قال الملا علي رحمه الله قاري في شرحه للحديث: " أي: ميل نفسه، سُمي به لأنه يهوي صاحبه في الدنيا إلى الداهية، وفي الآخرة إلى الهاوية ، فكأنه من هويَ يهوي هوىً إذا سقط، " تبعًا لما جئت به " يجوز أن يحمل هذا على نفي أصل الإيمان، أي: حتى يكون تابعًا مقتديًا لما جئت به من الشرع، عن اعتقاد لا عن

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١٣)، وأضواء البيان (٦/ ٣٤٠)، والتفسير الوسيط (٨/ ٤٩٥) .

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٣٣) .

(٣) الحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (ص: ١٢)، برقم: (١٥)، وأبو نعيم النسوي في كتاب الأربعين برقم: (٨) و(٥١)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (١/ ٣٨٧)، برقم: (٢٧٩)، وقوام السنة في الحجة في بيان المحجة (ص:٢٦٩)، برقم: (١٠٣)، كلهم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وقد صححه جماعة من المحققين، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص:٨٢٤): " وقد خرّج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين، وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار وجياد الأثار مما أجمع الناقلون على عدالة ناقليه "، وقال ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٨٩): رجاله ثقات، وكذا صححه النووي في الأربعين النووية (ص:١١٣) .

إكراه وخوف سيف، كالمنافقين.

وقيل: المراد نفي الكمال، أي: لا يكمل إيمان أحدكم حتى يكون ميل نفسه، أي: ما تشتيه تبعًا لما جئت به من الأحكام الشرعية، فإن وافقها هواه اشتغل بها لشرعيتها، لا لأنها هوى، وإن خالفها اجتنب هواه، فحينئذ يكون مؤمنًا كاملًا "(١)، وهذا الثاني هو ما صححه ابن عثيمين رحمه الله في شرحه للأربعين النووية، حيث قال: " أنا حملناه على ذلك لأنه لا يصدق في كل مسألة؛ لأن الإنسان قد يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ في أكثر مسائل الدين، وفي بعض المسائل لا يكون هواه تبعًا، فيحمل على نفي الكمال، ويقال: إن كان هواه لا يكون تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ في كل الدين، فحينئذ يكون مرتدًا "(٢).

والسبب الذي من أجله حرم أصحاب الهوى الهداية: أنهم قدموا القياس على النص، وعطلوا عقولهم، وصدوا عن قبول الحق غيرهم.

يقول ابن تيمية رحمه الله: " وأصل ضلال من ضل هُوَ بِتَقْدِيم قِيَاسه على النَّص الْمنزل من عِنْد الله وَتَقْدِيم اتِّبَاع الْهوى على اتِّبَاع أَمر الله فَإِن الذَّوْق والوجد وَنَحْو ذَلِك هُوَ بِحَسب مَا يُحِبهُ العَبْد ويهواه فَكل محب لَهُ ذوق وَوجد بِحَسب محبته وهواه "(٣).

ويقول كذلك: " فبيّن أن اتباع الهوى يُضلّ عن سبيل الله، فمن اتبع ما تهواه

(١) مرقاة المفاتيح (١/ ٢٥٥).

(٢) شرح الأربعين النووية للعثيمين (ص:٣٩٤)، وانظر: الكاشف عن حقائق السنن (٢/ ٦٣٧).

(٣) العبودية (ص:٦٧).

نفسه أضلّ عن سبيل الله، فإنه لا يكون الله هو المقصود، ولا المقصود الحق الذي يوصل إلى الله، فلا قَصَد الحق، ولا ما يوصل إلى الحق، بل قصد ما يهواه من حيث هو يهواه، فتكون نفسه في الحقيقة هي مقصوده، فيكون كأنه يعبد نفسه، ومن يعبد نفسه فقد ضلّ عن سبيل الله قطعًا، فإن الله ليس هو نفسه"(١).

يبين ابن القيم رحمه الله سبب حرمان صاحب الهوى الهداية بقوله: "فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل، ويُعمي بصيرة القلب، ويصدُّ عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرةُ العبرة معه البتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيُه ونظرُه، فأرته نفسُه الحسنَ في صورة القبيح، والقبيحَ في صورة الحَسَن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة؟ "(٢).

---

(١) جامع الرسائل (٦/ ١٤٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٤٧، ٤٤٨).

المطلب السابع: الكذب:

الكذب آفة كبرى، ومصيبة عظمى، إذا أصابت الفرد تؤدي به إلى الهلاك والعياذ بالله، وهو أقرب الطرق الموصل إلى عذاب الله وجحيمه، فقد قال النبي ﷺ محذرًا ومنبهًا: " عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا "[(١)] .

والكذب كما قال الإمام الماوردي رحمه الله: " جماع كل شر، وأصل كل ذم، لسوء عواقبه، وخبث نتائجه؛ لأنه يُنتج النميمة، والنميمة تُنتج البغضاء، والبغضاء تُؤوِّلُ إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة "[(٢)] .

فالكذب نقيض الصدق، يقال: كذَب يكذِب كذِباً وكِذْبا فهو كاذبٌ وكذَّابٌ وكَذُوبٌ، وكذَّبتَ الرجل: إذا نسبتَه إلى الكذب .

قال ابن فارس رحمه الله: " الكاف والذال والباء أصل صحيح يدل على خلاف الصدق "[(٣)] .

---

(١) الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ : فأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩]، وما يُنهى عن الكذب، برقم: (٦٠٩٤) ومسلم في صحيحه - وهذا لفظه -، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب، وحسن الصدق، وفضله، برقم: (٢٠٦٧) .

(٢) أدب الدنيا والدين (ص:٢٦١) .

(٣) مقاييس اللغة (٥/ ١٦٧)، وانظر: لسان العرب (١/ ٧٠٤، ٧٠٥) .

وأما في عرف الشرع فالكذب هو: الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه، سواء كان ذلك عمدًا أم خطئًا[(١)]، وأصله في القول كالصدق، وقد يقع في الفعل، أو النية، يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله: " الصدق والكذب أصلهما في القول، ماضيًا كان أو مستقبلًا، وعدا كان أو غيره، ولا يكونان بالقصد الأوّل إلا في القول، ولا يكونان في القول إلا في الخبر دون غيره من أصناف الكلام .. وقد يكونان بالعرض في غيره من أنواع الكلام، كالاستفهام والأمر والدّعاء .. وقد يستعمل الصّدق والكذب في كلّ ما يحقّ ويحصل في الاعتقاد، نحو: صدق ظنّي وكذب، ويستعملان في أفعال الجوارح، فيقال: صَدَقَ في القتال: إذا وفّى حقّه، وفعل ما يجب وكما يجب، وكذب في القتال: إذا كان بخلاف ذلك "[(٢)].

وقد تكرر ذكر الكذب في القرآن الكريم كثيرًا في أكثر من مائتي موضع، محذرًا منه، مهددًا صاحبه ومتوعدًا، مبينًا أضراره ومفاسده، واصفًا به أرذل الخلق، وأدناهم منزلة، وأحقرهم صفة؛ كالكفار، والمنافقين، والكهنة الدجالين .

وقد بين القرآن الكريم صراحة أن من أشد أضراره، وأعظم مفاسده: حرمان صاحبه من الهداية، فالمقصود من الكذب هو الذي يؤدي إلى الكفر بالله تعالى، والافتراء عليه سبحانه، وإظهار خلاف ما يبطن:

---

(١) انظر: التعريفات للجرجاني (ص:١٨٣)، وفتح الباري لابن حجر (١/ ٢٠١)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٦٩)، والتحرير والتنوير (٢٨/ ٢٣٥) .

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص:٤٧٨ - ٤٨٠) .

ففي حق الكافر يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾[النحل:١٠٤، ١٠٥]، أي: إن الذين لا يؤمنون بآيات الله هم أهل الكذب، لا المؤمنون[١] .

قال الفخر الرازي رحمه الله: " في هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش، والدليل عليه: أن كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ للحصر، والمعنى: أن الكذب والفرية لا يقدُمُ عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله، وإلا من كان كافرًا، وهذا تهديد في النهاية "[٢]، وفي قوله: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ مبالغة في وصفهم بالكذب، كأن كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم، إذ لا كذب أعظم من تكذيبهم بآيات الله[٣]، فهؤلاء القوم الذين افتروا على الله الكذب، ولم يؤمنوا بآيات الله ظلموا أنفسهم، فاستحقوا حرمان الهداية؛ لأن الله تعالى لا يهدي القوم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الصف:٧]، أي: لا أحد أظلم منهم[٤]، وقال عزّ وجلّ: ﴿ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الجمعة:٥]، أي: بئس هذا المثل الذي ضربه الله تعالى لليهود

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٣٠٢) .

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٧٢)، وانظر: محاسن التأويل (٦/ ٤١٠) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٧٩)، وفتح القدير (٣/ ٢٣٣) .

(٤) تقدم الحديث عن الآية وبيانها .

والنصارى وتشبيههم بالحمار في جهله وعدم استفادته ما يحمل ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾، بئس هذا المثل، مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله تعالى، وبأدلته وحججه وبراهينه، فهؤلاء لا يهديهم الله؛ لأنهم ظلموا أنفسهم فاستحقوا الحرمان ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

وقد وصف الله تعالى المحروم من الهداية بوصفين: الكذب، وشدة الكفر[2]، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[الزمر:٣]، أي: " لا يرشد لدينه من كذب في زعمه أن الآلهة تشفع، وكفر في اتخاذ الآلهة دونه، وهذا فيمن سبق عليه القضاء بحرمان الهداية "[3].

وأما المنافقون فالكذب شيمتهم، والخيانة دأبهم وطريقتهم، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾[المنافقون: ١]، ويقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[التوبة: ١٠٧، ١٠٨]، ويقول سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ

---

(١) تقدم الحديث عن هذه الآية، وانظر: جامع البيان (٢٣/ ٣٧٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٨٨).

(٣) التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٥٧٠).

فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر: ١١، ١٢]، ففي الآيات المتقدمة شهد الله تعالى بكذب المنافقين في أقوالهم وأفعالهم، ومع أن كل آية من الآيات السابقة وردت في سياق مختلف عن الآخر، إلا أنها في مجملها تؤكد حقيقة كذب المنافقين، وأنهم يظهرون خلاف ما يبطنون، فالكذب "وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم، ولهذا كذبهم الله بقوله، الذي وُجد مخبره كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال "[١]، فهم ضالون مضلون في وعودهم، وإن عززوا ذلك وأكدوه بأيمانهم، فهي أيمان كاذبة خادعة؛ لأن شهادة الله تعالى أصدق من حلفهم .

ففي الآية الأولى يخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم إذا جاءوا النبي ﷺ يتفوهون بالإسلام، ويشهدون بنبوته ﷺ، وأما في باطن الأمر فهم ليسوا كذلك، بل على الضد من ذلك تمامًا؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه، ولهذا كذبهم الله تعالى بالنسبة إلى اعتقادهم فقال: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي: كاذبون " في شهادتهم التي زعموا أنها من صميم القلب وخلوص الاعتقاد، لا إلى منطوق كلامهم، وهو الشهادة بالرسالة، فهي حق، والمعنى: والله يشهد أنهم لكاذبون فيما تضمنه كلامهم من التأكيد الدال على أن شهادتهم بذلك

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٥١) .

صادرة عن خلوص اعتقاد، وطمأنينة قلب، وموافقة باطن لظاهر "[1] .

وفي الآية الثانية تحدث الله تعالى فيها عن الكذب في أقوال المنافقين وأفعالهم، حيث إن أناسًا منهم بنوا مسجدًا بجوار مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاقة بين المؤمنين، ويعدونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله، ويستعملونه حصنًا عند الاحتياج إليه[2]، فلما بنوه، أبان الله تعالى كذبهم، وفضح سريرتهم، وأطلع النبي ﷺ والمؤمنين بخبايا نفوسهم، فذكر سبحانه أنهم بنوا هذا المسجد لأغراض

---

(١) فتح القدير (٥/ ٢٧٥)، وانظر: معالم التنزيل (٨/ ١٣٦)، والمحرر الوجيز (٥/ ٣١١)، وتفسير القرآن العظيم (٨/ ١٥٠)، وأضواء البيان (٨/ ١٨٨) .

(٢) هذا ما يفهم مما ورد عن السلف في سبب نزول هذه الآيات، ومن ذلك ما أورده الواحدي في أسباب النزول (ص: ٢٩٩، ٣٠٠) حيث قال: " قال المفسرون: إن بني عمرو بن عوف، اتخذوا مسجد قباء، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم فصلى فيه، فحسدهم إخوتهم بنو غنم بن عوف، وقالوا: نبني مسجدًا ونرسل إلى رسول الله ﷺ ليصلي فيه كما صلى في مسجد إخواننا، وليصل فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية وتنصر ولبس المسوح، وأنكر دين الحنيفية لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعاداه، وسماه النبي ﷺ: أبا عامر الفاسق، وخرج إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين: أن أعدوا واستعدوا بها استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجدًا، فإني ذاهب إلى قيصر، فآتي بجد الروم، فأُخرج محمدًا وأصحابه، فبنوا له مسجدًا إلى جنب مسجد قباء .. فلما فرغوا منه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه .. فنزل عليه القرآن، وأخبره الله تعالى خبر مسجد الضرار وما هموا به، فدعا رسول الله ﷺ [بعضًا من أصحابه] وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وأحرقوه .. " الخ .

أربعة[(١)]:

الأول: المضارة بالمؤمنين، أي: محاولة إيقاع الضرر بهم.

الثاني: الكفر وتقويته، "وتسهيل أعماله من فعلٍ وترك، كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هنالك، مع خفاء ذلك على المؤمنين؛ لعدم اجتماعهم في مسجد واحد".

الثالث: التفرقة بين المؤمنين، حيث إنهم كانوا يصلون جميعًا في مسجد واحد، وهو مسجد قباء، وفي ذلك من مقاصد الإسلام الاجتماعية ما فيه، وهو: التعارف، والتآلف، والتعاون، وجمع الكلمة .. وغيرها من المقاصد.

الرابع: الإرصاد لمن حارب الله ورسوله من قبل اتخاذ هذا المسجد، والإرصاد هو الانتظار والترقب، وقد ذكر المفسرون أن المقصود بهذا المحارب هو: أبو عامر الراهب، وعدهم بأنه سيأتيهم بجيش من الروم لقتال النبي ﷺ وأصحابه.

ومع هذا زعموا بأيمان كاذبة ودعاوى باطلة أنهم ما أرادوا ببناء المسجد إلا خيرًا ورفقًا بالمؤمنين، وإحساناً إلى الضعيف، والعاجز الضرير، فأبان الله تعالى كذبهم، وشهد بأن أبطنوا خلاف ما أظهروا ﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ ولا

---

(١) وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ الآية، وانظر في بيان هذه الأغراض بالتفصيل: تفسير المنار (١١/ ٣٠، ٣١).

شك أن شهادة الله تعالى أصدق من حلفهم[1] .

وأما في الآية الثالثة فيبين الله تعالى فيها كذب المنافقين في وعودهم، حيث إنها تحكي ما جرى بين الكفار من أهل الكتاب والمنافقين في المدينة من وعود كاذبة، وأقوال فاسدة، وخيانة فاجرة، يريدون بها محاربة الإسلام والمسلمين، فالمنافقون وعدوا إخوانهم من يهود بني النضير على النصرة والتمكين، وبذل ما يملكون في الوقوف معهم ظاهرًا وباطنًا، من أجل استعداءهم على المسلمين، وعدم الرضوخ لهم، إلا أن الله تعالى بين أن هذه الوعود كلها كاذبة؛ لأنها صدرت من قوم الكذب متأصل في نفوسهم، والنفاق متشعب في قلوبهم، فلا يقولون إلا الكذب ﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي: لكاذبون فيما وعدوهم به " إمّا لأنهم قالوا لهم قولًا ومن نيتهم أن لا يفوا به، وإما لأنهم لا يقع منهم لأنهم لا يقع منهم الذي قالوا "[2]، وعلى كلٍّ فقد بَانَ ذلك في أمر بني النضِير الذين عاقدهم المنافقون؛ لأنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم، فلم يخرج معهم المنافقون،

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج (٢/ ٤٦٨، ٤٦٩)، والهداية إلى بلوغ النهاية (٤/ ٣١٥٠- ٣١٥٣)، ومعالم التنزيل (٤/ ٩٣،٩٤)، والجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٥٣-٢٥٨)، وتفسير القرآن العظيم (٤/ ١٨٤،١٨٣)، وفتح القدير (٢/ ٤٥٨-٤٦١)، والتحرير والتنوير (١١/ ٢٩، ٣٠)، وتيسير الكريم الرحمن (ص:٣٥١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٠٣) .

وقُوتلُوا فلم ينصروهم، فأظهر الله تعالى كذبهم(١).

وأما الكهنة والدجالون، فقد وصفهم الله تعالى بكثرة الكذب والإثم، فقال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾[الشعراء:٢٢١-٢٢٣] الأفاك: كثير الإفك: الكذب، والأثيم: كثير الإثم، وهو: " الفاجر في أفعاله، فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان، وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضًا كذبةٌ فسقةٌ، ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ أي: يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس، فيحدثون بها، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سُمعت من السماء، كما صحَّ بذلك الحديث(٢)"(٣)، والكاهن سمي أثيمًا " لأنه يضُمُّ إلى

(١) أقوال المفسرين في تفسير هذه الآيات تدور في هذا الفلك، وتحول هذه المعاني، وانظر: جامع البيان (٢٣/ ٢٨٩،٢٩٠)، ومعاني القرآن للزجاج (٥/ ١٤٧)، والهداية إلى بلوغ النهاية (١١/ ٧٣٧٩،٧٣٨٠)، والمحرر الوجيز (٥/ ٢٨٩)، ومفاتيح الغيب (٢٩/ ٥٠٩)، والجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٣٣)، والتحرير والتنوير (٢٨/ ٩٩).

(٢) ورد في هذا المعنى عدة أحاديث صحاح، منها ما رواه الشيخان في صحيحهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سأل رسولَ الله ﷺ ناسٌ عن الكهّان، فقال: " ليس بشيء "، فقالوا: يا رسول الله! إنهما يحدثونا أحيانًا بشيء فيكون حقًّا، فقال رسول الله ﷺ: " تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فيَقَرُّها في أذن وليه، فيخلطون معها مائة كذبة ". البخاري، كتاب الطب، باب الكهانة، برقم: (٥٧٦٢)، ومسلم، كتاب الآداب، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، برقم: (٢٢٢٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٥٥).

كذبه تضليل الناس بتمويه أنه لا يقول إلا صدقًا، وأنه يتلقى الخبر من الشياطين التي تأتيه بخبر السماء .. فهم أفاكون، وهم متفاوتون في الكذب، فمنهم أفاكون فيما يزيدونه على خبر الجن، ومنهم أفاكون في أصل تلقي شيء من الجن .

ولما كان حال الكهان قد يلتبس على ضعفاء العقول ببعض أحوال النبوة في الإخبار عن غيب، وأسجاعُهُم قد تلتبس بآيات القرآن في بادئ النظر، أطنبت الآية في بيان ماهية الكهانة، وبينت أن قُصاراها الإخبار عن أشياء قليلة قد تصدق، فأين هذا من هدي النبي والقرآن، وما فيه من الآداب، والإرشاد، والتعليم، والبلاغة، والفصاحة، والصراحة، والإعجاز .. "[(١)] .

وقد توعد الله تعالى الأفاك الأثيم وهدده بالويل والثبور، كما قال تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴾[الجاثية:٧]، و " الويل في كلام العرب: المصائب والحزن والشدة من هذه المعاني، وهي لفظة تستعمل في الدعاء على الإنسان .

وروي في بعض الآثار: أن في جهنم واديا اسمه: وَيْلٌ[(٢)]، وذهب الطبري رحمه الله إلى أنه المراد بالآية[(٣)]، ومقتضى اللغة أنه الدعاء على أهل الإفك والإثم

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٦، ٢٠٧) .

(٢) من ذلك ما روي عن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: " الويل واد في جهنم ، يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره " . أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة الأنبياء، برقم: (٣١٦٤)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٥٠٨)، برقم: (٧٤٦٧)، وأحمد في مسنده (١٨/ ٢٤٠)، برقم: (١١٧١٢)، وغيرهم، بسند ضعيف، كما قال الألباني في ضعيف سنن الترمذي (١/ ٣٩٥) وغيره .

(٣) جامع البيان (٢٢/ ٦٣) .

بالمعاني المتقدمة "[١].

وسبب حرمان الكذابين من الهداية أنهم ألغوا العقل، وتركوا التثبت، وهمشوا النصوص القاطعة، والأدلة الساطعة، فكذبوها، وانصرفوا عنها، بل افتروا عليها، فضلوا وأضلوا، فاستحقوا بذلك عقوبة الله تعالى في الدنيا والآخرة على أفعالهم الدنيئة، وصفاتهم الخبيثة، ونواياهم الرديئة .

نسأل الله تعالى السلامة والعافية من كل مكروه، ومن صفات أهل النفاق والفجور، اللهم آمين .

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٨١) .

المطلب الثامن: الحسد:

الحسد داء عظيم، ومرض خطير، إذا أصيب به الإنسان اسود قلبه، وتلف عقله، فمنع الخير كله، وأساسه الإيمان والاهتداء، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " لا يجتمعان في النار: مسلم قتلَ كافرًا ثم سدد وقارب، ولا يجتمعان في جوف مؤمن: غبار في سبيل الله وفيح جهنم، ولا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد "(١).

" والحسد مذموم، وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ..، وقال الحسن: ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد؛ نَفَسٌ دائم، وحزنٌ لازم، وعبرة لا تنفد "(٢).

وهو داء الأمم، وحالقة الدين، كما أخبر النبي الكريم ﷺ، فعن الزبير بن العوام ﷺ: أن النبي ﷺ قال: " دبَّ إليكم داءُ الأممِ قبلكم: الحَسد، والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعرَ، ولكن تحلقُ الدينَ، والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يُثبِّت ذلك

(١) أخرجه النسائي في السنن ، كتاب الجهاد، باب من عمل في سبيل الله على قدمه، برقم: (٣١٠٩)، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٤٦٦)، برقم: (٤٦٠٦)، وصدر الحديث مخرج عند مسلم، كتاب الإمارة، باب من قتل كافرًا ثم سدد، برقم: (١٨٩١)، والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٦٢) برقم: (٢٧٤٥٦) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٥١) .

لكم ؟ أفشوا السلام بينكم "[(١)] .

والحسد أول المعاصي في السماء، حين حسد إبليس آدم عليه السلام[(٢)]، وأول المعاصي على وجه الأرض، حين قتل قابيل أخاه هابيل، كما حكى القرآن قصتهما في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾، فتقبل الله تعالى قربان أحدهما، ولم يتقبل قربان الآخر ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ ﴾، حينها" قال الابن الذي لم يتقبل منه للآخر؛ حسدًا وبغيًا "[(٣)]:﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾، ثم نفذ تهديده ووعيده، فقتل أخاه: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[المائدة:٢٧ – ٣١] .

وأهل مكة من قريش ممن لم يؤمن بالنبي ﷺ، لم يمنعهم من الإيمان إلا الحسد في قلوبهم، ولا أدل على ذلك من مقالة أبي جهل، كما نقله عنه ابن هشام: " تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذَينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدًا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٤٣،٢٩)، برقم: (١٤١٢و١٤٣٠)، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، برقم: (٢٥١٠)، وحسنه الألباني في صحيح السنن، وصحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٧) برقم: (٢٦٩٥) .

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٥١)، والتفسير القيم (ص: ٦٤٤)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٦٦) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٢٨) .

ولا نصدقه "[١].

وكذا كفار أهل الكتاب، منعهم الحسد من الإيمان بالنبي ﷺ[٢]، كما قال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[النساء:٥٤]، وما كيدهم للإسلام والمسلمين لإخراجهم من الدين، إلا حسدًا من عند أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[البقرة:١٠٩].

يقول ابن عاشور رحمه الله: " وأما عامة اليهود وجهلتهم فقد بلغ بهم الحسد والغيظ إلى مودة أن يرجع المسلمون إلى الشرك، ولا يَبقوا على هذه الحالة الحسنة الموافقة لدين موسى في معظمه، نكاية بالمسلمين وبالنبي ﷺ "[٣].

والحسد كان مانعًا من موانع الهداية لأن الحاسد يتمنى زوال النعمة عن غيره، وقد يسعى بموجب حسده لإزالة نعمة المحسود بالبغي عليه بالفعل أو القول[٤]، لذا أمر الله تعالى عباده أن يستعيذوا من شر الحاسد ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

(١) السيرة النبوية لابن هشام، بتحقيق: مصطفى السقا وآخرين (١/ ٣١٦).

(٢) نقل مكي بن ابي طالب في الهداية إلى بلوغ النهاية (١٢/ ٨٥١١) عن ابن زيد قوله: أُمر النبي ﷺ أن يستعيذ من شر اليهود الذين حسدوه، لم يمنعهم أن يؤمنوا به إلا حسدهم.

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٦٧٠).

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٣٤)، والتعريفات للجرجاني (ص: ٨٧)، والتفسير القيم (ص: ٦٣٦)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٦٦)، وأثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، لعبد الله بن عبدالرحمن الجربوع (١/ ٤٢٨).

ٱلْفَلَقِ .. وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾" أي: إذا ظلم "(١)، والظلم منافاة للهداية .

والعجيب في هذه الآية أنها عطفت على الاستعاذة من الساحر: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ وهذا العطف يفيد أن الشر من نفس الحاسد هو ذات الشر من نفس الساحر ، فالساحر يستعين بالشيطان ويبعده ، والحاسد يعينه الشيطان على حسده(٢) .

يقول ابن عاشور رحمه الله: " وإنما جعل الحسد ظلمًا؛ لأن الظلم هو المعاملة بغير حق، والحسد: تمني زوال النعمة عن المحسود، ولا حق للحاسد في ذلك؛ لأنه لا يناله من زوالها نفع، ولا من بقائها ضر، ولقد أجاد أبو الطيب إذ أخذ المعنى في قوله:

وأظلمُ خلقِ الله مَن باتَ حاسدًا ... لمن باتَ في نَعْمائِهِ يتقلَّب"(٣)

اللهم طهّر قلوبنا من الغل والحقد والحسد، واملأ قلوبنا بحبك وحب من يحبك وحب كل عمل يقربنا إلى حبك، وحب عبادك الصالحين .. اللهم آمين .

(١) تفسير السمعاني (٦/ ٣٠٧) .

(٢) انظر : التفسير القيم (ص:٦٤٤،٦٤٥) .

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٦٠٥)، والبيت لأبي الطيب المتنبي كما قال ابن عاشور، وذكره أبو الحسن الجرجاني في كتابه: « الوساطة بين المتنبي وخصومه »، بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي (ص:١١٨) .

المطلب التاسع: الكبر:

الكبر وصفه النبي ﷺ بـأنه: " بطر الحق وغمط الناس"(١)، وبطر الحق: دفعه وإنكاره، وذكر ابن الأثير في معنى (بطر الحق) ثلاثة أقوال(٢):

الأول: أن يجعل ما يجعله الله تعالى حقًّا من توحيده وعبادته باطلًا .

الثاني: أن يتجبر عند الحق فلا يراه حقًّا .

الثالث: أن يتكبر عن الحق فلا يقبله .

وغمط الناس: احتقارهم، والاستهانة بهم، وقد ورد في ألفاظ الحديث: " غمص " بالصاد، وهما بمعنى واحد(٣) .

والكبر: أول معصية عصي الله تعالى به، وذلك عندما خلق آدم عليه السلام، فأمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا كلهم، إلا إبليس تكبر وعصى ربه ولم يسجد: ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[الأعراف:١١،١٢]، فرد الله تعالى عليه بقوله:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم: (١٤٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر "، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، فقال: " إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق وغمط الناس " .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٣٥)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٩٠) .

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٨٨)، وشرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٩٠) .

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٣]، وفي سورة (ص) يقول سبحانه مؤكدًا هذا المعنى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾[ص:٧٣-٧٦] .

يقول الشنقيطي رحمه الله: " بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه عامل إبليس اللعين بنقيض قصده، حيث كان قصده التعاظم والتكبر، فأخرجه الله صاغرًا حقيرًا ذليلًا، متصفًا بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة .. ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك "[(١)] .

وقد يكون التكبر أشد من الكفر، كما نقل ابن القيم ذلك عن شيخه ابن تيمية - رحمهما الله تعالى -: " التكبر شرٌّ من الشرك، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى، والمشرك يعبد الله وغيره "[(٢)]، ثم قال ابن القيم: " قلت: ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين، كما قال تعالى في سورة الزمر [آية: ٧٢]، وفي سورة غافر [آية:٧٦]: ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.. "[(٣)] .

فالمتكبر مصيره وجزاؤه النار والعياذ بالله؛ لأنه نازع الله تعالى في كبريائه

(١) أضواء البيان (٢/ ١٠) .

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣١٦) .

(٣) الموضع المتقدم .

وجبروته وسلطانه، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر:٦٠] .

ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى: "الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فَمَن نازَعني واحدًا منهما قذفْتُه في النار "[(١)] .

ويقول ﷺ : " لا يَدْخلُ الجنَّةَ مَن كَانَ في قلبِهِ مِثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبرٍ "[(٢)] .

يقول ابن القيم في نونيته المشهورة[(٣)]:

وسل العياذ من التكبر والهوى فهما لكل الشرّ جامعتان
وهما يصدان الفتى عن كل طر ق الخير إذ في قلبه يلجان
فتراه يمنعه هواه تارة والكبر أخرى ثم يشتركان
والله ما في النار إلا تابع هذين فاسأل ساكني النيران
والله لو جردت نفسك منهما لأتت إليك وفود كل تهان

وعليه؛ فإن المتكبر محروم من الهداية بالقرآن في هذه الدنيا، مطبوع على قلبه، فلا يهتدي بهديه، ولا يقتدي بشرائعه، ولا يستن بسننه وأحكامه، يقول تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، برقم: (٤٠٩١)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، برقم: (٤١٧٤)، وأحمد في مسنده (٧/ ١٨٨)، برقم: (٧٣٧٦)، وصححه الألباني في صحيح السنن .

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه برقم: (٩١) .

(٣) متين القصيدة النونية (ص:٢٨٧) .

﴿سَبِيلًا﴾[الأعراف:١٤٦]، " والصرف: الدفع، أي: سأصد عن آياتي"[(١)] .

يقول الطبري رحمه الله: " إن الله أخبر أنه سيصرف عن آياته، وهي: أدلته وأعلامه، على حقيقة ما أمر به عباده، وفرض عليهم من طاعته في توحيده ، وعدله، وغير ذلك من فرائضه، والسموات والأرض، وكلُّ موجودٍ من خلقه فمن آياته، والقرآن أيضًا من آياته، وقد عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حقت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فَهْمِ جميع آياته والاعتبار والادكار بها مصروفون؛ لأنهم لو وفقوا لفهم بعض ذلك، وهدوا للاعتبار به؛ لاتعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم؛ لأنه جلَّ ثناؤه قال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾، ولا تبديل لكلمات الله "[(٢)] .

ويقول محمد رشيد رضا رحمه الله: " هذا بيان لسنته تعالى في تكذيب البشر، لدعاة الحق، والخير، من الرسل وورثتهم، وسببه الأول الكبر، فإن من شأن الكبر أن يصرف أهله عن النظر، والاستدلال على الحق والهدى لأجل اتِّباعه، فهم يكونون دائمًا من المكذبين بالآيات الدالة عليه، الغافلين عنها.. "[(٣)] .

وفي ذات السياق يقول الحق سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[غافر:٣٥]، والطبع: الختم، أي: أن الله تعالى يختم على قلوب المتكبرين

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٠٣) .

(٢) جامع البيان (١٢/ ١١٣) .

(٣) تفسير المنار (٩/ ١٦٩) .

الجبارين، حتى لا يعقلوا الرشاد، ولا يقبلوا الحق[١] .

وسبب حرمان المتكبر الهداية أنه: " ينظر إلى نفسه بعين الكمال، وإلى غيره بعين النقص، فيحتقرهم ويزدريهم ، ولا يراهم أهلًا لأن يقوم بحقوقهم، ولا أن يتقبل من أحد منهم الحق إذا أوردوه عليه "[٢] .

وبعد فهذه جملة من الموانع ذكرتها، اكتفيت بها مع وجود غيرها، مما ذكره أهل العلم في كتبهم، وبينه أهل الفضل في مؤلفاتهم، نظرًا لأن القرآن الكريم عدَّها كذلك صراحة، سائلًا المولى الكريم سبحانه أن أكون قد وفقت في عرضها وبيانها ، وبالله تعالى التوفيق والسداد، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٣١٣) .

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٧٥) .

المبحث الثالث

أثر تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة

إعداد

د . ياسين حافظ قاري

أثر تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة

تمهيد:

إن سلف هذه الأمة من الصحابة الكرام، والتابعين لهم بإحسان، ومن سار على نهجهم واقتدى سنتهم من العلماء والصالحين قد تحققت فيهم الهداية القرآنية؛ لأنهم سلكوا مسالكها، واتبعوا سبلها، واجتنبوا موانعها، فاثر تحقيق ذلك في حياتهم، فانتقلوا في فترة وجيزة من الزمن من أمة أمية، تابعة لغيرها، لا يقام لها وزن، مغلوبة على أمرها، تعيش في شتات وتفرق، وتباعد وتمزق، إلى أمة متقدمة في شتى المجالات، ففتحت البلدان، وانتشرت في الأمصار، وصارت شيئاً مذكورًا بين الأمم، بل قادة لها، منارة للعلم، منبعًا للرقي والحضارة " أدان الله تعالى لهم البلاد، وفتح عليهم - حبًّا - قلوب العباد، وقمع بهم الشر والفساد، فرفرت عليهم بعد الحروب المدمرة رايات السلام، وأتم عليهم الله بعد الفاقة غاية الإنعام، وأكرمهم بعد الإهانة أيما إكرام "[(١)].

وقد شاءت سنة المولى الكريم أن يكون مقياس تمكن الأمة في هذه الأرض، وعلو شأنها: القرآن والسنة، فعلى مقدار تمسك الأمة بكتاب ربها، وسنة نبيها

---

(١) التمسك بالقرآن وأثره في حياة المسلمين، للشيخ الدكتور/عبد الله بن عمر الشنقيطي (٢/ ٥١٤)، وهو مطبوع ضمن مطبوعات ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه، والذي عقد في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، عام ١٤٢١هـ.

يكون تمكنها في هذه الأرض، يقول تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾[آل عمران: ١١٠]، ويقول تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾[الأعراف: ٩٦] .

فلما كان تمسك السلف قويًّا بالأصلين، مُكن لهم في الأرض أيما تمكين، ثم لما ضعف الاهتداء بالأصلين لدى الأمة المحمدية، عادت إلى الوهن بعد العزيمة، وإلى الضعف بعد القوة، فواقع اليوم واقع أليم تعيشه الأمة الإسلامية من تفرق وتمزق، وضعف وهوان، وإذا أرادت الأمة أن تعود لسابق عهدها، وقديم مجدها، لا سبيل أمامها إلا العودة إلى أصولها: كتاب ربها، وسنة نبيها، يهتدون بهديها، ويقتدون بها، " فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها "(١) وصلاح أول الأمة كما هو معلوم كان بتمسكها بالقرآن والسنة، فـ" القرآن هو هداية الله العظمى، صلح باتباعه من لم يعرف قبله صلاحًا، وأفلح بهديه من لم يجد من دونه فلاحًا، وما فقد كثيرٌ من المسلمين اليوم مجد الصالحين من أسلافهم والعزة في الأولين من آبائهم؛ إلا لأنهم لم يهتدوا بالقرآن كهدايتهم، ولم يأخذوا كتاب ربهم بقوة مثل أخذهم .. وإذا حصل الضلال - عياذًا بالله - واتباع الهوى، وتجاوز الحق؛ اختلفت قوى الإدراك في الناس، وحينئذٍ تضطرب

---

(١) روي ذلك عن الإمام مالك رحمه الله تعالى، كما نقله عنه جملة من أهل العلم، كشيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٩٦)، وابن قيم الجوزية في إغاثة اللهفان (١/ ٢٠٠)، والشنقيطي في أضواء البيان (٨/ ١٥٥) .

الأعمال، وتموت العهود، وتفسد الأخلاق، ويحل الشقاء، وتفشو الفرقة، ويسلط الله على الأمة من يستذلها، ويستأثر بشئونها، ويعبث بمقدراتها، ثم يحيق الهلاك، وتمحى الآثار والديار عياذًا بالله "[١].

وفي هذا المبحث سيكون الحديث بمشيئة الله تعالى عن أثر تحقيق الهداية القرآنية في واقع الأمة الإسلامية، مستدلًّا على ذلك بنصوص من القرآن الكريم، ومستشهدًا بأحاديث سيد المرسلين ﷺ، ومؤيدًا ذلك بأقوال الصحابة والتابعين، مستفيدًا في ذلك بما سطره أهل العلم في كتبهم، وما قيدوه في مؤلفاتهم، وذلك من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: الهداية للتي هي أقوم .

المطلب الثاني: العدل والإنصاف .

المطلب الثالث: الوحدة والاتفاق .

المطلب الرابع: التمكين في الأرض .

المطلب الخامس: الأمان والطمأنينة .

المطلب السادس: السعادة الحقيقية .

سائلًا المولى سبحانه التوفيق والسداد فيما أكتب وأسطر، وأن يكون لها الأثر فيمن يقرأ وينظر، والله المستعان، وعليه التكلان .

---

(١) الشيخ صالح بن حميد في خطبة له بعنوان: فضل سورة الفاتحة .

المطلب الأول: الهداية للتي هي أقوم:

إن من أهم آثار الهداية القرآنية: أنه يهدي لأقوم الطرق وأعدلها في كل الأمور الدينية والدنيوية النافعة[١]، فهو كما يقول الله تعالى عنه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩]، فـ﴿ أَقْوَمُ ﴾ تفضيل القويم، ومعناه: أنه يهدي للطريق التي هي: " أقوم الطرق وأوضح السبل "[٢]، فهو يهدي " للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه وهو الإسلام .. "[٣].

ففي الآية إذًا إخبار من الله تعالى عن شرف القرآن وجلالته، وأنه يهدي لأعدل الطرق وأعلاها، من العقائد، والأعمال، والأخلاق، "وهذا وصف إجمالي لمعنى هدايته إلى التي هي أقوم، لو أريد تفصيله لاقتضى أسفارًا "[٤] .

يقول الشنقيطي رحمه الله: " ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً برب العالمين جل وعلا ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ أي: الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب .. وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في

(١) انظر: تيسير اللطيف المنان (٢/ ٣٥٩) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٥)، وانظر: التحرير والتنوير (١٥/ ٤٠)، وتفسير الشعراوي (١٤/ ٨٣٧٦) .

(٣) جامع البيان (١٧/ ٣٩٢) .

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٤١) .

القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها .. " .

ثم أشار رحمه الله إلى جملة من المسائل والقضايا التي تبين هدي القرآن للطريق التي هي أعدل الطرق وأقومها(١).

فالله تعالى يبين أن القرآن الكريم ليس كتاب هداية فحسب، بل إن هدايته " هي أبين الدلالات، وأوضحها، وأدلها على المراد، وأوفقها للفطر، وأصلح ما تكون هداية، وأشدها فرقًا بين الحق والباطل، والهدى والضلال.. فطريقته في الهداية هي خير الطرق وأشدها، وأحكامه وآدابه هي أقوم الأحكام والآداب وأعدلها، وأصلحها للعباد والبلاد، وهذا هو ما تدل عليه كلمة ﴿ أَقْوَمُ ﴾.. "(٢).

فالقرآن الكريم قد جمع " الكمال في ألفاظه ومعانيه؛ فألفاظه أوضح الألفاظ وأبلغها، وأحسنها تفسيرًا لكل ما تفسره من الحقائق، بوضوحها وأحكامها وقوامها، ومعانيه كلها حق، وذلك أنه تمت كلمة ربك صدقا وعدلا، صدقا في أخبارها، وعدلا في أحكامها؛ أوامرها ونواهيها: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠] "(٣).

وعليه؛ فإن من " اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١٧-٥٤) .

(٢) من مقال للشيخ الدكتور/ محمد بن محمد أبو شهبة بعنوان: التفسير العلمي للقرآن الكريم، نشر في مجلة رابطة العالم الإسلامي، عدد محرم، الصادر عام ١٣٩٥هـ .

(٣) تيسير اللطيف المنان (١/ ٣٠٤) .

وأهداهم في جميع أموره "[١] .

يقول سيد قطب رحمه الله في « الظلال »: "﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقوامًا وأجيالًا بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان .

﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق .

و﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ ﴾ في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعًا واستمتاعًا بالحياة .

و﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .

و ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفرادًا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٥٤) .

وأزواجًا، وحكومات وشعوبًا، ودولًا وأجناسًا، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض.

الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان .. فأما الذين لا يهتدون بهدي القرآن، فهم متروكون لهوى الإنسان، الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره، المندفع الذي لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها الشر له" انتهى[1].

وذكر الدكتور الزحيلي رحمه الله أن للقرآن الكريم مقاصد ثلاثة[2]:

الأول: الهداية إلى طريق النجاة، والسلامة من الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة، وذلك باتباع الإسلام، والإسلام دين الحق والعدل والإخلاص والإنقاذ.

الثاني: إخراج المؤمنين به من ظلمات الكفر والشرك والوثنية، والوهم والخرافة، وانحراف التفكير، إلى نور التوحيد الخالص.

الثالث: هداية الناس وإرشادهم إلى الطريق الصحيح الموصل إلى الهدف السديد من الدين، وإلى خيري الدنيا والآخرة.

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢١٥).

(٢) انظر: التفسير الوسيط للدكتور/ وهبة الزحيلي (١/ ٤٤٤).

والنفر من الجن عندما سمعوا كلام الله تعالى آمنوا به لأنه يهدي إلى الرشد، كما حكى القرآن عنهم قولهم: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾[الجن: ١، ٢]، أي: أن القرآن ليس كغيره من الكتب، بل هو كلام جليل القدر، عظيم الشأن، بديع في حسنه ونظمه، ودقة معانيه، وجمال أسلوبه، وهو مع ذلك يرشد إلى الطريق الحق والصراط المستقيم والهدي القويم[1]، والرشد: " اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم "[2] .

وهي كلمة تحمل في طياتها المعاني الكثيرة، فهي " في ذاتها ذات دلالة واسعة المدى، فهو يهدي إلى الهدى والحق والصواب، ولكن كلمة الرشد تلقي ظلًّا آخر وراء هذا كله، ظل النضوج، والاستواء، والمعرفة الرشيدة للهدى والحق والصواب .

ظل الإدراك الذاتي البصير لهذه الحقائق والمقومات، فهو ينشئ حالة ذاتية في النفس تهتدي بها إلى الخير والصواب .

والقرآن يهدي إلى الرشد بما ينشئه في القلب من تفتح وحساسية، وإدراك ومعرفة، واتصال بمصدر النور والهدى، واتساق مع النواميس الإلهية الكبرى، كما يهدي إلى الرشد بمنهجه التنظيمي للحياة وتصريفها .

هذا المنهج الذي لم تبلغ البشرية في تاريخها كله، في ظل حضارة من الحضارات، أو نظام من الأنظمة، ما بلغته في ظله أفرادًا وجماعات، قلوبًا

(١) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر (١٠/ ١٦١٣) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٩٠) .

ومجتمعات، أخلاقًا فردية ومعاملات اجتماعية على السواء "(١).

يقول السعدي رحمه الله: " فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى، المتضمنة لترك الشر، وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه، ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضار، فإن ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع، المثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد، والمربى والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة "(٢).

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٢٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٩٠).

المطلب الثاني: العدل والإنصاف:

العدل في كافة شؤون الحياة أمر شرعي مهم، ومطلب ديني عظيم، أمر به رب العالمين فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[النحل:٩٠] .

والعدل هو " فعل كل مفروض من عقائد، وشرائع، وسير مع الناس في أداء الأمانات، وترك الظلم، والإنصاف وإعطاء الحق "[(١)]، قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: " العدل ضربان: مطلق يقتضي العقل حسنه، ولا يوصف بالاعتداء بوجه، نحو: الإحسان إلى من أحسن إليك، وكف الأذية عمن كفَّ أذاه عنك، وعدلٌ يعرف كونه عدلًا بالشرع، ويمكن أن يكون منسوخًا في بعض الأزمنة، كالقصاص، وأروش الجنايات .. والعدل هو المساواة في المكافأة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر "[(٢)] .

فالعدل إذًا هو الإنصاف في جميع جوانب الحياة، " وحقيقته التوسط بين طرفي النقيض، وضده الجور، وذلك أن الباري خلق العالَم مختلفًا متضادًّا متقابلًا مزدوجًا، وجعل العدل في اطراد الأمور بين ذلك، على أن يكون الأمر جاريًا فيه على الوسط من كل معنى، فالعدل بين العبد وربه: إيثار حق الله على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر، والامتثال للأوامر .

وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها عما فيه هلاكها .. وعُزوب الأطماع عن الاتّباع، ولزوم القناعة في كل حال ومعنى .

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤١٥)، وانظر: جامع البيان (١٧/ ٢٧٩) .

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص:٥٥٢) .

وأما العدل بينه وبين الخلق ففي بذل النصيحة، وترك الخيانة فيما قل وكثر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه، ولا يكون منك إلى أحد مساءة بقول ولا فعل، لا في سر ولا في علن، حتى بالهم والعزم، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل ذلك الإنصاف من نفسك وترك الأذى "(١) .

فبالعدل قامت السموات والأرضين، وبه صلاح الحال للفرد والمجتمعات، وصلاح المآل عند البعث بعد المات، لذا أمر الله تعالى به نبيه ﷺ: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى:١٥]، ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[المائدة:٤٢]، وأمر به خلقه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾[النساء:٥٨]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[الأنعام:١٥٢] .. وغيرها من الآيات الكثيرة .

وأما صلاح المآل بإذن الواحد الديان، فيظهر جليًّا في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال: " إن المقسطين على منابر من

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٤)، قال القرطبي في جامعه (١٠/ ١٦٥) بعد أن نقل كلام ابن العربي المتقدم: " قلت: هذا التفصيل في العدل حسن وعدل " .

نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا "[١].

فإذا أقيم العدل بين الناس صلحت الحياة، وعاش الناس في أمن وأمان، وسكينة واطمئنان، بل إن العدل سبب من أسباب استمرارية الدول إن التزم به حكامها وملوكها، فالعدل أساس الملك، وبه تستمر الدول وتقوم، وبضده تفشل وتزول .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " إنّ النّاس لم يتنازعوا في أنّ عاقبة الظّلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يروى: اللهّ ينصر الدّولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدّولة الظّالمة، ولو كانت مؤمنة"[٢] .

وعليه؛ فإن من أهم آثار الاهتداء بالقرآن الكريم: العدل والإنصاف بين الناس، فالهداية القرآنية إذا تحققت في المؤمن تحقق لديه العدل والإنصاف؛ لأن القرآن الكريم نظام حياة متكامل، من اهتدي به هدي إلى أقوم الطرق وأعدلها وأصوبها، في كافة شؤون الحياة ، فالقرآن الكريم كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[الإسراء:٩-١٠] فلفظ ﴿ أَقْوَمُ ﴾عام ، يشمل الهداية إلى كل خير في الدنيا والآخرة، ومن أهمها العدل في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، برقم: (١٨٢٧) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٢،٦٣)، وانظر: التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلمين للدكتور/ عبد الله بن عمر محمد الأمين (٢/ ٥٣٢، ٥٣٣) .

التعامل مع الآخرين؛ لأن الإسلام مبني على العدل والإنصاف، والقرآن الكريم أنزله الله تعالى لإقامة العدل بين الناس في الأرض .

وإن المتأمل للآية الكريمة، يجد أنها وصفت القرآن الكريم بثلاث صفات:

الصفة الأولى: الهداية للتي هي أقوم، أي: " أسد وأعدل وأصوب "(١)، وهو دين الإسلام .

الصفة الثانية: البشارة للذين يعملون الصالحات بالأجر الكبير، والثواب الجزيل " وذلك لأن الصفة الأولى لما دلت على كون القرآن هاديًا إلى الاعتقاد الأصوب، والعمل الأصلح، وجب أن يظهر لهذا الصواب والصلاح أثر، وذلك هو الأجر الكبير؛ لأن الطريق الأقوم لا بد وأن يفيد الربح الأكبر والنفع الأعظم "(٢) .

الصفة الثالثة: العذاب الأليم للذين لا يؤمنون بالآخرة "، وذلك لأن الاعتقاد الأصوب والعمل الأصلح، كما يوجب لفاعله النفع الأكمل الأعظم، فكذلك تركه يوجب لتاركه الضرر الأعظم الأكمل "(٣) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٢٤)، وانظر: زاد المسير (٣/ ١٢) .

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٠٣) .

(٣) المصدر السابق .

المطلب الثالث: الوحدة والاتفاق:

من أهم المبادئ التي دعا إليها الإسلام، وأمر بها الله تعالى في القرآن، وحث عليها رسول الأنام: الوحدة بين المسلمين، وعدم التنازع والاختلاف بينهم، يقول الله سبحانه: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾[آل عمران:١٠٣]، ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[آل عمران: ١٠٥] .

والاعتصام وعدم التفرق، مما يرضاه الله تعالى لعباده، كما أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم: أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال "(١) .

والنصوص في هذا الباب كثيرة وعديدة، والتي تؤكد في مجموعها أن من الآثار الهامة المترتبة على الهداية القرآنية: الوحدة والاتفاق بين المسلمين، فالمجتمع المسلم إذا تحققت لدى أفراده الهداية القرآنية كان مجتمعًا موحَّدًا متفقًا بعيدًا عن التفرق والشتات؛ لأن القرآن في آياته العديدة ونصوصه الكثيرة يدعو إلى التفرق، ويحذر من الاختلاف، كما تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك ، فالله تعالى يأمر عباده إلى ما " فيه صلاح أنفسهم لأخراهم، بما فيه صلاح حالهم في

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحدود، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة..، برقم: (١٧١٥) .

دنياهم، وذلك بالاجتماع على هذا الدين، وعدم التفرق، ليكتسبوا باتحادهم قوة ونماء "(١).

والنبي الكريم ﷺ عندما هاجر إلى المدينة النبوية كان من أهم المبادئ والأسس التي بنى عليها المجتمع المدني: الوحدة والاتفاق، والعمل على اجتماع كلمة المسلمين، وذلك عن طريق الإخاء بين المهاجرين والأنصار(٢)، وبث روح الألفة والمودة والمحبة والتسامح بين كافة المسلمين(٣)، هذه الأخوة والمحبة التي

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٣٢).

(٢) المراد بهذا الإخاء هو الإخاء الخاص، وهو ما وقع في المدينة النبوية من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك ﷺ، على المشهور مما ذكره أهل التأريخ والسير، وأما الإخاء العام بين المسلمين فهذا أحد مبادئ الدين الإسلامي كما وردت النصوص الكثيرة من القرآن والسنة في بيانها والتأكيد عليها وبيان أهميتها، ومن ذلك: قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[الأنفال:٦٣] . انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٨-١١٠)، والسيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٣٢٧، ٣٢٨)، وزاد المعاد لابن القيم (٣/ ٥٦-٥٨).

(٣) العديد من النصوص في القرآن والسنة جاءت في هذا الشأن، ومن ذلك: ما أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، برقم: (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: " لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا "، وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " . أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، برقم: (٦٠١١)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين

أثمرت فيما بعد مجتمعًا مسلمًا متآلفًا قويًّا متماسك الأركان، لا تهزه رياح الفتن، ولا تثيره أمواج الإحن .

فالأمة التي توفق لهداية القرآن الكريم أمة خير وبر وصلاح، إن تمثلت به الأمة صلح حالها، وارتقت إلى قمة الهرم في مقاييس الأمم، كما كان مجتمع أصحاب النبي ﷺ حين اهتدوا بالقرآن، وتمثلوا سلوكه، وساروا على نهجه، فالقرآن لا يهدي إلا لأحسن الأخلاق وأقومها، وأفضل الخلال وأحسنها، فمن وفقه الله تعالى للهداية القرآنية كان موفقًا مسددًا في أقواله وأفعاله، فلا يقول إلا حسنًا، ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[البقرة:٨٣]، ولا يعمل إلا حقًّا، يطابق قوله فعله، وفعله قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[الصف:٢، ٣] .

في معرض حديثه عن الأصول والقواعد الشرعية لسورة البقرة، ذكر رشيد رضا رحمه الله العديد من القواعد ، ومنها: " القاعدة الحادية عشرة: أن الإيمان الحق، والاعتصام بدين الله تعالى المنزل كما أنزله يقتضي: الوَحدة والاتفاق، وترك الاهتداء به يورِّث الاختلاف والشقاق .

وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم: (٢٥٨٦) . وعن أنس بن مالك ﷺ، عن النبي ﷺ قال: " والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " . رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، برقم: (١٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، برقم: (٤٥)، وأمثال هذه النصوص في القرآن والسنة كثيرة . انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٤١٩) .

وشواهده من السورة: قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ﴾[آية:١٣٧]، وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾[آية:١٧٦]، وقوله: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[آية: ٢١٣] .. "[١].

إن التفرق والاختلاف مضاره عديدة، ومصائبه وخيمة، فإذا حل التفرق أدى ذلك إلى تفرق الأمة وفشلها، وذهاب هيبتها وقوتها، وتغلب الأعداء عليها، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[الأنفال:٤٦].

يقول السعدي رحمه الله: " فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم، يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم، وتنقطع روابطهم، ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام "[٢].

وقد أشار الشنقيطي رحمه الله إلى هذا الداء وطريقة الخروج منه من خلال

---

(١) تفسير المنار (١/ ٩٣-٩٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:١٤١).

الاهتداء بالقرآن الكريم، وذلك في معرض حديثه عن الاهتداء بالقرآن الكريم في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩]، فقال رحمه الله: " المشكلة الثالثة: هي اختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في القضاء على كيان الأمة الإسلامية؛ لاستلزامه الفشل، وذهاب القوة والدولة .. فترى المجتمع الإسلامي اليوم في أقطار الدنيا يضمر بعضهم لبعض العداوة والبغضاء، وإن جامل بعضهم بعضًا فإنه لا يخفى على أحد أنها مجاملة، وأن ما تنطوي عليه الضمائر مخالف لذلك .

وقد بيّن تعالى في سورة الحشر أن سبب اختلاف القلوب: ضعف العقول، كما قال تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[الحشر:١٤]، ولا شك أن داء ضعف العقل الذي يصيبه فيضعفه عن إدراك الحقائق، وتمييز الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، لا دواء له إلا إنارته بنور الوحي؛ لأن نور الوحي يحيا به من كان ميتًا، ويضيء الطريق للمتمسك به، فيريه الحق حقًّا، والباطل باطلًا، والنافع نافعًا، والضار ضارًّا، قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة:٢٥٧]، ومن أخرج من الظلمات إلى النور أبصر الحق؛ لأن ذلك النور يكشف له عن الحقائق فيريه الحق حقاً والباطل باطلًا .. "(١) .

وللضرر الكبير الذي يوقعه الاختلاف على أمة الإسلام أمر النبي ﷺ بقتل

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٤،٥٣).

كل من تسول له نفسه تفريق هذه الأمة، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن عرفجة بن شريح الأشجعي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إنها ستكون هَنَات وهَنَاتٌ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميعٌ، فاضربوه بالسيف كائناً من كان "[1] .

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، برقم : (١٨٥٢).

المطلب الرابع: التمكين في الأرض:

خلق الله تعالى الإنسان، وأراد له الخلافة في الأرض، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة:٣٠]، أي: " قومًا يخلف بعضهم بعضًا، قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل "(١)، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[فاطر:٣٩]، وقال عزّ وجلّ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾[الأنعام:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾[النمل:٦٢]، ونحوها من الآيات .

ثم خص الله تعالى طائفة من الناس فمكن لهم في الأرض بمشيئته وإرادته سبحانه، وفق شروط وضوابط معينة أخبر عنها القرآن في آيات عديدة من كتابه، كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ﴾[النور:٥٥]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[الحج:٤١]، وقال: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾[الأعراف:١٣٧] .. ونحوها من الآيات .

وهذا الوعد عام " لكل من اتصف بهذا الوصف، فلما اتصف به الأولون استخلفهم الله كما وعد، وقد اتصف بعدهم به قومٌ بحسب إيمانهم وعملهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٢٤) .

الصالح، فمن كان أكملَ إيمانًا وعمل صالحًا كان استخلافه المذكور أتم، فإن كان فيه نقص وخلل كان في تمكينه خلل ونقص، وذلك أن هذا جزاء هذا العلم، فمن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء "(١) .

وهو وعد " مسطور في الكتب الشرعية والقدرية، وهو كائن لا محالة"(٢)، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[الأنبياء:١٠٥] .

يقول السعدي رحمه الله: " فهذه من أوعاد الله الصادقة، التي شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وعدَ من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة؛ لفضلها وشرفها، ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، ليكون غيرهم من أهل الأديان، وسائر الكفار، مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جدًّا بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل .

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشاهد الاستخلاف في

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٨/ ٣٠٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣٧) .

الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا، ولا يخافون أحدا إلا الله، فقام صدر هذه الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام، والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان، والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويديلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح "[1].

وإن المتأمل لحال الرعيل الأول، من سلف هذه الأمة رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين، الذين قرأوا القرآن، فآمنوا بآياته، واهتدوا بهديه، انقلب حالهم إلى أحسن حال، فأصبحوا سادة بعد أن كانوا مسودين، وصاروا قادة بعد أن كانوا مستعبدين، فتح الله تعالى عليهم البلاد، وقهر لهم العباد، فتهاوت العروش تحت أقدامهم، ودانت لهم الدنيا في فترة وجيزة من الزمان، وصدق الله العلي العظيم إذ يقول: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران: ٢٦][2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٧٣) .

(٢) انظر: التمسك بالقرآن الكريم للدكتور/ عبد الله بن عمر الشنقيطي(٢/ ٥٣١) .

فالأمة التي تريد التمكين والاستخلاف في الأرض لا بد لها من العودة لكتاب الله تعالى فتهتدي به، وتسلك سبيله، كما كان سلف هذه الأمة رضوان الله تعالى عليهم .

المطلب الخامس: الأمان والطمأنينة:

الأمن والأمان، والعيش بطمأنينة وسلام مطلب مهم لكل فرد على وجه الأرض، فكل إنسان يبحث عن الأمن والطمأنينة، إلا أن الأمن الحقيقي، والأمان المطلق، والطمأنينة التامة، لا تتحقق حقيقة إلا لمن آمن بالله تعالى، واتبع هداه، واهتدى بآياته وكلامه، وصدَّق رسوله ومصطفاه، وقد بين الله تعالى هذا الأمر في آيات عديدة من كتابه، كما قال سبحانه: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة:٣٨]، ففي قوله: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾نفي لجنس الخوف، وهذا يشمل نفي الخوف في الدنيا والآخرة[١]، أي: لا خوف عليهم " من وسوسة الشيطان، ولا مما يعقبها من الشقاء والخسران، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾على فوت مطلوب، أو فقد محبوب؛ لأنهم يعلمون بهذه الهداية أن الصبر والتسليم مما يُرضي الله تعالى، ويجوب مثوبته، ويفتح للإنسان باب الاعتبار بالحوادث، ويقويه على مصارعة الكوارث، فيكون له من ذلك خيرَ عوض عما فاته، وأفضل تعزية عما فقده .. فالمهتدون بهداية الله تعالى لا يخافون مما هو آت، ولا يحزنون على ما فات؛ لأن اتباع الهدى يسهِّل عليهم طريق اكتساب الخيرات، ويعُدُّهم لسعادة الدنيا والآخرة، ومن كانت هذه وجهته، يسهل عليه كلُّ ما يستقبله،

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٤٤٤) .

ويهون عليه كلُّ ما أصابه أو فقده؛ لأنه موقن بأن الله يخلفه، فيكون كالتعب في الكسب، لا يلبث أن يزول بلذة الربح الذي يقع أو يتوقع "[١].

يقول السعدي رحمه الله: " فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما: أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا حصل ضدهما، وهو: الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما وهو: الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه: حصل له الأمن، والسعادة الدنيوية والأخروية، وانتفى عنه كل مكروه من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب.. "[٢].

وقال تعالى عن المؤمنين الصادقين العاملين: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور:٥٥]، أي: أن من آمن بالله تعالى، وعمل الصالحات أذهب الله تعالى عنه الخوف، وأبدله بالأمن والطمأنينة[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الأنعام:٨٢] ما يدل على أن الأمن التام، والاهتداء المطلق، إنما هما لمن

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٣٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٠).

(٣) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٢٥٩).

لم يلبِس إيمانه بشرك[١]، وفي المراد من الأمن في الآية، يقول السعدي رحمه الله في تفسير الآية: " الأمن من المخاوف، والعذاب، والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقًا، لا بشرك ولا بمعاص، حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة، وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها .. "[٢].

---

(١) أضواء البيان (١/ ٢٤٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٦٣).

المطلب السادس: السعادة الحقيقية:

جميع الناس يبحث عن السعادة، ويحاول الوصول إلى تحقيقها في حياته، مع تفاوت مشاربهم، واختلاف مناهلهم، فبعضهم يبحث عنها في المال، وبعضهم في الجاه، وبعضهم في المنصب، وبعضهم يبحث عنها في كثرة الولد والذرية .. وهكذا، كل يبحث عنها فيما يعتقد ويظن أنها مسلكها وطريقها، وكل ما تقدم ذكره، قد يكون مصدر سعادة ولا شك، ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[آل عمران:١٤]،إلا أنها سعادة مؤقتة، تزول بزوالها، وتنتهي بانتهاء نشوتها، أو قد يأتي ما يكدرها في ثناياها، فيحصل له الشقاء والتعاسة .

لذا كانت السعادة الحقيقية في كتاب الله تعالى، والاهتداء بهديه، واتباع آياته، فالقرآن الكريم تضمن كل خير وبر، من اتبعه واهتدى بهديه، اكتسب السعادة الحقيقية، التي لا شقاء معها ولا ضلال، ومن أعرض عنه شقي وضل، وعاش عيشة ضنكًا، كما قال تعالى:﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[طه:١٢٣-١٢٤]، لأنه وصل إلى المقصود الأعظم: تقوى الله تعالى، وخشيته في السر والعلن، فإذا حصل ذلك تحققت السعادة الحقيقية في قلبه، واطمأن فؤاده "فخشية الله، والتقوى، توأمان، لا يصل الإنسان إلى السعادة إلا بهما، فلولا التقوى والخشية من الله؛ لاسترسل الإنسان في شروره، وانكب على شهواته، وأضاع حياته، فخشية الله المقرونة بالتقوى،

تربي الضمير الإنساني ، وتجعله متحليًا بالأخلاق الفاضلة، كريمًا، شجاعًا، بعيدًا عن الرذائل، يحافظ على حق الله وحق عباده .. وفي أمثال العرب: السعيد من اتقى الله "(١) .

يقول الشاعر(٢):

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرًا وعند الله للأتقى مزيد
وما لا بد أن يأتي قريب ولكنَّ الذي يمضي بعيد

فإذا تحققت التقوى في نفس المسلم، تحققت له السعادة الحقيقة، في الدنيا قبل الأخرى، فالله تعالى وصف التقوى " بأنها صيانة النفس عن كل ما يضر ويؤذي، والابتعاد عن كل ما يحول بين الإنسان والغايات النبيلة، التي بها كماله في جسمه وروحه "(٣) .

وقد وعد الله سبحانه من اتقاه بوعود كثيرة، تحقق له هذه السعادة المرجوة، ومن هذه الوعود:

* البشارة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

(١) صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، للقاضي حسين المهدي (٢/ ٦٧،٧٧) .

(٢) هو: جرول بن أوس بن مالك العبسي، المعروف بالحطيئة (ت:٤٥هـ) . وانظر: الأمالي لأبي علي القالي (٢/ ٢٠٢)، ولباب الآداب لأبي المظفر الكناني (ص:٢٢) .

(٣) صيد الأفكار (٢/ ٧٨) .

وَفِي ٱلْآخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[يونس: ٦٢ – ٦٤] .

* معية الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨]، ومن كان الله معه، فقد ربح الدنيا والأخرى .

* تكفير السيئات، وإعظام الأجور، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾[الطلاق:٥] .

* تقبل الأعمال، وضمان دخول الجنان بإذن الواحد الديان، قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[المائدة:٢٧]، وقد روي عن ابن عمر أو غيره من الصحابة رضوان الله عليهم: " لو أعلم أن الله يتقبل مني سجدة واحدة، لم يكن غائبٌ، أحب إلي من الموت "[(١)]، وعن فضالة بن عبيد رحمه الله أنه قال: لأن أكون أعلم أن الله قد تقبل مني مثقال حبة من خردل، أحب إلي من الدنيا وما فيها؛ لأن الله يقول: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[(٢)]، والجنة وعد الله تعالى بها عباده المتقين، المتقين، قال سبحانه: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٦]، وقال عزّ وجلّ: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾[مريم:٦٣]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[مريم:٧٢] .

* الحصن من الشيطان، والحرز من مكائده، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[الأعراف:٢٠١] .

---

(١) المنار المنيف (ص:٣٢) .

(٢) لطائف المعارف (ص:٢٠٩) .

* الحفظ من الأعداء، والنجاة من كيدهم، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[آل عمران:١٢٠]، وقال عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾[النحل:١٢٨] .

* نيله رحمة الله، وفوزه بنوره سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾[الأعراف:١٥٦]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الحديد:٢٨] .

* حلول البركات، وفتح أبواب السموات، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الأعراف:٩٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ ﴾[الطلاق:٢، ٣] .

* المخرج من المآزق، والكشف عن الهموم والغموم، والتيسير في كل الأمور، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا .. وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:٢-٤] .

كل هذه الوعود وغيرها لمن اتقى الله تعالى لا شك تحقق له السعادة الحقيقية في الدنيا، ثم الوصول إلى السعادة الدائمة الأبدية يوم القيامة بتكفير سيئاته وإعظام أجره ودخول جنته بإذن الله سبحانه، اللهم اجعلنا ممن اتقاك، واتبع رضاك يا رب العالمين .

وبعد: فهذه جملة من الآثار تتحقق للأمة إن التزمت بهدي كتاب ربها، واتبعت سنة نبيها ﷺ، وغيرها الكثير من الآثار، والذي يتحقق فيها: صلاح هذه الأمة وفلاحها، عزها ومجدها، نصرها وتمكينها .

نسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يرزقنا التبصر في الدين، وتدبر كلام رب العالمين ، ويعيننا على الاهتداء بهدي القرآن، والتمسك بسنة سيد الأنام، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين .

الخاتمة

الخاتمة

النتائج والتوصيات

بعد هذه الدراسة العلمية نصل بهذا البحث إلى خاتمته التي تضمنت أهم النتائج والتوصيات، التي ألخصها في الآتي:

أولًا: النتائج:

١/ جاءت كلمة الهدى في القرآن الكريم بمعانٍ تتوافق مع اللغة وتزيد عليها، تتوافق معها في الدلالة والإرشاد إلى المطلوب، والتي منها: البيان، والمعرفة، والتعليم، والاستبصار، والدعوة، والسنة، وهذه كلها من العبد، وهي وسائل للإرشاد العام، وأضاف القرآن على معنى الهداية في اللغة: الإلهام، والتوفيق، والثبات والزيادة، وهذه كلها من الله تعالى، وهي الدلالة الموصلة للمطلوب .

٢/ الهدايات القرآنية في الاصطلاح هي: الدلالة المبينة لإرشادات القرآن الكريم التي توصل لكل خير، وتمنع من كلِّ شر .

٣/ أنّ علم التفسير يهتم ببيان المعاني في الغالب، بينما علم الهدايات يهتم بما تهدي وترشد وتدل عليه تلك المعاني ، فالتفسير بيان، والهدايات دلالات وإرشادات، يخلص إليها بعد معرفة معاني الآية، وعلم التفسير هو الأصل لعلم الهدايات .

٤/ علم الهدايات القرآنية يتجه نحو توظيف المعاني الظاهرة والخفية في الدلالات والإرشادات، بينما اتجاه علم الاستنباط نحو المعاني الخفية والدقيقة التي تضمنتها الآية، والعلاقة بينهما علاقة الوسيلة بالمقصد، والجزء بالكل .

٥/ علماء التفسير يعبرون عن الهدايات بإطلاقات متنوعة، وبعد التتبع وجدناها تدور حول سبعة ألفاظ وهي: الدلالة، والإرشاد، والفائدة، والبيان، والإشارة، والفهم، الأخذ، وهنالك ألفاظ أخرى لم يكثر استعمالهم لها .

٦/ تظهر أهمية الهدايات القرآنية من حيث موضوعها الذي هو كلام رب العالمين، ومن حيث عظيم صفاتها فهي نور وهدى، وشفاء ورحمة، ومن حيث هدفها الجليل المتمثل في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإرشادهم إلى ما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة، ومن حيث شدة الحاجة إليها، لا سيما في عصر تعقدت مشكلاته، الاجتماعية، والنفسية، والسياسية، والاقتصادية، وغيرها، ومن حيث أثرها البليغ؛ لأنها تبلغ كل كمال وسعادة، وتصون عن كل فساد وانحراف .

٧/ أبرز خصائص الهدايات القرآنية: أنها ربانية المصدر والغاية، وأنها تمثل المقصد الأول للقرآن الكريم، وأنها عامة وشاملة، وأنها كاملة وتامة، وأنها غاية في الوضوح واليسر، وأنها خالدة ومتجددة، وأنها في أعلى درجات المثالية والواقعية .

٨/ تنقسم الهدايات القرآنية إلى أربعة أنواع، وهي: الهداية العامة، ويطلق عليها بعض العلماء هداية الفطرة، والنوع الثاني: هداية البيان والدلالة: ويطلق عليها

العلماء هداية التعليم، وهداية الإرشاد، وهداية الدعوة، وهي النوع الوحيد الذي له تعلق بالعبد، والنوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، يطلق عليها العلماء هداية التأييد، وهي تكون بجعل الهدى في القلب، الذي لا يقدر عليه إلا الله تعالى، والنوع الرابع: الهداية في الآخرة: و يطلق عليه العلماء الهداية إلى الجنة والنار، وهو ثمرة ونتيجة تحقق الهداية ومحصلتها في الدنيا .

٩/ تنقسم مجالات الهدايات القرآنية إلى قسمين: مجالات متفق عليها، وهي أربعة مجالات: العقيدة، والعبادة، والأخلاق والآداب، والمعاملات، ومجالات مختلف فيها، وهي المجالات العلمية، وأن أعظم المجالات وأنفعها هو مجال العقيدة؛ إذ بها صلاح الدين والدنيا والآخرة .

١٠/ حال الناس من الهدايات القرآنية انقسم في الجملة إلى قسمين: معرضون عنها وهؤلاء هم الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وصدفوا عنها، ومقبلون عليها، وهؤلاء الذين آمنوا بها، ولكنهم في اتباعها تفاوتت مراتبهم ودرجاتهم .

١١/ الأسلوب القرآني هو: طريقة القرآن الكريم في اختيار الألفاظ، وتأليف الكلام، والدلالة على المعاني، فهي القوالب التي تصاغ فيها المعاني وتعرض بها الهدايات، في حين أن الوسائل هي الطرق التي جاء بها القرآن لتحقيق الهدايات، ومتى سلكها الإنسان كانت سببًا في إيصاله إلى الهداية بأنواعها - بتوفيق الله تعالى - .

١٢/ الأساليب التي استخدمها القرآن في عرض هداياته كثيرة منها: الاستفهام، والتوكيد، والتكرار، والطباق والمقابلة، والالتفات، والحوار، والأمثال، والأخبار

والقصص، وأسلوب التحدي والتعجيز، والترغيب والترهيب، والتقديم والتأخير، وغيرها من أساليب لها حضورها المتنوع والمتميز في القرآن الكريم .

١٣/ وسائل القرآن في عرض هداياته كثيرة منها: الاستدلالات العقلية، وإنكار التقليد والتحذير منه، والأمر بتدبر القرآن، والحث على العمل بالقرآن، واتخاذ القدوات، والإشادة بهم، والأمر باتباعهم، والأمر بسؤال الهداية، والتذكير بأصل الخلقة مع الأمر بالتفكر في أصل الخلق وعظمته، والإتقان في صنعه، والإحكام الدقيق في تسيير حياته .

١٤/ أهم ما يميز أساليب ووسائل الهدايات القرآنية: كمال الفصاحة التي تعلوها، وغاية البلاغة التي تكسوها، وصدقها، والتنوع في صياغتها ودلالاتها وهداياتها، والشمول، فهي شاملة لجميع أنواع الأساليب البلاغية، والوسائل العقلية والوعظية والعلمية، ووضوحها، وبيانها لجميع الناس ممن يفهم لغة العرب، ومخاطبتها للعقل والعاطفة معًا، ودقة اختيار ألفاظه، والعمق في دلالة معانيه، مع التناسب والتناغم بين آياته .

١٥/ هدي السلف في التعامل مع هدايات القرآن يتمثل في: كثرة تلاوة القرآن والاهتمام بحفظه وإدامة النظر فيه، والاهتمام بتعلم أحكامه ومعانيه، والعمل بهدايات القرآن ظاهرًا وباطنًا، وتعليم القرآن ومدارسة هداياته، والتأكيد على معرفة أحوال النزول، واستحضار هدايات القرآن في مختلف المواقف، واجتناب المراء والجدال، والبعد عن تكلف ما لم يؤمروا به تجاه القرآن تأويلًا أو عملًا، والبعد عن الاختلاف في القرآن .

١٦/ استخدم العلماء طرقًا محددة للوصول إلى الهدايات القرآنية منها: الاعتماد على دلالات الألفاظ، والالتفات إلى تنوع الأساليب، وتدبرها للوصول للهدايات، والنظر في الاختلاف، والتأمل في مجموع أدلة الكتاب والسنة، والصدور من أصول الشريعة، واستحضار حكم التشريع وأسراره، والاستفادة من أوجه الإعراب، وفهم الآيات من خلال أحوال النزول، والنظر في المناسبات، والتأمل في مواضع اقتران أسماء الله الحسنى، واستنباط مقاصد القرآن، والنظر في السياق، والاستفادة من آثار الصحابة والتابعين، والتدبر في قراءة النبي ﷺ في الصلوات وبعض الأحوال، والنظر في دلائل الرسم، وربط الآيات بالواقع، وتأمل الآيات من خلال مكتشفات العلوم الكونية المطابقة لظواهر القرآن .

١٧/ الوصول لفهم معاني القرآن الكريم واستخراج هداياته: وضع لها العلماء أصولًا وقواعد وضوابط محكمة لابد من الإلمام بها لكلٍّ مشتغل بعلم الهدايات، ومن أدرك الأصول والقواعد والضوابط التي وضعها العلماء بأدلتها، ونظر في تطبيقاتهم لها، وتمرس عليها، تكاملت عنده ملكة التفسير، وصار باستطاعته الفهم الصحيح، والاستنباط السليم، والترجيح والاختيار القويم .

١٨/ هنالك أصول عامة مطردة وضعها العلماء، للتعامل مع القرآن الكريم بمنهجية صحيحة، في فهمه، والاهتداء بهديه، ينبغي تعلمها قبل النظر في الهدايات القرآنية، وهي لا تدل على الهدايات مباشرة، وإنما هي ضابطة لفهم هدايات الكتاب العزيز، من ذلك: " العمل بأدلة الكتاب والسنة، ولا يقال

بالنسخ إلا بدليل قاطع "، ومنها: " القرآن الكريم جعله الله تعالى تبيانًا لكلِّ شيء "، ومنها: " القرآن الكريم ليس فيه اختلاف تناقض أو تفاوت "، وغيرها مما جاء في الدراسة .

١٩/ تنقسم القواعد التي وضعها العلماء إلى قسمين: قواعد عامة، وضعها العلماء في استخراج الهدايات القرآنية، وقواعد أخرى تستخدم عند الترجيح والاختيار بين الهدايات التي استخرجها العلماء .

٢٠/ القواعد التي ذكرها العلماء في الوصول للهداية كثيرة، من ذلك: " تؤخذ الهداية من كلِّ قراءة ثابتة عن النبي ﷺ "، ومنها: " ألفاظ القرآن مشتملة على جوامع المعاني "، ومنها: " ينبغي حمل الآية على أوسع المعاني "، وغيرها من قواعد .

٢١/ القواعد التي ذكرها العلماء للترجيح والاختيار بين الهدايات كثيرة، من ذلك: " الهداية التي تؤيدها آية قرآنية أو حديث نبوي مقدم على ما عدم ذلك "، ومنها: " إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما، إلّا بدليل يجب التسليم له "، ومنها: " القول بالتأسيس أولى من القول بالتأكيد "، وغيرها من قواعد .

٢٢/ أبرز الضوابط التي وضعها العلماء في التعامل مع الهدايات القرآنية: التزام طرق الفهم الصحيح للقرآن الكريم، وعدم الخوض فيما استأثر الله بعلمه، وعدم الخوض في هدى القرآن بغير علم، والالتزام بضوابط اللغة العربية في فهم المعنى، والالتزام بفهم المعنى وفق السياق الذي ورد فيه، وجمع الآيات في

الموضوع الواحد وفهمها مجتمعة، و أن يجرد المفسر نفسه من الهوى .

٢٣/ سبل تحقيق الهدايات القرآنية كثيرة، من أبرزها: الإيمان بالله تعالى وتقوى الله والاستجابة لأوامره سبحانه وتعالى، والاستجابة لرسول الله ﷺ واتباع هديه، واتباع أصحاب النبي ﷺ، والدعاء، والتوبة والإنابة إليه سبحانه، وتلاوة القرآن الكريم وتدبره، والعلم والعمل به، وغيرها .

٢٤/ أبرز موانع تحقيق الهدايات القرآنية: الكفر، الظلم، الفسق، العجب بالنفس، الخيانة، حب الدنيا وكراهية الموت، اتباع الهوى، وغيرها .

٢٥/ تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة تترتب عليه آثار عظيمة، منها: قوام الأمة في جميع شؤون حياتها، الوحدة والاتفاق، الوصول إلى الحق والصواب، الأمان والطمأنينة، الوصول إلى السعادة الحقيقية .

ثانيًا: التوصيات:

ولما كانت هذه الدراسة تمثل الجانب النظري لموسوعة الهدايات القرآنية الذي سوف تكتب على ضوئه الدراسة التطبيقية، فإن فريق البحث يوصي بالآتي:

١/ إلزام جميع طلاب المشروع بقراءة هذه الدراسة وفهمها بدقة؛ لأن النجاح في تنفيذ المشروع، يتطلب الفهم الجيد لهذه الدراسة .

٢/ تحويل بعض المباحث التطبيقية لحقائب تدريبية للطلاب، حتى يسهم في تسهيل وجودة الدراسة التطبيقية .

٣/ إفراد موقف كل مفسر من موضوع الهدايات، يسهم في تجلية هذا المشروع في الجوانب التطبيقية .

تمَّ والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات في أواخر

شهر محرم من عام ١٤٣٧هـ، ببلد الله الحرام مكة المكرم .

المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الإبانة الكبرى، لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري، المعروف بابن بَطَّة، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، الرياض: دار الراية للنشر والتوزيع.

٣- أبجد العلوم، لأبي الطيب محمد صديق خان الحسيني البخاري القِنَّوجي، الطبعة الأولى، دار ابن حزم، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٤- الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، الشارح: محمد منير بن عبده أغا النقلي الدمشقي الأزهرى، شرحه باسم: «النفحات السلفية بشرح الأحاديث القدسية»، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، وطالب عواد، بيروت: دار ابن كثير.

٥- الإتقان في علوم القرآن، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، تحقيق وطبع: مركز الدراسات القرآنية، التابع لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة ١٤٢٦هـ.

٦- أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، لعبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٧- الأحرف السبعة للقرآن، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبي عمرو الداني، تحقيق: د. عبد المهيمن طحان، مكة المكرمة: مكتبة المنارة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٨- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لمحمد بن حبان، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٩- أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصاص، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥هـ.

١٠-أحكام أهل الذمة، لابن القيم الجوزية، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري، الدمام: رمادى للنشر، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١١-الإحكام في أصول الأحكام، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الآفاق الجديدة.

١٢-إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، بيروت: دار المعرفة.

١٣-الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها، لعبد الله بن ضيف الله الرحيلي، مطبعة سفير.

١٤-أخلاق أهل القرآن لأبي بكر محمد بن الحسين الآجُرِّيُّ البغدادي، تحقيق: محمد عمرو عبد اللطيف، بإشراف المكتب السلفي لتحقيق التراث، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٥-آداب البحث والمناظرة، لمحمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: سعود العريفي، دار عالم الفوائد.

١٦-أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، دار مكتبة الحياة ١٩٨٦م.

١٧-الأدب المفرد، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، وعليها تعليقات الألباني، الطبعة الثالثة، بيروت: دار البشائر الإسلامية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٨-الأذكار، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، بيروت: دار الفكر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٩-الأربعون لأبي العباس الحسن بن سفيان الشيباني الخراساني النسوي، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٢٠-إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، محمد بن محمد العمادي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الرياض: مكتبة الرياض الحديثة.

٢١-إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٢٢-الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، للدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الطبعة الرابعة، الدمام: دار ابن الجوزي ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٣-استخراج الجدل من القرآن، لناصح الدين عبد الرحمن الحنبلي، تحقيق: زاهر بن عواض الألمعي، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

٢٤-الاستذكار، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢١/ ٢٠٠٠م.

٢٥-الاستشفاء بالقرآن الكريم لعلي بن غازي التويجري، بدون معلومات.

٢٦-الاستقامة، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، المدينة المنورة : جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

٢٧-أسرار البلاغة، لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني النحوي، جدة: دار المدني .

٢٨-أسس الحضارة الإسلامية؛ لعبد الرحمن الميداني، دمشق: دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .

٢٩-الأسلوب، لأحمد الشايب، الطبعة الثانية عشر، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ٢٠٠٣م .

٣٠-أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم؛ غرضه - إعرابه، لعبدالكريم محمود يوسف، دمشق: مطبعة الشام، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م .

٣١-الأشباه والنظائر، لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

٣٢-الأشباه والنظائر لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م .

٣٣-الأَشبَاهُ والنَّظَائِرُ على مذهَبِ أبِي حَنيفةَ النُّعمانِ، لزين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م .

٣٤-الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان البلخي، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى، دبي: مركز جمعة الماجد ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م .

٣٥-الاشتقاق، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الأولى، بيروت: دار الجيل ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

٣٦-الإصابة في تمييز الصحابة، لأبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .

٣٧-أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ، لنخبة من العلماء ، الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف ، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٣٨-أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، لعبد الرحمن النحلاوي، الطبعة الخامسة والعشرون، بيروت: دار الفكر، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م .

٣٩-أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة، لحمد بن إبراهيم العثمان، بيروت: دار ابن حزم، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م .

٤٠-أصول الدعوة، لعبد الكريم زيدان، الطبعة التاسعة، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م .

٤١-أصول في التفسير، لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، تحقيق: قسم التحقيق بالمكتبة الإسلامية، المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٤٢-أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، بيروت: دار الفكر ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٤٣-إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، لصالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٤٤-الاعْتِصَام، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: د. محمد بن عبد الرحمن الشقير، د. سعد بن عبد الله آل حميد، د. هشام بن إسماعيل الصيني الطبعة الأولى، الدمام: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٤٥-الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، لعبدالله المصلح، وعبدالجواد الصاوي، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٤٦-إعجاز القرآن للباقلاني، لأبي بكر الباقلاني محمد بن الطيب، تحقيق: السيد أحمد صقر، الطبعة الخامسة، القاهرة: دار المعارف ١٩٩٧م.

٤٧-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي، الطبعة الثامنة، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

٤٨-إعراب القرآن، لأبي جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٤٩-إعلام الموقعين عن رب العالمين، المحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم ، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

٥٠-إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الرياض: مكتبة المعارف .

٥١-أفلا يتدبرون القرآن، لناصر بن سليمان العمر، الرياض: دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م .

٥٢-اقتضاء العلم العمل، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ.

٥٣-الأمالي = شذور الأمالي = النوادر، لأبي علي القالي، إسماعيل بن القاسم، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، القاهرة: دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م .

٥٤-أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، لعبد الرحمن حسن حبنكة، دمشق: دار القلم ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٥٥-الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، لعبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، الطبعة الأولى، المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٥٦-الأمثال في القرآن، لابن قيم الجوزية، تحقيق: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، طنطا: مكتبة الصحابة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٥٧-الانتصار للقرآن، للقاضي أبي بكر ابن الطيب الباقلاني، تحقيق: محمد عصام القضاة، الطبعة الأولى، بيروت: دار ابن حزم ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٥٨-أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفكر ٢٠٠١م.

٥٩-آيات التحدي في القرآن، لعبد العزيز بن صالح العمار، دار كنوز إشبليا، ١٤٢٩هـ.

٦٠-آيات التقوى في القرآن الكريم، للدكتور/ حسين علي خليف الجبوري، منشور على الانترنت، على موقع صيد الفوائد.

٦١-أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لأبي بكر جابر بن موسى الجزائري، الطبعة الخامسة، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٦٢-إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، لصالح بن محمد بن نوح العَمْري المعروف بالفُلَّاني المالكي، بيروت: دار المعرفة .

٦٣-الإيمان، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، عمان: المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

٦٤- الإيمان لابن منده لأبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنْدَه العبدي، تحقيق: علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، بيروت: مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ .

٦٥-بحر الدموع، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: جمال محمود مصطفى، بيروت: دار الفجر للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م .

٦٦-بحر العلوم، لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، المكتبة الشاملة، موافقة للمطبوع .

٦٧-البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف ابن حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معرض، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .

٦٨-بدائع التفسير الجامع لما فسره ابن قيم الجوزية، جمع: يسري السيد محمد، الدمام: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ .

٦٩-بدائع الفوائد، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، بيروت: دار الكتاب العربي .

٧٠-البدع والنهي عنها، لأبي عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني القرطبي، تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم، الطبعة الأولى، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، القاهرة ١٤١٦هـ .

٧١-البرهان في أصول الفقه، لعبد الملك بن عبد الله الجويني، أبي المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م .

٧٢-البرهان في تناسب سور القرآن، لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، تحقيق: د. سعيد بن جمعة الفلاح، الطبعة الأولى، الدمام: دار الجوزي، ١٤٢٨هـ .

٧٣-البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م .

٧٤-بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: محمد علي النجار، بيروت: المكتبة العلمية ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م .

٧٥-بصائر في الفتن، لمحمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، الإسكندرية: الدار العالمية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م .

٧٦-بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، لعبد المتعال الصعيدي، الطبعة ١٧، القاهرة: مكتبة الآداب، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م .

٧٧-تاج العروس من جواهر القاموس، لأبي الفيض محمد الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، بيروت: دار الهداية .

٧٨-التاريخ الكبير، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبي عبد الله، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان .

٧٩-تاريخ بغداد، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م .

٨٠-تاريخ دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

٨١-تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية .

٨٢-التبيان في آداب حملة القرآن، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد الحجار، الطبعة الثالثة بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

٨٣-التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٨٤-التبيان في أقسام القرآن، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: دار المعرفة .

٨٥- التَّحبير لإيضَاح مَعَاني التَّيسير، لمحمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، المعروف كأسلافه بالأمير، تحقيق: محَمَّد صُبْحي بن حَسَن حَلّاق أبو مصعب، الرياض: مَكتَبَةُ الرُّشد، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م .

٨٦-التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع ١٩٩٧م .

٨٧-تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، لأبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، بيروت: دار الكتب العلمية .

٨٨-تحفة المودود بأحكام المولود، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى، دمشق: مكتبة دار البيان ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م .

٨٩-تخريج الفروع على الأصول، لمحمود بن أحمد بن محمود بن بختيار، أبو المناقب شهاب الدين الزَّنْجاني، تحقيق: د. محمد أديب صالح، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ .

٩٠- التدبر مفتاح العلم وباب العمل، لسعود بن عبد الله الفنيسان، مطبوع ضمن مطبوعات الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم بعنوان: مفهوم التدبر تحرير وتأصيل، الرياض: مركز تدبر ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م .

٩١-ترتيب الأمالي الخميسية للشجري، ليحيى (المرشد بالله) بن الحسين الموفق بن إسماعيل بن زيد الحسني الشجري الجرجاني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .

٩٢-الترغيب والترهيب، لإسماعيل بن محمد بن الفضل الطليحي التيمي الأصبهاني، أبي القاسم، الملقب بقوام السنة، تحقيق: أيمن بن صالح بن شعبان، القاهرة: دار الحديث، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

٩٣-التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: د. عبد الله الخالدي، الطبعة الأولى، بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ١٤١٦هـ .

٩٤-التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، تحقيق: هند شلبي، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩م، ونسخة أخرى من إصدار مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي، عمان .

٩٥-التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى ، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٥هـ .

٩٦-تعليقات أصولية حديثية على المرشد المعين على الضروروي من علوم الدين، جمع وترتيب: فرح حسن البوسيفي، المكتبة الشاملة .

٩٧-تعليم تدبر القرآن أساليب عملية ومراحل منهجية، لهاشم الأهدل، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية .

٩٨-تفسير ابن باديس « في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير »، لعبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، تحقيق: أحمد شمس الدين، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م .

٩٩-تفسير ابن عثيمين، لمحمد بن صالح العثيمين، الدمام: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ .

١٠٠- تفسير الإمام ابن عرفة، لمحمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، تحقيق: د. حسن المناعي، الطبعة الأولى، تونس: مركز البحوث بالكلية الزيتونية ١٩٨٦م .

١٠١- تفسير التستري، لأبي محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري، جمعها: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ .

١٠٢- تفسير الراغب الأصفهاني، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة، تحقيق: د. محمد عبد العزيز

بسيوني، وبقية الأجزاء، بتحقيق: د. عادل بن علي الشِّدِي، د. هند بنت محمد بن زاهد سردار، مكتبة الشاملة.

١٠٣- تفسير السمعاني، لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس، الرياض: دار الوطن، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٠٤- تفسير الشعراوي = الخواطر، لمحمد متولي الشعراوي، مصر: مطابع أخبار اليوم.

١٠٥- التفسير العلمي للقرآن الكريم، لمحمد بن محمد أبو شهبة، مقال نشر في مجلة رابطة العالم الإسلامي، عدد محرم، الصادر عام ١٣٩٥هـ.

١٠٦- تفسير القرآن العزيز، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز، القاهرة: الفاروق الحديثة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

١٠٧- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الطبعة الثانية، مكة المكرمة: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٠٨- تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولى، لمحمود شلتوت، القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثانية عشر ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

١٠٩- تفسير القرآن الكريم، أصوله وضوابطه، أ.د. علي بن سليمان العبيد، الرياض: مكتبة التوبة، الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ.

١١٠- التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب، القاهرة: دار الفكر العربي.

١١١- التفسير القيم، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الطبعة الأولى، بيروت: دار ومكتبة الهلال ١٤١٠هـ.

١١٢- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، لفخر الدين محمد بن عمر الرازي التميمي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفكر ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١١٣- تفسير المراغي، لأحمد مصطفى المراغي، الطبعة الأولى، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

١١٤- تفسير المنار، للسيد محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١١٥- التفسير الوسيط، لوهبة بن مصطفى الزحيلي، دمشق: دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

١١٦- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمحمد سيد طنطاوي، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

١١٧- التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، و١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١١٨- تفسير عبد الرزاق، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، تحقيق: د. محمود محمد عبده، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ.

١١٩- تفسير مجاهد، لأبي الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي، تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، مصر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، الطبعة الأولى١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

١٢٠- التفسير من سنن سعيد بن منصور، لأبي عثمان سعيد بن منصور الجوزجاني، تحقيق: د. سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، الدمام: دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٢١- تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، لعبد الحميد الفراهي، الهند: الدائرة الحَمِيدية، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

١٢٢- التفسير والمفسرون، لمحمد السيد حسين الذهبي، القاهرة: مكتبة وهبة.

١٢٣- التقوى طريق الله في الحياة الإنسانية، للدكتور/ ناصر الحق.

١٢٤ – التلخيص في أصول الفقه، لعبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبي المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، تحقيق: عبد الله جولم النبالي وبشير أحمد العمري، بيروت: دار البشائر الإسلامية .

١٢٥ – التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلمين، لعبد الله بن عمر محمد الأمين الشنقيطي، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف .

١٢٦ – التمهيد لشرح كتاب التوحيد، لصالح بن عبد العزيز آل الشيخ، الرياض: دار التوحيد، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .

١٢٧ – التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، المغرب: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٣٨٧هـ .

١٢٨ – تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ينسب: لعبد الله بن عباس، جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، بيروت: دار الكتب العلمية .

١٢٩ – تهذيب الأسماء واللغات، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، بيروت: دار الكتب العلمية .

١٣٠- تهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبي منصور ، تحقيق: محمد عوض مرعب، الطبعة الأولى، بيروت: دار إحياء التراث العربي٢٠٠١م .

١٣١- تهذيب سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق وتهذيب: محمد بن حسن الشريف، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الثانية .

١٣٢- التوقيف على مهمات التعاريف، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، الطبعة الأولى، القاهرة، عالم الكتب ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

١٣٣- تيسير التحرير، لمحمد أمين بن محمود البخاري المعروف بأمير بادشاه الحنفي، مصر: مصطفى البابي الحْلَبِي ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م .

١٣٤- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة الأولى، بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م .

١٣٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م .

١٣٦- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، لأبي عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي، الرياض: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .

١٣٧- التيسير في القراءات السبع، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبي عمرو الداني، تحقيق: اوتو تريزل، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٣٨- التيسير في قواعد التفسير، لمحي الدين محمد بن سليمان الكافيجي، تحقيق: د. مصطفى محمد حسين الذهبي، الطبعة الأولى، القاهرة: مكتبة القدسي للنشر والتوزيع ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٣٩- الجامع، لمعمر بن أبي عمرو راشد نزيل اليمن، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية، باكستان: المجلس العلمي، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ.

١٤٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، بتحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٤١- الجامع الصحيح المختصر، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، الطبعة الثالثة، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٤٢- جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة ١٤٢٢هـ.

١٤٣- جامع المسائل لابن تيمية، لتقي الدين أبي العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد عزير شمس، بيروت: دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

١٤٤- جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الدمام: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤م.

١٤٥- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي: تحقيق: هشام سمير البخاري، الرياض: دار عالم الكتب ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٤٦- الجامع لمسائل أصول الفقه وتطبيقاتها على المذهب الراجح، لعبد الكريم بن علي بن محمد النملة، الرياض: مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٤٧- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، لأحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ضبط وتدقيق وتوثيق د. يوسف الصميلي، بيروت: المكتبة العصرية.

١٤٨- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للإمام عبد الرحمن بن محمد مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الأولى، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٤٩- الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لإسماعيل بن محمد التيمي الأصبهاني، أبي القاسم، الملقب بقوام السنة، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، الرياض: دار الراية، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م .

١٥٠- الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م .

١٥١- الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي، دمشق: دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .

١٥٢- حقيقة الظلم: معناه، أنواعه، صوره، عاقبته، للدكتور عبد العزيز بن فوزان الفوزان، منشور على الشبكة العنكبوتية في موقع: شبكة النور .

١٥٣- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، مصر: السعادة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م .

١٥٤- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دمشق: دار القلم .

١٥٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: د.عبد الله عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، القاهرة: مركز هجر للبحوث والدراسات ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .

١٥٦- درء تعارض العقل والنقل، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: د.محمد رشاد سالم، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٥٧- دراسات قرآنية لمحمد قطب، القاهرة: دار الشروق، الطبعة السابعة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٥٨- دراسة وظيفية لأسلوب التوكيد في القرآن الكريم لعائشة عبيزة، رسالة دكتوراه، من جامعة الحاج لخضر بالجزائر ٢٠٠٨م/ ٢٠٠٩م.

١٥٩- درة التنزيل وغرة التأويل، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الإسكافي الأصبهاني، تحقيق: د. محمد مصطفى آيدين، الطبعة الأولى، مكة المكرمة: من إصدارات معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٦٠- دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية ، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي، تحقيق: د. محمد السيد الجليند، دمشق: مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

١٦١- دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، جمع وتحقيق: محمد السيد الجليند، دمشق: مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٦٢- دلالات التقديم والتأخير في القرآن، لمنير محمود المسيري، القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٦٣- دلائل الإعجاز في علم المعاني لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، تحقيق: محمود محمد شاكر، الطبعة الثالثة، القاهرة: مطبعة المدني ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٦٤- ديوان لبيد بن ربيعة العامري، للَبِيد بن ربيعة بن مالك، أبي عقيل العامري الشاعر، اعتنى به: حمدو طمّاس، الطبعة الأولى، بيروت: دار المعرفة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٦٥- ذم من لا يعمل بعلمه، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، دمشق: دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٦٦- رد المحتار على الدر المختار، لمحمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي، الطبعة الثانية، بيروت: دار الفكر ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٦٧- الرد على الجهمية، لأبي سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، الطبعة الثانية، الكويت: دار ابن الأثير ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٦٨- الرد على المنطقيين، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، بيروت: دار المعرفة.

١٦٩- الرسالة التبوكية = زاد المهاجر إلى ربه، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: د. محمد جميل غازي، جدة: مكتبة المدني.

١٧٠- الرسالة المفيدة، لمحمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، تحقيق: محمد بن عبد العزيز المانع، الرياض: رئاسة إدراة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

١٧١- الرسل والرسالات، لعمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، الطبعة الرابعة، الكويت، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، دار النفائس للنشر والتوزيع، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

١٧٢- رفع الأعلام على سلم الأخضري، لمحمد محفوظ، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٧٣- روائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي، ترتيب: طارق بن عوض الله بن محمد، طبعة دار العاصمة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٧٤- روح البيان، لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، بيروت: دار الفكر.

١٧٥- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، عني بنشره وتصحيحه المرحوم السيد محمود شكري الألوسي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٧٦- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، بيروت: دار الكتب العلمية الطبعة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٧٧- زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، الطبعة الثالثة، بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٤هـ.

١٧٨- زاد المعاد في هدي خير العباد، لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية أبو عبد الله، الطبعة السابعة والعشرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، الكويت: مكتبة المنار الإسلامي ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٧٩- الزهد، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السّجِسْتاني، تحقيق: أبو تميم ياسر بن ابراهيم بن محمد، وأبو بلال غنيم بن عباس بن غنيم، حلوان: دار المشكاة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٨٠- الزهد، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٨١- الزهد، لأبي مسعود المعافى بن عمران بن نفيل بن جابر الأزدي الموصلي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، تحقيق: الدكتور عامر حسن صبري، الطبعة الأولى١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٨٢- الزهد، لوكيع بن الجراح بن مليح بن عدي الرؤاسي، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، المدينة المنورة: مكتبة الدار، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٨٣- الزهد والرقائق لابن المبارك، لأبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: دار الكتب العلمية.

١٨٤- الزواجر عن اقتراف الكبائر، لأبي العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين، شيخ الإسلام، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٨٥- زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه، لعبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الرياض: مكتبة دار القلم والكتاب، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

١٨٦- سلاح المؤمن في الدعاء والذكر، لمحمد بن محمد بن علي بن همام أبو الفتح، تقيّ الدين، المعروف بابن الإِمَام، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، دمشق: دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٨٧- سلسلة الآثار الصحيحة أو الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين، لأبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي، راجعه: عبد الله بن صالح العبيلان، دار الفاروق، الطبعة الأولى .

١٨٨- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني ١٤٢٠هـ، الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع .

١٨٩- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، الرياض: دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

١٩٠- السنة، لأبي بكر بن أبي عاصم الشيباني، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ .

١٩١- السنة، لأبي عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ البغدادي، تحقيق: د. محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، الطبعة الأولى، الدمام: دار ابن القيم، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م .

١٩٢- السنن، أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر .

١٩٣- السنن، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر .

١٩٤- السنن، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت: دار إحياء التراث العربي .

١٩٥- السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

١٩٦- السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١ م .

١٩٧- سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين، إشراف/ شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثالثة، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

١٩٨- السيرة النبوية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٦م .

١٩٩- السيرة النبوية، لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبي محمد، جمال الدين، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .

٢٠٠- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، الطبعة الثامنة، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، مكة: دار طيبة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٢٠١- شرح الأربعين النووية، لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الثريا للنشر.

٢٠٢- شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، لتقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، مؤسسة الريان، الطبعة السادسة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٢٠٣- شرح التلويح على التوضيح، لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، مصر: مكتبة صبيح.

٢٠٤- شرح الرضي على الكافية لابن الحاجب، لرضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي النحوي، تحقيق: يوسف حسن عمر، ليبيا: جامعة قار يونس، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٢٠٥- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ « الكاشف عن حقائق السنن »، لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز.

٢٠٦- شرح العقيدة الطحاوية، لصدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي، تحقيق: أحمد شاكر، الطبعة

الأولى، الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤١٨هـ.

٢٠٧- شرح الكوكب المنير، لتقي الدين أبي البقاء محمد بن أحمد الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، الطبعة الثانية، الرياض: مكتبة العبيكان ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٠٨- شرح معاني الآثار، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي، تحقيق: محمد زهري النجار ومحمد سيد جاد الحق، مراجعة: د. يوسف عبدالرحمن المرعشلي، بيروت: عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٢٠٩- الشريعة، لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبدالله الآجُرِّيُّ البغدادي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، الطبعة الثانية، الرياض: دار الوطن ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م.

٢١٠- شعب الإيمان، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبي بكر البيهقي، تحقيق: د.عبد العلي عبد الحميد حامد، الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٢١١- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: دار المعرفة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٢١٢- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، الطبعة الرابعة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢١٣- صَحِيح التَّرغِيب وَالتَّرهِيب، لمحمد ناصر الدين الألباني، الرياض: مكتَبة المَعارف لِلنَشرِ والتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢١٤- صحيح الجامع الصغير وزياداته، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي.

٢١٥- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٢١٦- صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، لأبي عبد الله أحمد بن حمدان بن شبيب بن حمدان النميري الحرّاني الحنبلي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الرابعة، بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٤هـ.

٢١٧- صفوة التفاسير، لمحمد علي الصابوني، القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٢١٨- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الرياض: دار العاصمة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٢١٩- صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، لحسين بن محمد المهدي، راجعه: عبد الحميد محمد المهدي ٢٠٠٩م.

٢٢٠- ضعيف الجامع الصغير وزيادته، لمحمد ناصر الدين الألباني، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، بيروت: المكتب الإسلامي.

٢٢١- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الطبعة الثانية، الدمام: هجر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٣هـ.

٢٢٢- الطبقات الكبرى، لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٦٨م.

٢٢٣- الطراز المتضمن لعلوم البلاغة وحقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله، بيروت: المكتبة العنصرية، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

٢٢٤- طريق الهجرتين وباب السعادتين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، القاهرة: دار السلفية، الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ.

٢٢٥- عادات القرآن الأسلوبية، لراشد بن حمود الثنيان، دمشق: دار التدمرية، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٢٢٦- عالج نفسك بالقرآن لعبد الدائم الكحيل، من موقعه على الانترنت.

٢٢٧- عالم الملائكة الأبرار، لعمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، الطبعة الثالثة، الكويت، مكتبة الفلاح ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٢٨- العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لعبد الرحمن بن محمد ابن خلدون المغربي، الطبعة الرابعة، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٢٢٩- العبودية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد زهير الشاويش، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة السابعة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢٣٠- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الطبعة الثالثة، دمشق وبيروت: دار ابن كثير ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٢٣١- العزف على أنوار الذكر، معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة، لمحمود توفيق محمد، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ.

٢٣٢- عظمة القرآن وتعظيمه وأثره في النفوس في ضوء الكتاب والسنة؛ مفهوم، وعظمة، وأثر، وتدبر، وفضائل، وعلم، وعمل، وتعاهد، وآداب، وأخلاق، لسعيد بن علي بن وهف القحطاني، الرياض: مطبعة سفير .

٢٣٣- عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، لمحمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، الطبعة الأولى، مكتبة دار الزمان ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٢٣٤- العقيدة وأثرها في بناء الجيل، لعبد الله عزام، باكستان: مركز شهيد عزام الإعلامي، الطبعة الأولى .

٢٣٥- علم مقاصد السور، لمحمد الربيعة، الطبعة١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م .

٢٣٦- عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، لأبي محمد محمود الغيتابى الحنفي بدر الدين العيني، بيروت: دار إحياء التراث العربي .

٢٣٧- عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل، لأبي العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المعروف بابن البناء المراكشي، تحقيق: هند شلبي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٩٩٠م .

٢٣٨- العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، بيروت: دار ومكتبة الهلال .

٢٣٩- غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائض الفاضحة، لأبي إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بالوطواط، تحقيق:

ابراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٢٤٠- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، المجموعة الثانية، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، الرياض: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء.

٢٤١- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.

٢٤٢- فتح الرحمن في بيان هجر القرآن، لأبي أنس محمد بن فتحي آل عبد العزيز، أبو عبد الرحمن محمود بن محمد الملاح، تقديم: فضيلة الشيخ الدكتور سعيد بن مفسر القحطاني، فضيلة الشيخ عبد الله بن مانع الروقي، دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٢٤٣- فتح الرحمن في بيان هجر القرآن، لأبي أنس محمد بن فتحي آل عبد العزيز، وأبي عبد الرحمن محمود بن محمد الملاح، الرياض: دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٢٤٤- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، اعتنى به: يوسف الغوش، الطبعة الرابعة، بيروت: دار المعرفة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٤٥- الفرقان في بيان إعجاز القرآن، لأبي محمد عبد الكريم بن صالح بن عبد الكريم الحميد، الطبعة الأولى، الرياض: فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٤٦- الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي، بيروت: عالم الكتب.

٢٤٧- فضائل الصحابة، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٤٨- فضائل القرآن، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، الطبعة الأولى، دمشق: مكتبة ابن تيمية ١٤١٦هـ.

٢٤٩- فضائل القرآن للقاسم بن سلام، لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، الطبعة الأولى، دمشق: دار ابن كثير ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢٥٠- الفقيه والمتفقه، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، الدمام، الطبعة الثانية، دار ابن الجوزي ١٤٢١هـ.

٢٥١- فهم القرآن ومعانيه ، للحارث بن أسد المحاسبي، أبي عبد الله، تحقيق: حسين القوتلي، الطبعة الثانية، بيروت: دار الكندي، دار الفكر، ١٣٩٨هـ.

٢٥٢- في ظلال القرآن، لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، الطبعة السابعة عشر، القاهرة: دار الشروق ١٤١٢هـ.

٢٥٣- فيض القدير شرح الجامع الصغير، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، مصر: المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ.

٢٥٤- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي ، تحقيق: ربيع بن هادي عمير المدخلي، عجمان: مكتبة الفرقان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١هـ.

٢٥٥- قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات لتقي الدين ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٥٦- القاموس المحيط، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الطبعة الثامنة، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢٥٧- القدوة مبادئ ونماذج، للدكتور صالح بن عبد الله بن حميد، منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية.

٢٥٨- القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، لمحمد الصادق إبراهيم عرجون، الإمارات: دار القلم، الطبعة الثانية ١٩٨٩م.

٢٥٩- القصة في القرآن، لمريم السباعي، رسالة دكتوراه قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى ١٤٠٤هـ.

٢٦٠- قواعد الترجيح، لحسين الحربي، الطبعة الأولى، الرياض: دار القاسم، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٢٦١- القواعد الحسان لتفسير القرآن، لأبي عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة الرشد ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٦٢- قواعد الفقه، لأبي عبد الله محمد بن أحمد المقري، تحقيق: محمد الدردابي، الرباط: مكتبة دار الأمان ٢٠١٢م.

٢٦٣- الكافية في الجدل، لأبي المعالي الجويني، تحقيق: فوقية حسين محمود، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٢٦٤- الكبائر؛ لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ، بيروت: دار الندوة .

٢٦٥- كتاب العلم، لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، تحقيق: صلاح الدين محمود، مكتبة نور الهدى .

٢٦٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة العبيكان ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .

٢٦٧- كشف الخفاء ومزيل الإلباس، لإسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبي الفداء، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي، بيروت: المكتبة العصرية، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م .

٢٦٨- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبي البقاء الحنفي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري بيروت: مؤسسة الرسالة .

٢٦٩- لباب الآداب، لأبي المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد ابن منقذ الكناني الكلبي الشيزري ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة: مكتبة السنة، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

٢٧٠- اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م .

٢٧١- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، تحقيق: نخبة من الأساتذة العاملين بدار المعارف، الطبعة الأولى، القاهرة: دار المعارف .

٢٧٢- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م .

٢٧٣- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لشمس الدين، أبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، الطبعة الثانية، دمشق: مؤسسة الخافقين ومكتبتها ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

٢٧٤- مباحث في التفسير الموضوعي، للدكتور/ مصطفى مسلم، الطبعة الثالثة، دمشق: دار القلم ١٤٢١هـ/ ٢٠٠م .

٢٧٥- مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة، وموقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها، لناصر عبد الكريم العقل، دار الوطن للنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٢٧٦- مباحث في علوم القرآن ، للدكتور/ مناع خليل القطان، الطبعة الثالثة، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م .

٢٧٧- المبسوط في القراءات العشر، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابوريّ، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، دمشق: مجمع اللغة العربية ١٩٨١م .

٢٧٨- متن القصيدة النونية لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.

٢٧٩- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

٢٨٠- مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد الرابع- السنة الثانية - ذو الحجة ١٤٢٨هـ.

٢٨١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين أبو الحسين علي بن أبي بكر الهيثمي، بيروت: دار الفكر، ١٤١٢هـ.

٢٨٢- مجموع الفتاوى، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٢٨٣- المجموع شرح المهذب، لأبي زكريا يحيى ابن شرف النووي، بيروت: دار الفكر.

٢٨٤- مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله، لعبد العزيز بن عبد الله بن باز، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.

٢٨٥- محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

٢٨٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٨٧- المحصول، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، دراسة وتحقيق: الدكتور طه جابر فياض العلواني، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٨٨- المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٨٩- المحيط في اللغة، لإسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب بن عباد.

٢٩٠- مختار الصحاح، لزين الدين محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢٩١- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم شمس الدين، ابن الموصلي، تحقيق: سيد إبراهيم، القاهرة: دار الحديث، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٩٢- مُخْتَصَرُ مِنهَاجِ القَاصِدِين، لنجم الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دمشق: مكتَبَة دَار البَيَان، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٢٩٣- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٢٩٤- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الفكر .

٢٩٥- المدخل إلى السنن الكبرى، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبي بكر البيهقي، تحقيق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، الكويت: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي .

٢٩٦- المراسيل، لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، تحقيق: شكر الله نعمة الله قوجاني، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ .

٢٩٧- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي بن سلطان محمد، أبي الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م .

٢٩٨- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، وبذيله: التلخيص، للحافظ الذهبي، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م .

٢٩٩- المستصفى، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

٣٠٠- المسند، لأحمد ابن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الطبعة الثانية، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٣٠١- مسند الدارمي المعروف بـ« سنن الدارمي »، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الطبعة الأولى، الرياض: دار المغني للنشر والتوزيع ١٤١٢هـ/ ٢٠٠٠م.

٣٠٢- مسند الشهاب، لأبي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٣٠٣- المسودة في أصول الفقه، لآل تيمية: مجد الدين عبد السلام ابن تيمية، وعبد الحليم ابن تيمية، وأحمد ابن تيمية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الكتاب العربي.

٣٠٤- مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه، لمحمد بن علي بن آدم بن موسى، الرياض: دار المغني، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٣٠٥- مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثالثة، بيروت: المكتب الإسلامي ١٩٨٥م.

٣٠٦- مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، لعادل بن محمد أبي العلاء، المدينة المنورة: منشورات الجامعة الإسلامية، العدد ١٢٩، السنة ٣٧/ ١٤٢٥هـ.

٣٠٧- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم عمر البقاعي، تحقيق: د. عبد السميع محمد أحمد حسنين، الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة المعارف ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٣٠٨- المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية، الهند: المجلس العلمي ١٤٠٣هـ.

٣٠٩- المصنف، لأبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة الراشد ١٤٠٩هـ.

٣١٠- مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية، لأبي الفيض أحمد بن محمد الصديق الغماري، دمشق: دار الألباب، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

٣١١- معالم التنزيل، لمحيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان الحرش، الطبعة الرابعة، مكة المكرمة: دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٣١٢- معانى القرآن للأخفش، لأبي الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط، تحقيق: د.هدى محمود قراعة، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ/ ١٩٩٠م .

٣١٣- معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي/ محمد علي النجار/ عبد الفتاح الشلبي، مصر: دار المصرية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولى .

٣١٤- معاني القرآن وإعرابه، لإبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، الطبعة الأولى، بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٣١٥- المعجزة الكبرى « القرآن »، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، بيروت: دار الفكر العربي .

٣١٦- المعجم الأوسط، لسليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق عوض الله وعبد المحسن الحسيني،القاهرة: دار الحرمين ١٤١٥هـ .

٣١٧- المعجم الصغير للطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٥ - ١٩٨٥م .

٣١٨- المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية، الموصل: مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م .

٣١٩- المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، بيروت: دار الدعوة .

٣٢٠- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٣٢١- المعرفة والتاريخ، لأبي يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي، تحقيق: أكرم ضياء العمري، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

٣٢٢- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، لأبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، بيروت: دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م .

٣٢٣- مفاتيح تدبر القرآن، لخالد بن عبد الكريم اللاحم، موقع المسلم، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م .

٣٢٤- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، بيروت: دار الكتب العلمية .

٣٢٥- مفردات القرآن نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، لعبد الحميد الفراهي، تحقيق: د.محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٢م .

٣٢٦- المفردات في غريب القرآن، للحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة.

٣٢٧- المفصل في صنعة الإعراب، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، تحقيق: د. علي بو ملحم، بيروت: مكتبة الهلال، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

٣٢٨- مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، لمساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، الرياض: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

٣٢٩- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبي جعفر، تحقيق: عبد الغني محمد علي الفاسي، بيروت: دار الكتب العلمية.

٣٣٠- المنار المنيف في الصحيح والضعيف، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٣٣١- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، الطبعة الثالثة، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣٣٢- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني، تحقيق: الحبيب ابن الخوجة، تونس: الدار العربية للكتاب ٢٠٠٨م.

٣٣٣- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد رشاد سالم، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٣٣٤- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

٣٣٥- منهج الجدل والمناظرة، لعثمان علي حسن، الطبعة الأولى، دار إشبيليا، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٣٣٦- المنيحة بسلسلة الأحاديث الصحيحة، لأبي إسحاق الحويني الأثري حجازي محمد شريف، تصنيف وانتقاء: أبي عمرو أحمد بن عطية الوكيل، مصر: مكتبة دار ابن عباس للنشر والتوزيع.

٣٣٧- موارد الظمآن لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان ، لعبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان، الطبعة الثلاثون ١٤٢٤هـ.

٣٣٨- الموافقات، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الطبعة الأولى، دار ابن عفان ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٣٣٩- مَوسوعَةُ الأَخلَاقِ، لخالد بن جمعة بن عثمان الخراز، الكويت: مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٣٤٠- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، لمحمد بن علي ابن القاضي محمد الفاروقي الحنفي التهانوي، تحقيق: د. علي دحروج، الطبعة الأولى، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون ١٩٩٦م.

٣٤١- الموطأ، لمالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

٣٤٢- موقع البوابة على الشبكة العنكبوتية.

٣٤٣- الموقع الرسمي للشيخ/ عبدالعزيز بن باز، على الشبكة العنكبوتية:

٣٤٤- موقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات، بحث محكم بكلية أصول الدين جامعة الأزهر ١٤٢٥هـ، لأحمد بن محمد الشرقاوي سالم.

٣٤٥- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م.

٣٤٦- الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد، الكويت: مكتبة الفلاح، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٣٤٧- الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن، لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم الهروي البغدادي، تحقيق: محمد بن صالح المديفر، الرياض: مكتبة الرشد، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٣٤٨- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، لمحمد بن عبد الله دراز، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، دمشق: دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٣٤٩- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، الطبعة الثالثة، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣٥٠- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم، لعدد من المختصين، بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد، جدة: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة.

٣٥١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: مجموعة من العلماء بدائرة المعارف العثمانية، القاهرة: ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٣٥٢- النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، بيروت: المكتبة العلمية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٥٣- هجر القرآن العظيم أنواعه وأحكامه، لمحمود أحمد الدوسري، الدمام: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٣٥٤- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيرواني الأندلسي القرطبي المالكي، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٣٥٥- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني، تقديم وتحقيق: عربي عبد الحميد علي، بيروت: دار الكتب العلمية.

٣٥٦- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الطبعة الأولى، بيروت: الدار الشامية، ١٤١٥هـ.

٣٥٧- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، لمحمد محمود حجازي، القاهرة: دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٣٥٨- ورتل القرآن ترتيلًا، لأنس كرزون، الرياض: دار ابن حزم ٢٠٠٢م.

٣٥٩- الوساطة بين المتنبي وخصومه، لأبي الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣٦٠- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، وأحمد محمد صيرة، وأحمد عبد الغني الجمل، وعبد الرحمن عويس، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٣٦١- وقفات مع أحاديث تربية النبي ﷺ لصحابته، لعبد الرحمن بن عبد الكريم الزيد، ضمن منشورات مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة السادسة والثلاثون، العدد: (١١٢) عام ١٤٢٤هـ.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

كلمة الكرسي .... أ

كلمة الفريق البحثي.. ١

المقدمة.. ٦

أولًا: أهمية الموضوع وأسباب الكتابة فيه: ٨

ثانيًا: أهداف الدراسة: ٩

ثالثًا: منهج الدراسة: ١٠

رابعًا: منهجية الفريق البحثي وضوابط الكتابة: ١٠

خامسًا: الدراسات السابقة: ١٢

سادسًا: خطة الدراسة: ١٢

الفصل الأول: الهدايات القرآنية، مفهومها، وأهميتها، وخصائصها.......... ١٥

المبحث الأول: مفهوم الهدايات القرآنية ١٦

مدخل ١٧

المطلب الأول: تعريف الهدايات في اللغة ٢٠

المطلب الثاني: معاني الهدى في القرآن الكريم.. ٢٧

المطلب الثالث: الفرق بين الهدى والهداية والاهتداء في اللغة والقرآن........ ٣٩
المطلب الرابع: تعريف الهدايات القرآنية في الاصطلاح ٤٤
المطلب الخامس: الفرق بين مصطلح الهدايات والمصطلحات المقاربة........ ٤٨
المطلب السادس: تعبيرات علماء التفسير لمفهوم الهدايات..................... ٥٨
المبحث الثاني: أهمية الهدايات القرآنية ٧١
مدخل ٧٢
المطلب الأول: موضوع الهدايات القرآنية ٧٤
المطلب الثاني: صفات الهدايات القرآنية................................ ٧٨
المطلب الثالث: غايات الهدايات القرآنية وأهدافها......................... ٨٥
المطلب الرابع: عظيم أثر الهدايات القرآنية............................... ٩٥
المبحث الثالث: خصائص الهدايات القرآنية ١٠١
مدخل ١٠٢
المطلب الأول: الهدايات ربانية المصدر والغاية ١٠٣
المطلب الثاني: الهدايات هي المقصد الأول للقرآن الكريم.................. ١٠٩
المطلب الثالث: خاصية العموم في الهدايات القرآنية........................ ١١٤
المطلب الرابع: خاصية التمام والكمال في الهدايات القرآنية.................. ١١٩
المطلب الخامس :خاصية الوضوح واليسر للهدايات.......................... ١٢٢
المطلب السادس: خاصية الخلود والتجدد في الهدايات القرآنية ١٢٧
المطلب السابع: خاصية المثالية والواقعية في الهدايات القرآنية ١٣٠
الفصل الثاني: الهدايات القرآنية، أنواعها، ومجالاتها، وحال الناس معها أ/١٣٤

المبحث الأول: أنواع الهدايات القرآنية ١٣٥
مدخل.. ١٣٦
النوع الأول: الهداية العامة ١٣٨
النوع الثاني: هداية البيان والدلالة.................................. ١٤٥
النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام ١٥١
النوع الرابع: الهداية في الآخرة ١٥٨
المبحث الثاني: مجالات الهدايات القرآنية ١٦٤
تمهيد.. ١٦٥
المطلب الأول: مجالات هدايات القرآن الكريم المتفق عليها.................. ١٦٨
المجال الأول: هدايات القرآن الكريم في مجال العقيدة...................... ١٦٨
المجال الثاني: هدايات القرآن الكريم في مجال العبادة ١٩٦
المجال الثالث: هدايات القرآن الكريم في مجال الأخلاق والآداب ٢٠٣
المجال الرابع: هدايات القرآن الكريم في مجال المعاملات ٢١٢
المطلب الثاني: المجالات المختلف فيها....................................... ٢١٩
المبحث الثالث: حال الناس مع الهدايات القرآنية ٢٢٩
تمهيد:.. ٢٣٠
المطلب الأول: حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار الاستماع والتلاوة.... ٢٣٧
المطلب الثاني: حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار التدبر ٢٥٢
المطلب الثالث: أحوال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار العلم والعمل..... ٢٦٤
المطلب الرابع: أحوال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار التداوي والاستشفاء به . ٢٧٦

الفصل الثالث: أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات، ووسائله في تحقيقها، ومميزاتها. ٢٨٧
تمهيد: في بيان مفهوم الأساليب والوسائل ٢٨٨
المبحث الأول: أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات ٢٩٣
تمهيد.. ٢٩٤
المطلب الأول: أسلوب الاستفهام ٢٩٧
المطلب الثاني: التوكيد.. ٣٠٤
المطلب الثالث: التكرار.. ٣٠٧
المطلب الرابع: الطباق والمقابلة ٣١٤
المطلب الخامس: أسلوب الالتفات.. ٣١٨
المطلب السادس: الأسلوب الجدلي والحواري ٣٢٣
المطلب السابع: أسلوب ضرب الأمثال.. ٣٣٠
المطلب الثامن: الأسلوب القصصي.. ٣٤٤
المطلب التاسع: أسلوب التحدي والتعجيز ٣٥٠
المطلب العاشر: أسلوب الترغيب والترهيب........................ ٣٥٦
المطلب الحادي عشر : أسلوب التقديم والتأخير : ٣٦٣
المبحث الثاني: وسائل القرآن الكريم في تحقيق الهدايات ٣٦٩
المطلب الأول: الدعوة إلى التعقل والتفكر ٣٧٠
المطلب الثاني: إنكار تقليد الآباء والكبراء........................ ٣٨٢
المطلب الثالث: الدعوة إلى تدبر القرآن الكريم........................ ٣٨٧
المطلب الرابع: الدعوة إلى العمل بالقرآن الكريم........................ ٣٩٧

المطلب الخامس: التأسي بالقدوة الحسنة........................ ٤٠١
المطلب السادس: الأمر بسؤال الهداية ٤٠٦
المطلب السابع: التذكير بأصل الخلق........................ ٤١٠
المطلب الثامن: الأمر بتذكر النعم........................ ٤١٥
المبحث الثالث: مميزات الأساليب والوسائل القرآنية في عرض الهدايات ٤١٩
تمهيد.. ٤٢٠
المطلب الأول: كمال الفصاحة والبلاغة........................ ٤٢٢
المطلب الثاني: الصدق ٤٢٧
المطلب الثالث: التنوع........................ ٤٣١
المطلب الرابع: الشمول ٤٣٨
المطلب الخامس: الإجمال مع الوضوح والبيان ٤٤٣
المطلب السادس: التوازن بين العقل والعاطفة........................ ٤٤٧
المطلب السابع: الدقة والعمق ٤٥١
الفصل الرابع: المنهج الأمثل في التعامل مع الهدايات القرآنية ٤٥٩
المبحث الأول: هدي السلف في التعامل مع الهدايات القرآنية........ ٤٦٠
تمهيد.. ٤٦١
أولًا: كثرة تلاوة القرآن الكريم والاهتمام بحفظه وإدامة النظر فيه............ ٤٦٦
ثانيًا: الاهتمام بتعلم أحكامه ومعانيه........................ ٤٧١
ثالثًا: العمل بهدايات القرآن الكريم ظاهرًا وباطنًا ٤٧٥
رابعًا: تدبر القرآن الكريم، والتفكر في هداياته ٤٨٠

خامسًا: تعليم القرآن الكريم ومدارسة هداياته ٤٨٥
سادسًا: التأكيد على معرفة أحوال النزول ٤٨٧
سابعًا: استحضار هدايات القرآن الكريم في مختلف المواقف.................. ٤٨٩
ثامنًا: اجتناب التكلف والمراء والجدال...................................... ٤٩٢
تاسعًا: البعد عن الاختلاف في القرآن الكريم ٤٩٦
المبحث الثاني: طرق العلماء في الوصول إلى الهدايات القرآنية ٥٠٢
تمهيد.. ٥٠٣
أولًا: الاعتماد على دلالات الألفاظ.. ٥٠٥
ثانيًا: الالتفات إلى تنوع الأساليب.. ٥٠٩
ثالثًا: النظر في اختلاف القراءات ٥١١
رابعًا: التأمل في مجموع أدلة الكتاب والسنة.................................. ٥١٥
خامسًا: الصدور من أصول الشريعة ٥١٩
سادسًا: استحضار حكم التشريع وأسراره ٥٢٢
سابعًا: الاستفادة من أوجه الإعراب ٥٢٤
ثامنًا: فهم الآيات من خلال أحوال النزول ٥٢٦
تاسعًا: النظر في المناسبات ٥٣١
عاشرًا: التأمل في مواضع اقتران أسماء الله الحسنى............................ ٥٣٤
الحادي عشر: استنباط مقاصد القرآن الكريم ٥٣٨
الثاني عشر: النظر في السياق ٥٤١
الثالث عشر: الاستفادة من آثار الصحابة والتابعين............................ ٥٤٣

الرابع عشر: التدبر في قراءة النبي ﷺ في الصلوات وبعض الأحوال........... ٥٤٦
الخامس عشر: النظر في دلائل الرسم ٥٤٩
السادس عشر: ربط الآيات بالواقع ٥٥٢
السابع عشر: تأمل الآيات من خلال مكتشفات العلوم الكونية.............. ٥٥٥
المبحث الثالث: أصول وقواعد وضوابط في التعامل مع الهدايات القرآنية ٥٥٩
مدخل ٥٦٠
تمهيد: في تعريف الأصل، والقاعدة، والضابط، وبيان الفرق بينهم............ ٥٦٦
المطلب الأول: تعريف الأصل والقاعدة والضابط ٥٦٦
المطلب الثاني: الفرق بين الأصول والقواعد والضوابط...................... ٥٧٣
المطلب الأول: أصول في التعامل مع هدي القرآن الكريم...................... ٥٧٥
الأصل الأول: " الأصل العمل بأدلة الكتاب والسنة، ولا يقال بالنسخ إلا بدليل قاطع ".. ٥٧٥
الأصل الثاني: " القرآن الكريم أنزله الله ﷻ؛ لهداية الخلق، وإرشادهم للتي هي أقوم "..... ٥٧٨
الأصل الثالث: " القرآن الكريم جعله الله تعالى تبيانًا لكلِّ شيء "................ ٥٨١
الأصل الرابع: "القرآن كله محكم باعتبار، وكله متشابه باعتبار، وبعضه محكم، وبعضه متشابه، باعتبار ثالث" ٥٨٥
الأصل الخامس: " القرآن الكريم ليس فيه اختلاف تناقض أو تفاوت "....... ٥٩٠
الأصل السادس: " القرآن الكريم معانيه تجري مع الزمان والمكان والأحوال لا تتغير، وإنما التغير يكون فقط في أحكامه، الراجعة للعرف والعوائد".......... ٥٩٤
الأصل السابع: "الأوامر الربانية في القرآن الكريم ، إما لمكلف لم يقم بها ، فعليه القيام، وإما لقائم بها، فعليه تحقيق الكمال والثبات " ٥٩٨